

الملهاة الفلسطينية

إبراهيم نصرالله

طيور الحذر

رواية

30.6.2013





الطبعة الخامسة

IBRAHIM NASRALLAH

THE BIRDS OF CAUTION

الملهاة الفلسطينية



- الذي لا نراه وحده الذي لا يموت؟
- ربما! أجابت.
- هل ترينني الآن؟
- لا.
- هذا يعني أنني لن أموت؟
- ولكنّني أستطيعُ أن ألمسَك.



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L


طيور الحذر



الطبعة الرابعة: 1430 هـ - 2009 م
الطبعة الخامسة: 1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-9953-87-522-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لوحة الغلاف: تفصيل من لوحة الفنان **غسان السباعي**
تصميم الغلاف: **الفنان محمد نصرالله**

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

لن تصدِّقه أمه حين يقول لها: إنني أتذكَّر كلّ ما حدَث، كما لو أنه يحدُث الآن، وغدًا، كما لو أنه يحدث دائما؛ لن تصدِّقه، ولكنها سترتبك حين يقول لها: لا تنسَي أنني كنت الحاضر وأنت الغائبة في تلك اللحظات، حيث لم يكن هناك سوى صراخك!

وستصرخ للمرّة الألف: ستجنّني.

فيقول لها: أنتِ لا تختلفين أبدًا عن أمّ سعيد!

فتقول: ومَن هي أمّ سعيد؟

- واحدة لم أعرفها ولم تعرفني!

فتسأل: وكيف لا أختلِف عنها؟

فيقول: لأنها لا تصدِّقني!

فتصرخ: أحدنا سيجنن الآخر!

- لنتَّفق. أقولُ لكِ كلَّ شيء، وتقولين لي كلَّ شيء.

فتقول: كلّ شيء؟! هناك ما لا يمكن أن تتحدَّث به الأمُّ لابنها.

فيقول: وهناك ما لا يمكن أن يتحدَّث به الابنُ لأمِّه.

شــــهادة

دفعتْني يداها إلى الدّاخل..

أمّي تصرخ، وتلوك العتمةَ، تلك التي كانت (تَصْرِقُ) تحت أسنانها.

نظرة الرّعب احتلتْ عينيّ تلك المرأة، جعلـتهما تبرقـان كـأعين الثعالـب في الليل، أعين الضباع. كان عليها أن تُنهي كلَّ شيء بسرعة، كانت خائفة لا بدّ، لم أعرفها، تلك المرأة لم أعرفها، ربما كنتُ عرفتها لو أنها نطقتْ كلمة واحدة، ربـما كنت عرفتها من صوتها، ولكن وجهها كان غريبًا عبر سحابة الدّم، وسيـصعب عليّ فيما بعد، أن أُبعِد لونَ الرّعب من ملامحها حتى أصرخ صرختي الكبيرة:

إنها هي..

ولن تصدِّقني أُمي.

لن تصدِّقني حين أقول لها: إنني صمدتُ، وإنني ربحتُ المعركـة في النهايـة، لن تصدِّقني مع أنني الآن بين يديها وأحدِّثها.

دفعتْني للدّاخل أكثر مما تتصوَّرين، أكثر مما أتصوَّر، وللحظة اعتقـدتُ أنهـا تضغطني لأنها تريد أن تُدخلني إلى داخلي، حيـث سأتلاشـى هنـاك ثانيـة؛ كنـا وحدنا، أنا وهي، وأنت الغائبة!

اندفع أبي صاعدًا التلَّ، باحثًا عن القابلة، تاركًا أمّي مع تلك المرأة، ومن كان يُصدِّق أن يحدثَ ما يحدث، ولكنه عندما تأخَّر خفتُ؛ كيف لي أن أعود ثانية إلى

نقطة الصفر تلك، لأكون لا شيء، أنا الذي قطعتُ عتمةَ تلك الشهور لأكـون؟ وصرختُ لو تنتبه أُمّي لما يحدث! لكنَّ أَلمها كـان أكـبر مـن حيـاتي. الآن أقـول ذلك، وستقول أمّي: كيف يمكن أن تصف ذلك كلّه وأنـت أصـغر مـن فرخـة ممعوطة؟!

فأقول: أن لا أتكلَّم لا يعني أنني لم أكن أُحسّ.

***

زمن طويل مرَّ، قبل أن أسمع وقْعَ خطوات أبي وسط حُمّى ذلك الجنون الذي يملأ الغرفـة ـ المغـارة، ولم يكـن وحـده، وستـسألني أمـي: كيـفَ عرفـتَ أنها خطوات أبيك؟!

فأصمتُ: إذا كنـتِ تريـدين أن نختـم الحكايـةَ مـن أوّلـها فـسأختمها، لا تقاطعيني، لأنني لن أُقاطعـكِ، وإلا سـننام. فتقـول: لا، أكْمِـل. ولكـن كيـفَ عرفتَ أن هذه الخطى خطى أبيك، وليست خطى أخيكَ أو أختكَ مثلًا؟!

فأضحك وأقول: كنتُ أعرف أن ليس لديّ أخـوة لأنني لم أر آثـارَ أحـدٍ في الدّاخل أبدًا، كان الرَّحم جميلًا ودافئًا وله رائحة غرفة غير مسكونة.

وسأقول لها: ثم إنني تأكدتُ من ذلك حين خرجتُ.

وتقول: كيف؟ وسأرتبك أنا هذه المرّة، وسأجدُ كلماتي بصعوبة حين أهمس: هذا لأنَّ الخروج من بين عظامك كان صعبًا!

***

أتيتُ إلى الدنيا قبل موعدي بشهر، ولهذا السبب قصّة، لا تتعلَّق أبـدًا بـذلك الإرهاق المتواصل الذي كانت تتعرَّض له أمّي باستمرار في بنـاء سنـسلة حـول البيت، أو تلييس شقوق الجدران، كنتُ فَرِحًا بحركاتها، وحين لم تكن تتحـرَّك، كنتُ أصرخ في الدّاخل بكلّ ما لديّ من قوّة، وأطرقُ جدران رحمها، فتلتفتُ إلى أبي وتقول: أنظر، عَلِيّ!

كان أبي يحدّق، فتزمُّ ثوبها حول بطنها لتصبح حركتي ظاهرة أكثر، ويأخذني الحماس كموجة ثائرة تحاول الانفلاتَ من البحر لتطير!

***

مرّةً غافل أبي أمّي، ورفع طرف ثوبها فانكشف بطنها، حاولتْ أن تُخفيه، ولكن بين محاولتها إخفاء بطنها، ومحاولة أبي إبقاءه مكشوفًا ذلك النّهار تحت شجرة التّوت، سمعت ذلك الغناء الذي لن أنساه، عصفور حقيقي كان يغنّي، لم يرتجف، لم يفزع وهو يرى ويسمع كلّ تلك الفوضى تحت الشجرة، وحينما هدأتْ عاصفة الضّحك، سمعتُ خفقان أجنحة ترفُّ، وتبتعد. كانت المرّة الأولى التي أسمعه عن هذا القرب.

تلك الليلة قررتُ المغادرة.

***

أمّي قالت لأبي: مزحتكَ لن تمرّ على خير، الولد بدأ يُخابط في بطني، وكأنه باسم الله قِرد، لا تفاجئني ثانية هكذا!

في المساء ازدادتْ حركتي أكثر وأكثر، كان اليوم يوم الجمعة. ولم يدُرْ بخلدهم أن الأمر يحتاج للقابلة، لكن أمي تحاملتْ على نفسها وهي تدرك أن هذا هو شهرها الثامن.

***

بيتنا لم يكن أكثر من غرفة، غرفة واسعة جدًا، نصفها مغارة ونصفها الآخر مبنيٌّ من الطين والقش، وكانت السنسلة شبيهة بحذوة حصان، السنسلة التي بنتْها أمي، وكانت شغلها الشّاغل طَوال الشهور الأخيرة، حيث لم تترك حجرًا في ذلك الجبل دون أن تُحضره، وكان ذلك مصدرًا لشجارات عدَّة مع الجارات البعيدات، ومع أصحاب الأراضي الذين كانوا يصرخون في وجهها: لم تُبقي في أرضنا أية صرارة يا امرأة، إنك تسرقينها كالنّملة، رغم أنهم كانوا يدفعون لإبعاد الحجارة تمهيدًا لزراعة تلك السّفوح.

قاسية كانت تلك الكلمات، بكتْ أمي، بللتني، تفلّتُّ، خافتْ عليّ، فقطعتْ سيلَ دمعها.

***

عاودني صوتُ الغناء ورفيف الأجنحة. حاولتُ الخروجَ ثانية دون جدوى، وفكَّرتُ فيها بعد، وليس لأحد أن يلومني: لماذا لا يكون هذا البيت الجميل خارج بطن الأم؟ أو، لماذا لا يكون شفافًا حين تحمل بنا، وتزداد شفافيته كلما

كبرنا، فيتاح لنا أن نستمتع برؤية العالم منذ البداية، منذ أن نُصبح نُطفة ثم عَلَقة، وما إلى ذلك؟!

هذه الفترة اعتبرتها ضائعة، دائما اعتبرتها فترة ضائعة من عمري، أعني فترة وجودي في الرّحم، حيث العالم مُقفل ولا يربطني بالحياة سوى خيط لحمي. تُبًّا!

أثبتتْ أُمي قدرتها على التحكُّم بنفسها حين صمدتْ أسبوعًا كاملًا، رغم أنها لم تكفّ عن لوم أبي.

.. في واحد من أيام ذلك الأسبوع، وكانت تجلس في ساحة الدار، أية دار هذه وأية ساحة؟!! تحت شجرة التوت. سمعتُها تُرحِّب بشخص ما قادم نحونا، بخطى ناعمة، مثل ذلك الغناء، وله رفيفٌ وخفقان يحفُّ به، عرفتُ فيما بعد أنه حفيفُ تنّورة صغيرة!

- أهلًا "حنّون".

وحين ردتْ حنّون قائلة: "أهلًا خالتي". كاد قلبي يطير من مكانه، بدأ يتخبَّط بطريقة عجيبة، حتى أنه أفلتَ من صدري، ولاحقتُهُ مدَّة في ثنايا الرَّحم حتى استطعتُ إعادته إلى مكانه، والحقيقة التي أكدتها لي الأيام: أن الصَّدر ليس مكانه الطبيعي أبدًا، وأن وجوده في مكانه هذا، كوجودي داخل الرّحم، غلط في غلط!

- شو بدِّكْ يا حبة عيني؟

ردتْ حنّون: إبرة بابور يا خالتي.

وانتفضَ قلبي ثانية.

- حاضر يا عيني.

حين قامتْ أمي لتُحضر إبرة البابور، تمنيتُ لو أنها أبقتْني في الخارج، حيث بقيتْ حنّون؛ عندها بدأتُ فصلًا من فصول شغبي التي أطرُقُ فيها جدران الرّحم دون هوادة.

وبدأتْ أمّي بدورها تهمس: بسم الله. قرد أم بني آدم؟! الله يساعدك على عريسِك، شيطان مصفّى!

ولما عرفتُ أنني أنا المقصود، جُنَّ جنوني، وطار قلبي، طار، ولربّما وصل إلى رأس أمي، متجاوزًا رحمها ورئتيها وكلّ شيء. لكن "حنّون" ابتعدتْ، وذهبتْ محاولاتي للخروج سدى.

تلك اللحظة بكيتُ قهرًا للمرّة الأولى في حياتي، وجننتُ.

***

قالت أمي: خوفي أن تكون الليلة ليلتي يا عليّ. وكنتُ أُخابط، وهي تحاول التغلُّب على هجماتي الشديدة.

قال: أمامكِ شهر كامل.

ولكنها عندما بدأتْ تصرخ، لم يجد بُدًّا من الخروج لإحضار القابِلة.

- أَلم أقلْ لك هذا الكلام؟! سألتْني أمّي.

قلتُ: أبدًا.

***

دفعتني يداها إلى الدّاخل.

وكنتُ أتمنى أن تنادي أمّي، ليحضُر أبي، لا أن تصرخ هذا الصّراخ، كنتُ أتمنى أن أصرخ أنا: لستُ بحاجة للدّاية، لستُ بحاجة لمساعدة أحد، اتركوني سأخرج وحدي، وكانت تدفعني للدّاخل.

عندها تجمَّعتُ واندفعتُ كطلقةٍ من بين اليدين القاسيتين، حتى أنني أحسستُ بالمرأة تنقلبُ على ظهرها! وعندها بكيتُ، بكيتُ فرَحًا، وبكتْ هي قهرًا، وفتح أبي الباب، تناولتْني الدّاية من قدميَّ وصفعتْني، وقالت لأبي: مبروك، أَجاك ولد.

هرولتِ المرأةُ: فوق السّفح، حاولَ أبي أن يعيدها، راحتْ تلعن الدّنيا واليوم الذي جئتُ فيه؛ وسيمرّ وقت طويل قبل أن أراها ثانية.

وكنت أتساءل: أية كارثة تلك التي كانت ستحلُّ بي لو كنت بنتًا؟! ما الذي كانت ستقوله "حنّون"، وهم يخبرونها أن عريسها لن ينفعها، لأنه بنت؟!

***

تناسيتُ كلّ ما مرَّ بي أثناء ولادتي. وبدأتُ البحث عن حنّون والطائر، إلا أن لقائي بهما لم يكن سهلًا. وللحظة تساءلتُ: ماذا لو كانا الشيء نفسه؟!

لستُ أذكر تمامًا ما الذي كان يعنيه مرور الزّمن، تلك الأيام، يأتي الناس، يتحلّقون حولي، يدسُّ لي بعضهم أشياء لا أعرفها في ثنايا ملابسي، أشياء عرفتُ فيما بعد أنها نقود، بعد حديث ودّيٍّ حول صحتي واسمي وملامحي.

يهمس الرّجل: الخالق الناطق أبوه!

وتهمس امرأة: لا يا رجل! إنه يشبه أمه تمامًا.. أنظر عينيه، أنفَه.

كنت أحدقٍّ في وجه أبي، ثم أعود للتحديق في وجه أمي، أبي أبيض، أمي سمراء، قلتُ: ربما كنتُ أسمر وأبيض في الوقت نفسه، لكن، مرور الأيام أثبتَ لي أن ذلك مستحيل.

***

بدأتُ أنشغل بمراقبة ملامح الناس. والحقيقة أنّ أكثر ما كان يفاجئني: ضحكهم. تنفرج شفاههم وتتغضّن خدودهم، تضيق عيونهم وتلمعُ أسنانُهم في ضوء السِّراج فيبدو المشهد في غاية الرَّوعة، ثمّ تنبسط ملامحهم صافيةً من جديد.

حاولتُ تقليدَهم أكثر من مرَّة في أيامي الأولى، إلا أن ذلك لم ينفع، كنتُ أحسّ أنني مجرَّد طفل أهبل، يضحك بلا سبب، وكان الأجدر به أن يبكي هو الذي لم ير، بعدُ، "حنّونَهُ" أو "طائره".

بين زيارات الناس وانشغالهم بي، وتنقُّلي الدائم بين أذرعهم، تفرُّسهم في وجهي وصلاتهم على النّبيّ.

بين فرح أمي بما وصل لنا من سكر وأرز ونقوط، وتذكير أبي لها: بأن كلّ ما قدّمه لنا الناسُ دَيْنٌ علينا، كنتُ أواصل النّظر إلى النافذة وأرى قطعة زرقاء صافية، لست أدري، بعيدة وقريبة، تعلّقتُ بها، ولو كنتُ أتكلّم لطلبتُ من أحد المهنئين بقدومي لهذه الدّنيا أن يأتيني بها بدل هذه الثياب التي كلّما انصرف الضّيوف، قالت أمي لأبي وهي تخبئها: ثياب ممتازة ستكون جميلة عليه حين يمشي.

فيقول: لا تنسَي، أم خليل ستلِد قريبًا.

فتقول: لا... هذه لابني.

ولكنهم لو خيروني بين شجاراتهم الصغيرة الطيِّبة تلك، لقلت: لتذهب الثياب إلى أمّ خليل، لتذهب لأيّ أمّ، أنا أريد القطعة الزّرقاء...

***

لاحظتُ اختفاءها، انسحابها من بين عينيّ، وهي أمامها، تغيُّر لونها، عصف القلقُ بي، حاولتُ أن أتفلَّت من قماطي المشدود عليَّ بإحكام، أن أُشير لقطعتي الزّرقاء، أن أطلب منهم إعادتها. وأتساءل: هل يعتقدون أنني سأهرب إذا ما حلّوا وثاقي؟!

لم ينتبهوا لي. وجاء ليلٍ فحاولتُ أن أفكَّ أسرَ نفسي، أحرِّر يديَّ، رغم أن هذا التصرُّف جعل أمّي تُحكم القِماط عليَّ أكثر، إلاّ أنني لم أيأس. كنت أحاول ذلك مرّة إثر أخرى، حتى صرتُ أنجح دائمًا؛ فتجنُّ أمي: مهما شددتُ عليه القماط، يفكّ يديه، أخشى عليه أن يُجرِّح نفسه!

لكنها استسلمتْ...

استسلمتْ أمي أخيرًا، بعد أن فقدت الأملَ بأنني سأكون مطويًّا داخل الحِرام القطني. استسلمت، وفهمتُ ذلك، إلّا أنها لم تفهم ما أريده، فظلّت القطعةُ الزرقاء بعيدة، وانشغلتُ بها أكثر، بحنّون والطائر، وتساءلتُ هل يشبهانها؟ ولم يعد يقلقني غيابها، لأنني اكتشفتُ أن سهري الطّويل في انتظارها، ربما كان السّبب الوحيد لعودتها في اليوم التالي!

***

فرحًا بتأمّلاتي الصغيرة كنتُ، إلى أن قرّروا ذات يوم نقلَ السّرير المعدني بمن فيه، وأعني أنا، إلى الدّاخل المعتم مكان (النَّمْلِيَّة) لم أدرك في البداية ما كان يدور، وما هي تَبِعاتُ ذلك. أمّي كانت تقول: هذا يجعل الغرفة أوسع، ويُبعدني عن أيّ هبّة هواء يمكن أن تضرَّني.

هكذا أُدخِلْتُ إلى جوف الجبل، إلى ذلك الجزء المحفور من الغرفة، إلى الجزء-المغارة.

عندها بكيتُ، بكيت كثيرًا، كثيرًا، وظللتُ أبكي هكذا لأيام، أحسستُ برأسي ينفجر، وعينيّ تلتهبان وحنجرتي تتشقّق.

لم يتركوا طريقًا إلّا وسلكوه لكي يعيدوني إلى ما كنتُ عليه، لكن كلّ المحاولات ذهبت هباءً:

- أريد تلك القطعة الزّرقاء، أن أنتظرها وأن تأتي!

***

معتمًا كان الرُّكن، في ذلك الصباح، وباردًا، لم أعد مهتمًّا بتحرير يديَّ من القِماط، فأرجعوا ذلك إلى مرضي.

سمعتُ أُمي ترحِّب في حوش الدّار بأمّ خليل، وتضحك بفرح شديد وهي تقول

- أهلًا بعروسِتْنا.

فزعٌ غريب دبَّ فجأة، وبدأ قلبي يخفق بجنونه القديم..

اقتربتِ الأقدامُ..

كان لها وقْعٌ هائل على الأرض، ومن بينها عرفتُ تلك الخطوات الصغيرة. التفتُّ حولي، فكرتُ بالفرار، تفلتُّ، وفجأة استسلمتُ لقَدَر غريب يحفُّ بي. كتمتُ أنفاسي، أو أنها انكتمتْ من تلقاء نفسها.

دخلوا الغرفة، جلستْ أم خليل وعروستنا في ذلك الجزء المضاء، وكانت تعتذر لأنها تأخرتْ في المجيء.

حاولتُ استراق النّظر أكثر من مرّة لمشاهدة حنّون، وعندما لم أنجح، بدأتُ أتحرّك بعصبيَّتي المعهودة.

- وين العريس؟ سألتْ أم خليل.

ارتبكتُ.

- مريض ورأسه مثل النار، لم تنفع الكمّادات معه، لم ينفعه شيء.

- خذيه للدكتور.

صمتتْ أمي.

- لدكتور "الوكالة". قالت أم خليل.

- إن شاء الله، بكرة.

تقدَّمتْ أمي، عرفتُ أنها ستحملني إلى ضيفتنا، وعروستنا، حدّقَتْ في وجهي لحظة غير مُصدِّقة، كان ارتباكي وخوفي قد ضاعفا أعراض مرضي،

أحسستُ أنها لن تحملني إليهما، وأنني أُضيّع الفرص بهبلي. دبَّت الحركةُ في جسدي، مددتُ لها نظرة متوسِّلة، فهمتْ، حملتني؛ أمّي عمومًا ظلّتْ تفهمني، وكنتُ أقول لها دائمًا: هذا لأن فارق السنِّ بيننا لا يُذكر، فتضحكُ وتقول لي: يا صاحبي!

من بين يديها لاحتْ منّي نظرة، عبر البوابة، شهقتُ: القطعة الزرقاء لم تزل هناك. هل كانت تنتظرني كلّ ذلك الوقت؟ أحببتها.

هل كانت تلك الأيام القليلة التي لم أرها فيها كافية لأن تجعلها تكبر إلى هذا الحدّ؟ هل كبرتُ أنا أيضًا؟

بين يديْ تلك المرأة، التي تناديها أمي: أم خليل، وجدتُ نفسي، وكنتُ موزَّعًا، بين أن أُتابع القطعة الزرقاء أو أن أرتدَّ بنظري لأبحثَ عن حنّون.

حسمتُ المسألة: إلى متى ستبقى ولدًا هكذا؟!

تسلَّلتْ نظراتي إليها في البداية على استحياء، وما ان اكتملتْ ملامحها في عينيَّ حتى هتفتُ: الله... إنها أحلى من القطعة الزرقاء..

- ها هو عريسكِ، أترينه جميلًا؟ سألتْها أمي.

تنهَّدتْ حنّون، وخبأتْ عينيها بعيدًا عني، فكرهتُ سؤالَ أمّي.

.. وفجأة وجدتُ نفسي ملقىً في نار التّجربة! حين حملتْني أمي ووضعتني بين يدَيْ حنّون. لم أصدِّق ما يحدث. لحظات، وبدأت تناغيني بقصد دَفْعي للابتسام على ما يبدو، أحسستُ أنها هبلة في حركاتها هذه، وقلتُ: لم لا تكلِّمني مباشرة؟!

لكن المؤكّد أن يدَ الساحر كانت قد مرَّتْ عليّ، وغسلتني من شحوبي وأعادتني إلى ما كنتُ عليه وأجمل، ممتلئًا بالحياة وهادئًا كما لم أكن في أيّ يوم من الأيام. وعمَّ صمتٌ قطعتْهُ أمي: أُنظري كيف يحدِّق في البنت!!

تنبّهتُ، فحوَّلتُ نظري هاربًا باتجاه القطعة الزرقاء!

***

الحقيقة أنني أحسستُ أنهما تتحدَّثان بكلام أكبر منّي قليلًا، وعندما رحلتا بأحاديثهما باتجاه أشياء وحكايات بعيدة، حينما استغرقتا في ذلك، حينما نسيتا أننا

هنا، تململتُ من جديد، حاولتُ الإفلاتَ من قماطي، وأنا أرى تلك الجديلة الحمراء الهابطة من خلف عنق حنّون باتجاه صدرها.

كانت في الثالثة من عمرها ربّما، صبيّة ناضجة، كاملة! تنبّهتْ لحركتي، فاندفعتْ يدُها الصغيرة نحو القماط، وراحتْ تحلّه. عندها أحببتها أكثر: يا الله!

وقبل أن تتنبّه أمي أو أم خليل، وجدتُ نفسي أنعم بحريّتي ثانية؛ ولم أجد ما أفعله في تلك اللحظات سوى أن أشُدَّ بكامل قبضتي على أصابعها الصغيرة، وأضحك؛ وارتفعتْ يديْ باتجاه الجديلة الحمراء، حاولتُ الوصول إليها دون جدوى، فقد ردَّتْها عندما أوشكتُ أن ألمسها، حين قالتْ لها أمها:

- ابعدي شَعركِ عن عين الولد!

....

- الكبار ضدّنا، لا يفهموننا. ما الذي كان سيحدث لو دخلتْ جديلتها في عيني؟ آه، ما الذي كان سيحدث؟

عادتْ أمّي من حديثها الطويل باتجاهي:

- سبحان الله، كأنَّ الولد لم يكن مريضًا! يا أختي، زورونا كل يوم.

وكم فرحتُ لهذا الطّلب.

أسلَمتني لأمي، وراحتْ تبتعد مع أمها، وهي لا تكفّ عن النّظر خلْفها، باتجاهي، راحتْ تبتعد وكأنها تدخل في القطعة الزرقاء، وتبتعد. لكن من أعظم نتائج تلك الزيارة، أن أمّ خليل قالت لأمّي: كيف لا يمرض الولد وأنتِ تحشرينه في العتمة؟ ضعيه في الضوء حتى يرى وجهَ ربِّه!

أعادتني أمي إلى مكاني الأوّل. أشرقت القطعةُ الزرقاء. قلتُ: هذا وجه ربي؟!!

وجاء الليل.

أصبحت الساعاتُ أطول، أغمضتُ عينيّ، حاولتُ استرجاع ملامح حنّون، لم أستطع، شيء ما كان يمزجُها بالقطعة الزرقاء، شيء ما يجعلهما شيئًا واحدًا.

***

أجنـحةٌ عملاقة تلك التي كانت ترفُّ، التفتُّ باتجاه الصّوت، أجنـحةٌ قويّـة تضرب الهواء، رأيتهـا، ولم أر أمّـي التـي تحملهـا، تـذكَّرتُ خفقـان الأجنـحة القديم.

ورأيتُ أمي أخيرًا، بحثتْ داخل الغرفة، عادتْ بحبل دقيق، أحكمتْ يـديها على ذلك المخلوق الذي راح يُرافص، مُحاولًا التَّملُّص.

يُخفي قدميه في ريشه ويدفعهما. تذكرتُ نفسي ومحاولاتي الدّائمة للإفلات.

أمي قالت: غدًا تعتادين!

عندها خفتُ، خفتُ كثيرًا: هـل تربطنـي أمـي هكـذا كـي أعتـاد؟ أحببـتُ الكائن المُتفلِّتَ الذي لم يكن سوى دجاجة. أحببتها لأنها مثلي، وأحببتها لأنهـا لا تكفُّ عن نَقْر العُقدة المُحكمة حول قدمها. وقلتُ: لعلّها بعد أن تفكّ عقـدتها، تأتي وتفكّ عقدتي! لكن دهشتي انفجرتْ، حين جاءت أمّي في صباح ما، فكَّـتِ الحبلَ عن قدم الدّجاجة، فتساءلتُ: لماذا تُطلقها، وهل تحبها أكثر مني؟!

أوشكتُ أن ألوِّحَ للدّجاجة مودِّعًا، في حركة كنتُ أعرف أنها ستُغضب أمّي وهي ترى يديْ حرّتين، إلّا أنني لم أفعل.

في المساء، دخلت الدجاجةُ، اندسّتْ في صفيحة ملقاة على جنبها. نامت!

عندها كرهتُ الدّجاج، كرهته جدًا، وتمنيتُ لدجاجتنا الموت. قلت لنفسي: "الموت"!!!.

وكأنني فوجئتُ بالكلمة، ولكنني أعدتُ: نعم، أتمنى لها الموت.

وكان عليَّ أن أنتظر حتى أعرف معناها.

***

وحيدًا، وصامتًا كعادتي، كنتُ. يهبُّ صوتُ أمّي وصوت أبي من بعيـد، مـن أقصى العتمة، قاطعًا عمقَ المغارة باتجاهي:

- كأن يد وليٍّ مرَّت عليه، أو حتى يد عيسى عليه السلام، لقـد شـفي تمامًـا، لكن ما يؤرقني أنه لا ينام، يحـدِّق في الـسماء، فيَّ، في النافـذة، آه لـو رأيتـه كيـف يحدِّق في حنّون، كيف عادت له صحته بين يديها، لو رأيتَ كم هو بريء، عليك أن تراه في النّهار لتتأكّد من ذلك.

همس أبي: لا بريء ولا بطيخ!

- ما هذا الكلام؟ قالت أمّي بنـزق.

فردَّ أبي: لو كان بريئًا لما نبتتْ له حمامةٌ[1] قبل الأسنان!

- لا تحكِ عن ابني هكذا.

- أليس ابني أيضًا؟

- عليّ، لماذا سكتَ هكذا؟ لماذا شفي عندما حملَتْه حنّون؟ فِكْرَك الولد والبنت يحبّان بعضهما من ورائنا، ونحن لا نعرف؟!

- بدأت تُخرِّفين، نامي.

- كيف أنام وهو صاح؟

- اذهبي واطمئني عليه، سمعتُ حركة طرف اللحاف، خطوات أمّي القادمة، وصلتْ إليّ، أغمضتُ عينيّ. تنهّدتْ، سوَّت الغطاءَ فوقي، وذهبتْ مطمئنة.

***

تلك الليلة تأمّلتُ القطعة الزّرقاء السّوداء، تعجبتُ، كيف تتحوّل هكذا كل يوم، لعلّها تتَّسخ، فيغسلها النهار، مثلما تغسلني أمّي بالماء! حاولتُ البحث عن رائحة يمكن أن تنبعث منها، مثل تلك التي تنبعث مني! لم أنجح، قلت: عالم غريب. لكنّ المفاجأة التي حدثتْ، أن لون القطعة السّوداء لم يكن حالكًا تلك الليلة، ككل ليلة؛ ولم تتواصل أسئلتي؛ دائرة بيضاء فضيّة ساحرة اقتحمت القطعةَ السّوداء، واستقرَّتْ وسطها لزمن طويل.

- الله..!!

كدتُ أقفز من سريري، أيّ شيء جميل هذا!

همستْ أمي لأبي: القمر كامل الليلة.

الدائرة الفضيّة البيضاء اسمها قمر؟!!

قلتُ: إنها أحلى من القطعة الزرقاء، أحلى مِن ، لكنني لم أجرؤ على إكمال جملتي: ليستْ أحلى من حنّون، إنها مثلها.

---

[1] - من أطرف ما سمعت، أن الفلسطينيين يطلقون على العضو الذّكرّي اسم الحمامة، لأنه يرقد على بيضتين!

سهرتُ كما لم أسهر من قبل، أخرجتُ يديْ، بعدَ محاولات عديدة، أشرتُ له أن يأتي.

كان الليل يتقدَّم، وصرختُ: لقد ناموا، لا تخف، تعال، ولم يأت!

غاب، وغابتْ حنّون، لأيام طويلة، فتأكَّد لي أنها تشبهه فعلًا. وحين رأيتها انتفض قلبي وقلتُ: أصبحتِ كالقمر تغيبين طويلًا.

لكنها راحتْ تبتسم وكأنها لم تسمعني.

***

ما عادت أمي تطمئنّ ليدين، مثلما تطمئن ليديْ حنّون. تحملني، تضعني بين ذراعيها، وتطوِّق جسدي الصغير بدفء لا يشبه ذلك الدّفء الذي أحسّ به تحت اللحاف.

تحدِّق بي، تغافل أمي وتضع شفتيها على خدِّي، فيصدر عن ذلك صوت غريب، ثم تردّ جديلتها للوراء حين تعتدل، فتطير في الهواء، تطير، قبل أن تصل إلى ظهرها. فأتذكَّر أجنحة ذلك الطائر، أتذكَّرها.

وفجأة أحسستُ أنني أحلم، حين رأيت الطائر على حافة النافذة: ما أتذكره يحضر! فرَحتُ.

لم يكن يشبه الدّجاجة في شيء. كائن صغير، يحدّق في عتمة الغرفة، يحدّق بي كأنه رآني من قبل، ونسيَ أين.

بحثتُ عن يدي، وجدتُها موثقة. كنتُ أريد أن أقول له أهلًا أو أيّة كلمة من هذا القبيل، إلا أن حنّون وضعتْ يدها على شفتي، فعرفتُ أن عليَّ أن أصمت!!

وعندها، تكلَّم هو، لم يتكلَّم، لا، غنّى في الحقيقة، غنّى كثيرًا، فطار قلبي، وصدرتْ عن أمّي حركة في الداخل الأكثر عتمة، فطار، سمعتُ خفقان أجنحته، عرفته، لكنني هكذا، ودون أن أدري بكيتُ، دون أن أصدر أي صوت.

امتدّتْ أصابع حنون الصغيرة إلى طرَفَي عينيَّ، مسحتْ دمعتين لاهبتين.

قرَّبتْ فمَها الصغير من أذني وهمستْ: سيعود.

كانت تتكلّم واثقة من ذلك تمامًا.

قلت: لعلّها تعرف الطائر أكثر منّي، أليستْ أكبر؟!

انشغلتُ بتأمُّلها، ابتسمتْ لي، تململتُ داخل القماط، فهمتْ. امتدَّتْ يدها فكَّتْ تلك العقدة، انطلقتْ يداي، وبفرح رحتُ أضربُ بهما الهواء.

- تريد أن تطير، آه!!

قلتُ: فِكْرة، لِـمَ لا؟!

وراحتْ يداي تضربان الهواء بقوة أكبر.

***

عادتْ أم خليل.

- الدكتورة طمأنتني، قالتْ لي جنينكِ حصان.

وكنتُ أنظر إلى بطنها، أقول كيف استطاعتْ أمّي أن تضعني هناك. أمّي صغيرة، لم تكن عالية مثل أم خليل وكبيرة، وأم خليل قالتْ لها: والله بحبِّك مثل حنّون.

***

طول السهر، كان يتعبني، يغلبني النوم، فأنام، ويخرج أبي دون أن أراه.

وآخر الليل يُسِرُّ لأمي: قَرِفْتُ هذه العِيشة. تحت الصَّاج والمطرقة طَوال النهار، ويد أبي إسماعيل لا تتعب، لا يكفّ عن الصّراخ: ثـبِّتْ يدك جيدًا، ثبِّتها، قَرَّفْتني ديني، يلعن أبو (...)، قرَّفتني حياتي، ثمانية قروش كاملة تستلّها من يديْ بالحرام!

- ولا يهمّك، بُكرة تُفرَج. تهمس أمّي.

ويعمُّ صمت، كأنهما ناما، وأسمع حركة تدبُّ من جديد خفيفة، سريّة. وتضحكُ أمي، وأسمع يديها تتحرَّكان وجسمها يبتعد . وتنتشر كلماتها تصدُّه: عليّ!! حرام!! لم (أَرْبَعِنْ) بعد!

ويهدأ كلّ شيء.

***

أمي لم تكن تتوقَّف عن العمل، تُحضر المياه من مكان ما في الجبل، على رأسها، تعمل في الخارج لتُعلي السّور، تطبخ، تعتني بي.

أم خليل كانت تُحضر لنا حاجاتنا من السّوق معها عندما تتسوَّق. وأحيانًا كان أبي يأتينا بما نحتاج.

وجاء يوم، وقفتْ أم خليل فيه على باب غرفتنا وقالت: اليوم تعبانة، لن أستطيع الذَّهاب إلى السّوق.

قالت أمي: أنا أذهب.

- لا، مازلت نفساء، عليك ألاّ ترهقي نفسك.

- لا تنسي أنني أحضر المياه يوميًا، أنقل الحجارة، أعمل في البيت، لا يهمنَّك. أعطيني السلّة.

أسلمتْ أم خليل أمرها لله؛ قالتْ لأمي: هاتي الولد عندنا، أغلقي باب بيتك والحقيني.

ارتدتْ أمّي ثوبًا غير ذلك الذي ترتديه، اقتربتْ مني، حملتني، وما إن وصلتْ إلى الباب حتى كبُرَت القطعةُ الزّرقاء، ولأول مرّة عنَّفتُ نفسي: كيف لم يخطر ببالي شيء من هذا؟ كيف لم أتساءل: ماذا هناك في الخارج؟!

لم أكد أسأل حتى وجدتُ يديَّ تغادران القماط، تدقّان صدرَ أمّي بقوة عجيبة: لماذا حبستماني كلَّ هذا الزمن، لماذا؟! وبدأتُ أبكي، توقّفتْ أمّي حائرةً، فكَّرَتْ بالعودة إلى الداخل: ما الذي حدثَ لك؟

أحسستُ بما ستفعله. توقّفتُ عن البكاء، حدَّقتْ بي، وكان دمعي قد جفَّ، كأنني لم أبكِ أبدًا. عندها هزّتْ رأسها مُتعجِّبة وواصلتْ طريقها.

في كلّ مكان، كانت القطعةُ الزّرقاء، وفي أحد أطرافها، كان هناك ضوء، أقوى من فانوسنا، أقوى من القمر، ضوء قويّ، قلت: هذه أم الضّوء.

بيوت كثيرة متباعدة ظهرتْ في البعيد، أناس يتسلَّقون حافة الجبل، ويندسّون في ثقوب صخرية، عرفتُ فيما بعد أنها مغاور، وأنهم يسكنونها، مغاور كانت (موحوشة)، بالذئاب والضباع والثعالب. وظللتُ أشفق عليها، تلك المخلوقات، حتى بدأت أمي بسرد قصصها عن الضباع التي تضبع الناس وتأكلهم، عن الذئاب وعيونها، وافتراسها للأغنام، عن الثعالب التي تأكل الدّجاج.

وقلت: الثعالب ليستْ شريرة، كلُّ ما يأكلُ الدجاج جيد!

***

رأيتُ كلَّ شيء، ولم أره كما يجب. نسيتُ القطعةَ الزرقاء وأنا أحدِّق فيها. نسيتُ أم الضوء وأنا أراها . وكنتُ أبتعد أكثر مما يجب في تأمّلاتي. وجدت نفسي خارج ذراعيّ أمّي دون أن أنتبه. قريبًا من حنّون دون أن أنتبه، بين ذراعي أم خليل، ملتصقًا ببطنها المنتفخة. إلى أن أعادني ذلك الصوتُ فجأة إلى نفسي.

سمعتُ حركةً غريبة قريبة مني، بعيدة، التفتُّ، لم تكن حركة تصدر عن أمّ خليل أو حنّون، حركة ناعمة ليستْ غريبة عليّ، طيبة، وسمعتُ صوتا يأتيني من الدّاخل:

- هيْ، أنتَ، كيف العالـمُ لديك؟!

- العالم ؟ تساءلتْ. ما الذي تقصده بالعالم؟

قال: الدّنيا يعني.

وأحسستُ أنه يفهم أكثر مني.

قلت: تعني القطعةَ الزّرقاء، القمر، الطائر، الدّجاجة، أمي و.. حنّون. ونطقت اسم حنّون كما لو أنه أغنية.

قال نعم: هؤلاء، كيف هم؟

سألتُ: تعرفهم؟!

- أعرفهم ولا أعرفهم، أنتَ تفهم، أليس كذلك؟

- نعم.

ثم سأل: كيفَ هم؟

قلت: كلُّ شيء رائع هنا، كم بقي عليك حتى تخرج؟

قال: أوه، زمن طويل، ثلاثة أشهر على أقلّ تقدير!

قلتُ: تستطيع أن تفعل ما فعلته أنا.

- ماذا فعلت؟!

- أتيتُ قبل موعدي.

- هل هذا ممكن.

- ممكن؟! نعم ممكن، عليكَ أن تحاول.

- كيف؟

- عليك أن تُحبَّ شيئًا ما.

- أُحبّ شيئًا ما؟!

-نعم، أنا أحببتُ العصفور، وحنّون.

- حنون، أُختي؟ هذا رائع!

قلت: ألّا تحبّ أحدًا؟!

- أُحبّ أبي، نعم، أحبّ أبي.

- إذن تعال إلينا لتراه.

- سأحاول.

***

ابتعد الصوتُ،

افترقْنا فجأة..

حين حَمَلَـتْني أمّ خليل ووضعَـتْني بين يديْ حنّون..

وسمعتُه يصرخ

- هي، أنتَ، أينَ ذهبتَ؟ أنت. عُدْ.

لكنني لم أستطع أن أفعل شيئًا.

مطوَّقًا بيديْ حنّون، قرب جديلتها، كنتُ،

ولم ينفعني بحثي عن ذلك الصوت بأذنيّ وعينيّ.

46

رياحٌ صغيرة ناعمة هبّتْ، وغسلتْ روحَ الصغير، فبـدا أكثـر فرحًـا بالحيـاة وإقبالًا عليها من أيِّ إنسان في ذلـك الـسّفح. انتـشرَ البـشر في بيـوت متباعـدة، زرعوا أمام المغاور دواليهم، وهم يُدركون أن إقامتهم هنا لن تطـول، يتجوَّلـون وخضرتهم معهم، يرحلون وخُضرتهم معهم. ويشْقَوْن. ولم تكن الأشجار التـي يحبونها، أشجارهم الفلسطينية، عاجزة عن أن تنمو في هذه السّفوح؛ فزرعوهـا، وهم على يقين أنهم سيتركونها هنا ذكرى لأيام قاسية عاشوها بعيدًا عن وطنهم.

ينظر الصّغير إلى ما حوله ويبتهج. يتأمّل السماء حتى يـصبح الـسماءَ ذاتهـا، يتأمّل ما لم يره حتى يصبح المستقبل نفسه. مطمئنًا بين يديْ حنّون كان، وصـامتًا بين يديْ أمّه، أمّه التي لم تستطع كبْحَ خوفها من أن يكون الولد أخرس.

تململ بين يديْ حنون، وهذه عادة سترافقه، في لحظة ما يكون عليه أن يخرج، عاصفة صغيرة تهبُّ داخله وتحرِّكه، تصرخ به: تحـرَّك الآن. وعليـه أن يتحـرَّك، وإلّا سينفجر؛ شيء ما يكون قد دعاه بعيدًا عن هذه الجدران. شيء ما لا يستطيع إلّا أن يلبي نداءه.

تململ، وفهمتْه حنّون.

تجاوزتْ كل التعليمات، استندت إلى الحائط، ثقيلًا كـان الـصغير، لا تحملـه قدماها بيسر.

حاولتْ أن تنهض، مرّة، مرتين، نجحـتْ أخـيرًا. وحـين تـدلَّتْ جديلــتُها ولامستْ وجهَه، لم تستطع ردَّها، هي القابضةُ على حِمْلها ممتلئـة بـالخوف عليـه، ففرِحَ؛ أمام العتبة جلستْ هناك. تأمَّـل القطعـةَ الزرقـاء كاملـة، تأمـلَ البيـوت

البعيدة، رآها صغيرة، قال: لا شك أن مَن يسكنونها أصغر من أمّي وأبي، ربما كانوا بحجم حنّون، ربّما كانوا مثلي.

طرد الفكرة، حين تذكّر مجموعة الناس الذين زاروهم، كان بعضهم كبيرًا، وبعضهم صغيرًا، وربما كان منهم من جاء من أماكن بعيدة..

ولم يجد تفسيرًا لصِغَر حجم البيوت.

- ربما بنوها صغيرة هكذا حتى يناموا خارجها! طرَدَ الفكرةَ ثانية.

زمن طويل مرَّ قبل أن يعرف: أن ليس بإمكانك رؤيةَ الشيء على حقيقته وأنتَ بعيد عنه، ثم تعلَّمَ، أن رؤيته من الخارج غير كافية لمعرفته أبدًا!

حاول التّحدُّث مع حنّون، فأخرج أصواتًا لم يطرب لها، ناغته فالتفَتَ إليها: تُصرُّ أن تكون (هبلة) هذه البنت!!

فجأة أطلَّتْ أم خليل، غاضبة مزمجرة.

- يا مقصوفة الرقبة، تغافلينني وتخرجين به، تريدين أن يموت؟ إلى الدّاخل، هيا.

***

للعتمةِ عاد، لتداخُل الأشياء في بعضها البعض، لاختفائها، وهنالك بكى، لم ينتبه أحد في البداية، وعندما رأى أن بكاءه الصّامتَ لن ينفع، بدأ فصل شرٍّ طويل.

صرختْ أم خليل: شايفة! ما الذي فعلتيه بالولد؟

- كان ساكتًا معي ومبسوطًا.

- أريد أمّ الضوء، أريد القطعة الزّرقاء، أريدُ البيوت الصغيرة البعيدة، أريد أمّي.

وتصاعدَ فصلُ الشرِّ إلى أقصى قِممه حين لم يسمعه أحد.

خطتْ أمّ خليل باتجاه الباب، دون قصد اقتربتْ من العتبة، صمتَ الصغير فجأة. لاحظتْ ذلك، ظلّتْ واقفة، وظلّ صامتًا. ثم وجدتْ نفسها تجلس على العتبة. عاد الهدوء إلى البيت، إلى سفح الجبل، هزَّتْ أمّ خليل رأسَها متعجبة. اقتربتْ حنّون منها. تشجَّعتْ: إنه لا يحبُّ الحَشْرَة!

نهرتها أمّها: علّميني يا مقصوفة الرّقبة، علّميني، غوري!

تأملتْ أم خليل وجهه، مرّتْ أصابعُها الخشنةُ على أصابعه الصغيرة، تأملتْه كما لو أنها تحدّق في ذلك الذي في رحمها، تساءلتْ عن الصورة التي سيكون عليها خليل، وانتفضت انتفاضةً صغيرة هزّتْ جسدَها رغم إرادتها: ماذا لو كان الذي في بطني بنتًا أخرى؟ سينادونني أُمّ البنات ويعيّرونني، ويمكن، والله أعلم يتزوج أبو خليل عليّ!

أما الصغير فكان يهمس لنفسه: حنّون وحدها التي فهمتني، الآخرون يلزمهم زمن آخر ليفهموا.

صافيًا، وهادئًا جاءه الصوت من أعماق بعيدة، بصدى متناغم عذْب: هيْ، أنت، هل عدتَ ثانية؟! لماذا غبتَ كلَّ هذه المدّة؟ كدتُ أنساك!!

عرف الصغير مصدر الصوت:

- تنساني!! ألسنا صديقين؟

- ما الذي تعنيه بكلمة صديقين؟

- لست أدري -ردَّ الصغير- ولكنها الكلمة المناسبة التي يمكن أن تُطلق على علاقتنا.

- ولكن قلْ، أين كنتَ؟

الصغير: أين كنت؟!! هناك في البيت.

- ولماذا لم تكن هنا؟

الصغير: لست أدري، ربما لأنني كنت هناك.

- لقد فكّرتُ، سأخرج لأرى أبي.

الصغير: تحبه؟

- أكثر من أيّ إنسان.

الصغير: لماذا؟

- لأنه حَنُوْنٌ.

الصغير: حنّون أختك وليستْ أباك.

- قلت لك حَنُون. إنه طيّب، وصوته رائع ويخاف عليَّ كثيرًا، أكثر من أُمّي. أُمّي تُتعب نفسها فيقول لها: يا أمّ خليل، هل نسيتِ ما في بطنك؟ ولكن قلْ لي، كيف العالم؟

الصغير: بالنسبة لي جميل، هنا أُمّ الـضوء وعرفـتُ أن القطعـة الزّرقـاء أكـبر بكثير مما كنت أتصور، وهناك بيوت بعيدة، لكنّها صغيرة.

- هل تستطيع تنظيم لقاءاتنا.

الصغير: هذا ممكن ربما، لكنّه يتطلب حِيَلًا كثيرة!

45

سماء صافية. شمس كبيرة. ودجاجة لا تكفُّ عن نقْرِ البيت، تراب أرضيته وجدرانه الطينيَّة.

لم تَنْمُ علاقة الصغير بالدجاجة، كان لا يكاد يراها، رغم أنها لم تكن تفارقه.

- مثل هذه المخلوقة لن تكون صديقتي.

يلتجئ إلى صدر أمّه، يتناول رَضْعَتَه على عَجَل، بنهم شديد. فتتمتمُ عائشة:

- حمدًا لله أن ليس لكَ أسنان.

ينظر إلى وجهها، يرى أسنانها تلمع.

يحاول أن يُنهي الرَّضعة، تعيده لثديها.

- ولو، وِلِحْقتْ تِشبع!!

يتململ ويصدر زئيرًا غاضبًا.

- شو بتفَكّر حالكْ زلمة وبدَّكْ تخوّفني؟

ينفض الصغير وجهه عن الثدي، يزمُّ شفتيه بإصرار غريب، تتجمَّعان في نقطة صغيرة فتعرف عائشة أن أيّة قوّة لن تستطيع فتحهما الآن. يلتفت، تعرف مطلبه، فتحوِّل وجهه إلى منطقة "جبل عمّان"، إلى قمة الجبل الفسيحة التي تتسلّقها البيوت، وإلى أطراف "جبل نَزَّال" الجرداء التي تنتهي في القاع بشركة الكهرباء.

***

تُشيّع عائشة زوجها، ينزلق من فتحة الباب، الباب الذي يُصدر صريرًا قاتلًا، يتأرجح، وكأنه سيسقط في كلّ مرَّة. تُشيّعه. ينزلق إلى العالم الواسع وشكواه تزداد، من الدّنيا، من أبي إسماعيل، من لوح الصاج، من البرشامات

التي تلمّ صفائحَه ليكون بابًا لواحد من المحلاّت التجارية التي بدأت تتكاثر وتتكاثر، كلّ متْجَرٍ كان ينقسم إلى اثنين، وكلّ اثنين إلى أربعة. وصوت التقاء المطرقة بالصَّاج، التقاء الصّاج بالعمود المعدنيّ الثقيل، واهتزازه بين يديْ عليّ، عليّ القابض على كتلة الجمر في هذا الحرّ الذي لا يطاق، خائفًا أن يفلتَ، فتفلتُ القروش الثمانية.

***

في البداية كان يحسدُ أباه على اندفاعه الحرّ تحتَ أم الضوء والقطعة الزرقاء الواسعة. لم يدَّخر جهدًا لدعوة الشمس إليه، أو السماء، أو البيوت البعيدة الصغيرة، وتأكّد له أن الأشياء التي يحبّها يجب أن يسير إليها بنفسه، ولأوّل مرّة بدأ يرى أرجل الناس، هو المرفوع دائما بين الأيدي، أو المُلقى في السَّرير. حاول البحث عن قدميه بقدميه. وجدهما. حاول تحسّسهما بيده، لم يستطع. القماط الذي كان بمقدوره أن يفكه ليخرج يديه، كان هنالك أكثر إطباقًا على جزئه الأسفل.

حسد أباه، إلى أن بدأ الصغير بسماع صوت المطرقة، قبل أن يذهب إلى "المِحْدَدَة".

ويجيء الليل.

يصمت عليٌّ طويلًا في العتمة. يهمس: المهم أنتِ والصغير. ويصمت: تصوَّري لو انّكِ لم تتجرّئي تلك الليلة، لو وافقت أختكِ، أكان الصغير الآن ابنها؟!

***

كان الوضع قد بدأ بالتحسُّن، أصبح للناس خيام يمكن أن يندسّوا فيها ويناموا، دون أن يراهم أحد، وانتهى ذلك الضّياع القارص في بريّة الشتاء القاسية التي احتلت سماء "الدْهيْشَة".

كان التّعب قد هدّهم تمامًا، بعد مسيرة طويلة على الأقدام، من قريتهم إلى غزة، إلى الخليل، إلى حيث هم الآن. ولم تكن الهجرة أقلّ وطأة من رحى عملاقة. محظوظًا، كان، ذلك الذي يجد عريسًا من أُسْرة طيّبة أو نصف طيّبة لواحدة من بناته.

نعمة كان زواج الفتاة، حيث السُّترة، والتَّخلُّص من مسؤولية مَلْء فمها بالطعام، أيّ طعام.

***

- لو كان أبوكَ قد تزوَّج غيري، هل كنت ستكون أنتَ أنتَ، أم واحدًا غيرك؟! نقلتْ عائشة السؤال للصغير. السؤال الذي لم تستطع الإجابة عليه. كانت تُحممه، ولم يكن هناك ليسمع سؤالها، كان يبحث عن قدميه ويشدّ عليهما بقوّة. يرفع إحداهما، تنزلق منه بفعل الماء فيتركها معتقدًا أنها تهرب منه، يُمسكُ الأخرى ويشدُّ عليها، يرفعها، يبحث عن قدميْ أمّه، يحسدها. وتعيد عليه السؤال فينتبه؛ فلم تكن أمّه توجّه الكلام للدّجاجة إلا نادرًا، كأن تشتُمها لأنّ بيْضتَها تأخَّرت أو تشتمها وقد حشرتها أخيرًا في زاوية وهي تتحسّس مؤخّرتها وتصرخ: أين بضتِ بيضتكِ يا داشرة؟! وينتبه الصغير إلى شلّال صوتها في النّهاية، أمّه، لا تتحدّث هكذا برفق مع الدّجاجة.

وأعادت السؤال.

***

من بعيد لاحوا، رجالٌ بملابس داكنة وخلْفهم حكاية.

قالت جدّة الصغير التي لم تكن بعد جدّته:

يا بنات أجاكن خَطّابين.

نَهَرَها الجدُّ: استحي يا امرأة!

وقام ليُرحِّب بهم، ويدخِلهم إلى الخيمة الثانية المُعدَّة للرِّجال.

***

جاء خال الصغير الذي لم يكن خاله بعد: أحضري الشّاي يا مريم، فعرفت الجدّة أن المخطوبة مريم!

مريم التي انتفضتْ، ولم يكن هناك حائط لتضعَ رجليها فيه، كانت هناك الخيام، تسمَّرتْ كوتد، صرختْ: هؤلاء جبليُّون، وأنا لن أُقدِّم لهم الشاي!

شقراء كبنات الإنجليز لا يُعجبها العجب؛ أيام العزّ التي عاشتها تحت أسنانها لم تزل، وتيهُها بجدائلها الشُّقر يملأ رأسها.

- سأتزوج هناك، لن أتزوج هنا. كلّها أيام، أشهر، ونعود!

ولم تكن هذه حكايتها كلّها. تلك الصبية الشّقراء التي وقعتْ في حبّ ضابط من جيش الإنقاذ، ولم تزلْ تؤكِّد أنه سينقذها مع ما سينقذه من البلد. الصَّبيَّة الوحيدة التي دخلت المدرسة، وتستطيع فكّ حروف كثيرة دفعة واحدة. يعرفون عنادها جيّدًا. لم يجادلها أحد.

نهضت عائشة من مكانها، عائشة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة، وقالت: أنا سأقدِّم الشاي، هؤلاء أقاربنا!!

- أقعدي، تقعد على صدرك داهية، أقعدي. صرختْ أُمُّها.

لكنها نهضتْ جهّزت الشَّاي، فأتاحتْ لأمها الفرصةَ كاملة للتَّفكير في الأمر. أمّها التي رأتها تعمل في زاوية الخيمة، ولم تُعِدْ كلمتها "أقعدي". أمها التي أطرقتْ لا لتفكِّر بل لتستجمع نفسها من موجة حزن عارمة بدَّدتها.

مرتجفة يدها كانت، حين عبرتْ بابَ الخيمة، أجراسٌ صغيرة تنطلق من بين أصابعها - اهتزاز كؤوس الشّاي في الصِّينية المعدنيّة. على الأرضيّة الترابية وضعتْ ما تحمله، اقتربتْ منهم صافحتْهم واحدًا، واحدًا، وقبَّلتْ أيديهم، ولأنها لم تكن تنظرُ في وجوههم، استمرَّتْ في تقبيل الأيدي، فقبَّلتْ يد أبيها، ويد أخيها يوسف، ذلك الذي كان شُغْلها الشّاغل مناكفته، وشُغْله الشّاغل ضربها، فرقَّ قلبُه فجأة، وأوشك أن يبكي.

عادتْ، حملت الصِّينيَّة، ناولتْهم الشّاي، غير قادرة على أن ترفع نظرها لتعرف على الأقل من هو العريس، وما شكله.

ولكنّها شبه متأكدة كانت أنه ذلك الشّاب الذي كان يسير متأخِرًا عمّن معه خطوة واحدة.

قالتْ: إذا كان هو، فهذا يوم سِعدك يا عائشة!!

***

لقد فكَّرَتْ جيدًا: في ظلِّ وجود أختها الكبيرة الشَّقراء، وهي السَّمراء، فكَّرتْ: لن تكون هنالكَ قِسْمَة، ولن يكون هنالك نصيب! ثم من هو ذلك المجنون الذي يُمكن أن يردّ طالب قُربٍ، في وحل ذاك الشّقاء الذي لم يعتده أحد؟ يتغلبُ الأبُ على قلبه ببرودِ عقله: نزوجهنَّ هنا.. صحيح أنه لن يكون الزواج اللائق، ولكننا سَنزفُّهُنَّ إلى أزواجهنَّ من جديد حين نرجع.

الشيوخ يعرفون الشيوخ، أما الشباب، فلم يكن أحد منهم يعرف الآخر. وقبل أن تُغادر عائشة الخيمة قال أبوها: هذه عروستُكم. فرفَّ قلبها، لكن جفنها لم يرفّ، لم يرتفع ليبحث عن العريس.

***

أسبوعان طويلان مرّا على عائشة، عائشة التي لم تعدْ تتقافز بين الخيام كالجِذْيان، عائشة التي انقلبتْ بين ليلة وضحاها إلى كائن آخر، لا يمتُّ بصِلة إلى ما كانت عليه، فلم يعد يفكِّر أحد أن ينهرها، بعد أن كانت القباقيب تتطايرُ خلْفها لأقلّ سبب، وتغيّر أخوها، أخوها الذي كانوا يسمّونه ضرَّتها، كأن تلك القُبْلة التي زرعتْها على يده في عتم تلك الخيمة قد نَزعتْ فتيلَ الشرّ منه إلى الأبد.

جاءوا من بعيد، حاملين كسوة العروس، ونساؤهم معهم، جاءوا بالحنّاء. موكب صامت، بلا فرح، وأوشكت جدَّة الصغير، التي لم تكن جدّته بعدُ، أن تبكي، ولم تكن تعرف، أتبكي حال ابنتها التي تُزوِّجها بصمت، أمْ حالَهم كلّه الذي يتركهم مُعلّقين في الهواء، وسط هذه الأراضي الواسعة التي تحوّلتْ في عينيها إلى بيت عزاء هائل؟

- أين عروستنا؟ سألت عمةُ العريس، عمة عليّ.

- هذه هي. أجابت أم عائشة.

شهقت عمةُ عليّ: هذه!!! أليست هذه الشَّقراء؟

ردّتْ أم عائشة: لا، إنها السَّمراء، هذه.

وانفجر فصلُ نحيب.

44

جارفًا كلَّ ما في طريقه من أعشاب، وأزهار بريّة، انـحدرَ شلال البكاء فوق التّلال؛ جارفًا الخُبّيزة والحمصيص والزّعتر المتناثر، وريْحان الأحـواض؛ جارفًـا النهار من أوّله، لاذعا كالقُرَّيْص ومُرّا كالحنْظل.

- من سيكون القتيل هذه المرّة؟!

فَزِعًا كان الصغير بين يدي أُمّه من المشهد، من الأصـوات التـي لا يفهمهـا، أمّه تشدّ عليه وتشدّ، دون أن تنتبه، دون أن تدرك أنه لم يعـد قـادرًا عـلى التّـنفس بسهولة، دون أن تلحظ محاولات التفلّتِ التي يقوم بها.

وكانت أم خليل وحنّون هناك، حنّون المتعلِّقَة بثوب أمّها تشدُّ عليـه، وأكثـر من دمعة جافة في عينيها. سكّان الجبل كلّهم كانوا هناك، لم يبق في الدّّاخل أعمى ولا أطرش.

مَن سيكون القتيل؟!

***

أصوات الانفجارات كانت تصِلُهم، تهزُّ المغاور، وتُجْفِل الطّيـور والـدَّوابّ، وتتركُ غبار السّقوف يتساقط؛ انفجارات تـنفض الجبـل، تُـذري غبـاره، تمـزّق سفوحَهُ البعيدة القريبة، تنثرها في الهواء شظايا بيضاء، شاهدةً على أيام سوداءَ لا تُنسى.

الكثـير مـن رجـال الجبـل كـانوا يعملـون هنـاك في الكـسارات، يُحطِّمـون الصّخور، يفجِّرونها بباورودهم.

أشغال شاقة مؤبدة، يرزحون تحت ساعاتها الطويلة بصبر القهر، ذاك الذي يعتصرهم منذ اقتلاعهم من جذورهم، وتـذَرِّيهم في الهواء المرّ شظايا شقاءٍ وبحثٍ لا يهدأ عن لقمة عيش مهما كان لونها.

والأرض تستجيب للفأس هناك، ولم يكونوا بحاجة للبارود كي يزرعوا برتقالة، أو يَجِدّوا زيتونةً، أو يحثّوا فرسًا على قَطْع السّهل الواسع بخطوتين.

وأيام الهجرة تطول، والعمر ينتهي فجأة، هكذا، كلحظة الانفجار. وينتشر الدَّويّ..

يصعدون الجبل، رجالٌ تختفي ملامحهم خلْفَ طبقات من الغبار الأبيض، ويعرفهم الناس، بين أيديهم كيس من الخَيْش يقطر دمًا، وخلْفهم أطفال فزعون، ونساء يلطمن خدودهن، لا أحد يعرف من أين أتوا.

والقلوب تخفق بفزع في أعلى الجبل.

أيّ بيت ذلك الذي ستنعق الغربان فيه اليوم؟ أي بيت؟ ودون أن تدري سحبتْها خطاها باتجاه عائشة، عائشة التي لم تكن يومًا أكثر من ابنتها الثانية بعد حنّون، قَبْلَها، وهناك وجدتْ أم خليل نفسها تبكي، وتبكي معها عائشة، يبكي الصغير. وتبكي حنّون.

والرِّجالُ يصعدون الدَّرجات الترابيّة باتجاه بيت أم خليل، أمُّ خليل التي وجدت نفسَها تبتعد عن بيتها، كما لو أن المصيبة ستعود إن لم تجدْها فيه.

وضع الرِّجال الكيس على التراب، انفجرتْ حوله دائرةُ الدّم.

- أبعِدوا الصغيرةَ عن أمِّها. صاح أحدُهم.

وأشاروا لأمّ خليل أن تتقدّم، لكنها بقيتْ مكانها، تشدُّ على ثوب عائشة كما تشدُّ حنّون على ثوبها.

الفجيعة بكامل شروطها اكتملتْ: أَبعِدوا الصغيرة عن أمّها.

وصرخت فجأة: يابا.

- هل يعيدونك في كيس؟ قالت أم خليل هاذيةً.

تذكَّرَتْ عائشة أنَّ أمّ خليل في شهرها السّادس، كَبُرَ فزعُها، وتَذَكَّر الصغير صاحبه في تلك اللحظات، حاول الوصول إليه، إلى ذراعيْ أم خليل، ذراعيها المشدودتين، المُتصلِّبتين كي لا تجد الفجيعة مكانًا بينهما.

- يعيدونكَ في كيس ودمكَ يقطر منه.

خيط طويل من الدّم امتدّ ما بين الكسّارة وبوابة البيت، يحدّق الأطفال فيه بهلع ويسيرون على جانبيه لا يجرؤ أحدٌ منهم على تجاوزه.

***

بيدٍ تحتضن الصغير وتشدُّ بالأخرى على كتف أم خليل، وقفتْ عائشة، كشجرة مرتبكة في أعلى الجبل، عائشة التي لا تستطيع تدبير الأمور الصغيرة لابنها الصغير، كيف كان لها أن تمحو آثار الدَّم بكلمة أو جملة عزاء؟ كلّ الكلمات كانت أكبر منها، وأحستْ نفسها وحيدة وصغيرة في عالم كبير من المصائب!

أم خليل حاولت أن تهرب باتجاه عائشة، احتضنتها، بكتْ، بعد كلٍّ الصمت، بكتْ.

وجاء الصَّوت من بعيد، سمعه الصغير وحده.

- هيْ، أنتَ، ما الذي يحدث في الخارج؟

ولأوّل مرّة وجدَ نفسه غير قادر على الإجابة.

تقدّم الرِّجال باتجاه أمّ خليل: البقية في حياتِك.

- الله يعوِّض عليك بمن يُنسيك هذا اليوم.

انفرطتْ كالمسبحة، تبعثرتْ حبّاتها على طول السّفح وعَرْضِهِ، ولم يعد بإمكان أحد السَّيطرة عليها.

صرختْ عائشة التي وجدتْ لسانها أخيرًا: ارحمي ما في بطنك!

هدأتْ أم خليل لحظة، استجمعتْ روحها، عاد إليها وجومها للحظات، قبل أن تنفرط ثانية.

هل فَجَّرها يُتْمُ ذلك الذي في بطنها؟ يُتْم حنّون؟ يُتْمها هي؟ وهذا رجلها الثاني الذي تتزوَّجه ويموت.

أسندَتْها النساء، حَمَلْنَها إلى بيتها، بيتها الذي تقدّمتْ منه خائفة، خائفة من جدرانه الطينيَّة، من أوانيه القليلة، من بابور الكاز، من الفِراش، من الوسائد الباردة، من بقايا الخبز، ومن ملابس زوجها التي تتطاير على الحبل أمام الباب، الملابس التي لم تجف بعد.

أسندَتْها النساء، وكان الكيس على باب الغرفة يبحثُ عمّـن يُـسنده، يبحـث عمّن يجرؤ ثانية على حَمْلِه بعد أن اتَّضحت الكارثة وسقى الدّمُ حوضَ النعناع.

***

أصوات مجروحة كانت تُجرِّح الوقتَ، وتخدش وجه الفضاء، تأتي من بعيـد، من بيت أم خليل، وتداهم الصغير وحنّون. وحيدين كانا في بيته، لا يعرفـان مـا يجري هناك، لماذا جُنَّ الناس هكذا، وانطفأتْ ملامحهُم واتَّقـدتْ أعيـنُهم ببكـاء كالدّم؟ كان الحزن يمرُّ على الوجوه كالرِّيح عاصفًا، يحملُ معه خـضرتها الطيّبـة النّاحبة، ويُخلِّفها مُتعبة كصحراء.

والصغير يتـساءل، ويحـدِّق في وجـه حنّـون، فـلا يجد إجابـة، غـير ذلـك النَّـحيب.

... ...

زمن طويل مرّ، وهما على حالهما صامتين في ذلك الجزء المُعـتم مـن الغرفـة، لم يتذكّر الطائر أو الشمس أم الضّوء، لم يتذكّر القمر أو القطعة الزّرقاء، لم يتـذكّر البيوت الصغيرة فوق الجبل البعيد.

بين يديْ حنّون يستلقي ساكنًا، لكـنهما غـير اليـدين اللتـين يعـرف؛ هاتـان باردتان، لا حياة فيهما. يرتجف، وترتجف حنّون.

ماذا هنالك في الكيس، وما السّائل الذي يندفع منه ويغطّي الأرض، ويذهب بعيدا خلف الناس؟

ولماذا يتركونهما هنا وحدهما، لماذا يخيفونهما بهذا العويل الذي لا ينتهي، ومَـن تلك التي كانت تُغنّي كما لم يتعوّدا الغناء، الغنـاء الـذي تغنّيـه عائـشة للـصغير وتغنّيه أمّ خليل لحنّون كي يناما:

مُوتَكْ إليْ والناسْ ما هيْ عارْفِهْ

إنّ الزّتونةْ اليومْ بَعْدَكْ ناشْفِهْ

موتَكْ إليْ والناسْ ما هيْ حاسّه

إن الغيمات اليومْ فوقي يابسِه

موتَكْ إليْ والناسْ ما بتتكلّمْ

غُصْنْ الشّجر عليكْ راحْ يتألم

موتكَ إليَّ والموتُ هُوَ بعادَكَ
كيف بِدّي أَلَمَّكْ تاعيدَكْ لبلادَكْ؟

تجمَّعتْ حنّون والصغير، تداخلا أكثر فأكثر، ولم يعُد هنالك شيء في العالم قادرًا على طرد خوفهما، حتى تلك الزاوية العميقة التي لا يستطيع أحد، حتى الموت، أن يراهما في عتمتها، وناما.

***

طار الصغير..

حاملًا حنّون بين يديه، طار، ولم تكن له أجنحة، وطار، في لحظة دفعَ الأرضَ بقدمه الصَّغيرة، انخفضت الأرضُ أو أنه ارتفع، وطار.

فجأة، سَدَّتْ عليهما الطريق تلك المرأة، وفي لحظة واحدة، أقلّ من لحظة عرفها، تلك التي كانت تدفعه إلى داخل الرَّحم؛ ارتبك. لاحتْ منه نظرة إلى قدميها الحافيتين فتعثّر. لم تكن كقدميه أو قدميْ أمِّه؛ تعثَّر، ورأى نفسه يسقط وتسقط حنّون معه، فصرخ، ووجد أمّه ترفعه عن الأرض وتحمل حنّون، تضعهما في الفِراش وتغطيهما، حنّون النائمة التي ستُمضي أولى ليْلاتها عندهم.

***

أشبه بجذع أسطوريّ، يمتدّ إلى أعمق أعماق الأرض، أين تبدأ جذوره؟ أين تنتهي؟ هكذا وقفتِ الكتلةُ الصَّخريةُ. أبو خليل يبتسم: بعد قليل سنرى، أنتِ أم أنا!

يقبض على (النُّخْل) بكلتا يديه وينقُر الصَّخرةَ، قلعةً أمامه كانت.

دار حولها مرَّة، مرتين، تفحَّصها بعيني خبير، حدَّدَ الثَّغرة التي سيعبر منها، نقطةَ الضعف، لا، نقطة القوّة التي توصله لقلبها.

أمسك بـ (النُّخْل) سدَّد الضربة الأولى، كانت قاسية، اهتزَّ، لكنه ابتسم. كل الصّخور هكذا في البداية، والرّجال، الرّجال الذين التفّوا حوله كانوا يعرفون أن أبا خليل رجل لا يقهره الصَّخر، لا تقهره "القِلاع" كما يسمونها.

كم مرّة طلبوه إلى الكسَّارات المجاورة، لأن قلْعةً ما استعصتْ عليهم، فذهب، ثم عاد وخلْفه فتاتُها.

الظهيرة تهبطُ بجمرها، يمسح العرقَ المتصبِّبَ من جبينه، يرفع طـرفَ كمِّـه الذي انـزلق، ينحني، يتناولُ إبريق الماء، يصبُّ الماءَ في الثّقب الذّاهب في العمـق أكثر فأكثر، ويواصل عمله. ينتهي، ينظر في عتمة الثّقب، الثّقب الذي سيمرُّ من فوهته البارود ويستقرّ في قعره هناك، ثم يعلو.

ينادي:

- هيْ، أبا محمد.

ويأتي أبو محمد، حامِلًا ملح البارود.

- كيف الوضع؟

- ولوْ! أبو خليل لا يُسأل سؤالًا كهذا.

يضحكان. ويبدأ عمله بعناية فائقة، يسكُبُ الملـح الأسـود في قلـب القلْعـة البيضاء، دون أن تتناثر حول الفوْهة أيّة ذرَّات.

يُحضِر "الإبرة"، ذلك القضيب الحديديّ الرّفيـع، يُوَسِّـطه الثقـب، يتنـاول الشاكوش وبعض الحجارة الصغيرة بيد واحدة، حيث الأخرى تثبـت الإبـرة في وضعها العمودي، يُلقي الحجـارة الـصغيرة في الثّقـب، ثـم يبـدأ بـدكِّها حتـى تتلاصق؛ تنحني أصابعه الخشنة على بعض الطين المنتـشر عـلى جـانبي الحُفـرة، يُلقيه بين الأحجار، يسحبُ القضيبَ إلى أعلى، مُبقيًـا، هكـذا، عـلى ممـرٍّ صـغير بحجمه.

يقفُ، يمسح العرق المتصبِّب على جبينـه، يختـلط الجبـينُ بـالطين الأبـيض، يتناول كيس البارود من بين يدي أبي محمد، ينحني، يملأ الثقـب الـصَّغير، يمـدُّ خيطًا متَّصلًا من البارود بالحفرة، بعيدًا.

الحركة التّالية يعرفها أبـو محمـد، يقـف، ينـادي بكـلِّ مـا فيـه مـن صـوت: بارووود، بارووود، بارووووود!

يترك الرجالُ معاولَهم، يندفعون إلى الوراء، يختبئـون خلـف القـلاع الكبـيرة التي لم يصلْها بعدُ أبو خليل.

ونادى أبو محمد ثانية: بارووود، بارووود.

الاحتياط واجب، فليُعدها ثالثة. وأعادها. ثـم التفـتَ إلى أبي خليـل وقـال: توكّلْ على الله.

فمازحه أبو خليل: أركض يا "زَوْبَعَةْ". ولم يكن قد تخلّى عن عادته في الانطلاق طائرًا، سحابةَ غبار حتى وهو راجل. تلك العادة التي رافقته مذ كان سائقًا في "دير ياسين"، يرى الناس سحابتَه قبل أن يروا عربته. فيقولون: وصل (الزَّوْبَعَةْ)، وكانوا يعرفون غباره ويميِّزونه عن أيِّ غبار آخر لعربة أخرى، غباره الأعلى والأطول، الغبار نفسه الذي سيراه أبو صلاح بعد أن سلَّمه عربة من عربات الكسّارة، فهرول التلَّ مخاطرًا بروحه:

- أهكذا تقود عربة مثل هذه، يا ...، انـزلْ ، والله لو كانت مال حرام- حتى- ما قُدْتها بهذا الشَّكل.

انحنى أبو خليل، أشعلَ عود الثقاب في خيط البارود، الخيط الذي يمتدّ إلى أعمق أعماق الحفرة، وانطلق راكضًا بكلِّ ما فيه من قوة ليتوارى بعيدًا بجانب الرجال.

لم تنفجر الصّخرة!! لحظات، دقائق، ما الذي حدث؟! يعرف أبو خليل أن القِلاع غدّارة، والبارود غدّار، ولا عجب، فالزمن غدّار.

انتظر الرجال طويلًا. وحين نهضَ أبو خليل، رجَوْه أن يعود ويتوارى، فقد يحدثُ الانفجار في أية لحظة.

قال: لقد انتظرتُ أطول مما انتظرت في أيِّ يوم مضى. ولكن الرجال جرُّوه إلى جانبهم فاستجاب.

جاء الصوتُ من بعيد، صوت أبي صلاح، كان يرتدي قمبازهُ[2] السُكّري النَّظيف دائمًا ، قمبازه (الرُّوزا).

- شو، هل نِمْتُم؟

أبو خليل لم يكن يحبّ سماع تعليقات كهذه، لأنه يعرف أن الشيء الوحيد الذي لم يُتْقنْهُ منذ الهجرة هو النّوم.

نهض.

قال "الزَّوبَعة": أنا سأذهب لأرى، فأنا مقطوع من شجرة، لا ولد ولا سند!

---

[2] - القُنْباز هو الثوب الفلاحي الفلسطيني، تختلف أهميته باختلاف نوع قماشه، وهو يشبه الدّشداش الخليجي.

- اقعُدْ أنت. قال أبو خليل ذلك واندفع.

هل وصلَ الصخرة؟

هل انحنى على ذلك الثّقب ليتفحَّصه؟

لا أحد يعرف تمامًا.

لكن الأمر الذي لم يكن أحدٌ في الكون قادرًا على إخفائه، هو ذلك الانفجار الرَّهيب والشظايا الطريَّة الحارَّة، اليابسة، اللّحمية، الحجريّة، نافورة الدَّم التي هبطتْ على العمّال من كلِّ جانب.

لـمْلَموه..

عن صخور الجبل، عن وجوههم، أيديهم، ملابسهم المعفَّرة، ثوب أبي صلاح، عن صوته الصارخ:

- شو! هل نِمتم؟

-لم ننمْ.

وعادوا به..

من يودِّع الميِّتَ لا يراه في الحلم، والوداع قبْلة على الوجه الشّاحب، على صُفرة صحرائه.

من يودّع الميت لا يراه في الحلم، هكذا يظنّ الناس، هكذا يعتقدون، هكذا يدفعونَ الموتَ بعيدًا عنهم بملامستهم إيّاه، برشْوهِ ربما بهذه القُبلات الناشفة الخائفة المرتجفة التي يظلّ طعمُها طويلًا على الشّفتين، طعم الغياب، طعم الرِّيح التي لا بدَّ ستهبّ وتقتلعهم، مُخَلِّفةً إياهم قُبَلًا جافة، كي لا يعود إليهم من يحبّون حتى في الحلم.

لكن أحدًا منهم لم يعرف أين يضع قُبْلته، حيث لا رأس هنا ليزرعها على الجبين..

لا شيء من الأشلاء يُشبِه الميت، الذي احتار الرّجال حين فكّروا بتغسيله.

وأية قُبلة تلك التي يمكن أن تُطبع على فتات اللحم دون أن تُقَرِّبَ الموتَ أكثر؟

هبط الرِّجال باتجاه المقبرة، لقبورها القابعة بين أشواك السّفح الآخر من الجبل، حيث الشارع الضيق يتصاعد باتجاه "الأَشْرَفِيَّةْ"، وذلك السّهل الواسع الذي سيتحول إلى "مخيّم الوِحْدَات".

جاهزًا كان القبر، حفره رجال سبقوهم، أنزلوه بكفنه الدّامي الذي لم يكن أكثر من كيس أبيض، وكانوا قد صلّوا عليه.

جلس الشيخ على حافّة القبر، مُحدِّقًا بما في داخله، ولأوّل مرّة يهاجمه الخوف، ربما كالمرّة الأولى التي وجد نفسه فيها يُحدِّث ميتًا، يُلقِّنه؛ كان أولئك الأموات يسمعون!! لهم آذانهم، ولكن، أين أذنا أبي خليل؟! ارتبك.

متمالكًا نفسه جلس أخيرًا، مُتشبِّثًا بزهرة إيمانه، مستعيذًا بالله من الشَّيطان الرّجيم. تلفَّتَ حوله، وجد الوجوه كلّها مُحدِّقة به، صاح (الزَّوْبَعَة): غفرَ الله لمن جَلَس. فجلسوا القُرفصاء، وبدأ الشيخ التَّلقين: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.

{وبَشِّرِ الصَّابرينَ الذين إذا أصابتْهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون} {كلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ الموت، وإنما تُوَفَّوْنَ أجورَكمْ يومَ القيامةِ، فمَنْ زُحْزِحَ عن النّار وأُدخِلَ الجنَّةَ فقد فاز، وما الحياة الدُّنيا إلاّ متاعُ الغرور}.

يا عبد الله وابن أمته، مُتَّ وذهبتْ عنك الدّنيا، وهذه الساعاتُ آخر ساعاتك من الدنيا وأوّلها من الآخِرة حتى الحشْر واللقاء، وهو لقاء الله الذي لا بدَّ لنا منه.

فإذا أتاك المَلَكان الموكّلان بكَ وبأمثالك من أُمّة محمد فلا يُزعجاك ولا يُرعباك، واعلمْ أنهما من خلْق الله كما أنك من خلْق الله تعالى، فإذا أجلساكَ وسألاكَ ما دينكَ وما اعتقادك وما الذي مُتَّ عليه؟ فقلْ لهما بلا خوف منهما ولا فزع: الكافي لي هو الله. فإذا سألاك الثانية فقل لهما: الله ربي حقًّا ومحمد نبيي صِدْقًا، والكعبةُ قِبْلتي، والصلاةُ فريضتي، وأنا وأنتم على قول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله..

اعلم يا عبدَ الله أن الموتَ حقٌّ وأن النارَ حقٌّ وأن سؤالَ القبر حقٌّ وأن الميزانَ حقٌّ، هذا بلاغٌ للناس وليتذكّر أولوا الألباب.

لقنكَ اللهُ حُجَّتكَ، وبيَّضَ الله صحيفتَكَ، ورحـمَ غربتَـكَ وأنــزلكَ منــزلًا مُباركًا وهو خيرُ المُنــزِلين، وصدقَ اللهُ العظيم).

***

مـا إن واروا الميـتَ الـترابَ، حتـى انحنـى (الزَّوبعـة) وقـامَ بتلبـيس القـبر (عباءته). ولم يدرِ أن ما فعله كان أجمل ما يمكن تقديمه للـصغير وحنّـون، لأن ذلك يعني أنهما لن يفترقا.

تهامس الرجال حول القبر..

تهامسَ أخوة أم خليل وأبوها .

كانوا يعرفون أن أحدًا لن يتقدَّم لأمّ خليل في هـذا الـزمن، فالـصَّبايا لم يعـد أحدٌ يُقبِلُ على الزواج منهن، فكيف الأرامل؟

كانت مسألة تلبيس القبر تعني أمرًا واحدًا فقط:

أن من يلبّس القبر يطلُب زوجة الميّت من أهلها.

ولم يكن لهم إلا أن يوافقوا، فيقول أحد أخوة الأرملة

- مرحبًا بك.

43

امتقع لون السّماء فوق الجبل، تبدّلتْ ملامحُ الناس، داهمهم انكسار مفاجئ وحسٌّ جارح بالذَّنْب.

هل كنا سنحصل على ميتةٍ أفضل من هذه خارج بلادنا؟

لم يسأل أحد، لأن الجميع سألوا، ولم يُجِبْ أحد، لأن الجميع أجابوا. مُتحلِّقات حول أمّ خليل جلست النّسوة، وجوه يعرفها الجبل، ووجوه لا يعرفها، لكن الغربة تعرف الجميع.

***

أنشبتْ أظافرها في وجه السّماء، تشبّثتْ بكلِّ صبر العالم كي لا تَسقط إلى الهاوية. خليل كان همّها، خليل الذي لن يبقى للحياة طعْم إذا ما ضيَّعته، خليل ثمرة رحمها. تناست الموت، تناستْه، ولكنها لم تستطع نسيانَ الطّريقة التي طرَقَ فيها أبواب حياتها وأحلامها، هي التي خسرتْ زوجها الأول حين أطبقتْ على القرية المصفَّحات الصهيونيّة، المصفّحات التي التفَّتْ على القرية، وتركتْهم يخرجون من الطُّرق التي كانوا قد زرعوها بالألغام حين انتهى رصاصهم القليل وذابت فوهاتُ بنادقهم العتيقة.

- فليبقَ لي خليل.

فهمت النّسوة ذلك، فتراجع عويلهن إلى الوراء، ولم تعد النّساء اللواتي وجدْنَ في موت أبى خليل الفاجع مناسبةً حارقة لندْب أحبابهن الذين غابوا، لم يعدن لندْبه أو ندْبهم.

"من بكى على أحبابك، تبكِ على أحبابه"! حاولتْ أكثر من امرأة عاقلة إسقاط هذا الدَّين، ولم يكن للرِّجال وقت للبكاء.

لأمّ خليل مجزرتُها الخاصّة، وللزَّوبعة مجزرته الخاصَّة، الزَّوبعة الـذي عَلِمَـتْ أنها مخطوبة له الآن، هذا الخارج من مجـزرة "ديـر ياسـين" دون محمـد ودون أم محمد ودون اسمه القديم.

***

وكأنّ الجنون نفسه كان هنالك في رحمها، حيـث الحركـة لا تتوقَّـف. يومـان كاملان لم يهدأ، وفي صبيحة اليوم الثالث عمَّ الصَّمتُ كلَّ جسمها، كأنـه تَعِـبَ، هذا الذي أوشكتْ أن تُـصدِّق أذنيهـا وتُجـنّ وتـصرخ: لقـد سـمعتُه يـصرخ في رحمي.

هدأ كما لو أنه تَعِبَ، تلاشى، لم يعد هنالك ما يدلُّ على وجوده سوى انتفـاخ بطنها، ثم جُنَّ جنونه من جديد، مبعثرًا رحمها في الاتجاهات كلّها.

بدأ بكاء أم خليل من جديد، بدأ ندْبها، وكأنها تتلقَّى خبرَ موت زوجها الآن فقط.

- ارحمي ما في بطنك. قالتْ عائشة.

- هو الذي عليه يرحمني، إنني أتمزَّق.

صرخت عائشة في وجهها: إياكِ أن تخسريه، تشبثي به، لا تدعيه يغلبكِ أبدًا.

وطارتْ إلى البيت. حملت الصغيرَ دون أن تردّ التّحية عـلى زوْجهـا، لاحـتْ منها التفاتة لحنّون النّائمة، فرَّت الدَّمعةُ من عينيها، ركضتْ تعـبر الليـل، الليـل الحالِك كسحابة عمياء.

ألقتْه بين يديْ أم خليل: أنظري يا امرأة ، ألا تُريدين أن يكون لكِ مثـل هـذا الوجْه؟! حدِّقي فيه جيدًا، ولا تخسري ما في بطنك.

من أين جاءت الجرأة لعائشة؟

هي نفسها فوجئتْ، هي نفسها لم تعرف كيف تغيَّرتْ؛ وحين انتبهتْ لنفسها في منتصف المشهد أكملته مُرتبِكة.

حدَّقت أم خليل في وجه الصغير. ألـمٌ يعتصرها.

- لم تكن هي. قال الصغير. خيالها كان يحملني، لم يكن ليديها وجـود حـولي ولا لساقيها اللتين رمتْني أمّي عليهما، لم يكن لديَّ إحساس بأنني بين يـدي بـشر لولا ذلك الصوت الذي انفجر في الداخل:

- أريده الآن، أريدُ أبي.

- انتظر لحظة ، لم يعُد هنا.

- أريده الآن.

- إن هبطتَ الآن لن تجد أحدًا.

- ما الذي تعنيه؟

وصرخت عائشة: تمسَّكي به جيدًا، إياكِ أن يفلتَ من جسمك، انظري إلى وجه الصغير وتقوَّي به.

- لا أستطيع ، يكاد يقتُلني.

....

وقال: أريد أن أراه الآن.

- حنُّون قالت إنه لن يعود.

- سأناديه ، سيسمعني ويعود.

- لن يعود.

صرخ: أريد أن أراه ... آه، آه، آه.

اندفع رأس أم خليل إلى الوراء. مرعبةً كانت صرختُها. وانفجرَ شيء ما هنالك بين فخذيها. حملت عائشة صغيرها ألقتْه في الرُّكن.

وصرخت أم خليل: لم أستطع، نزل غصبًا عنّي.

تكوَّرت في أكثر الزوايا إظلاما، حدّقتْ في الكتلة المُدَمّاة التي تُشبه أباها. كان ولدًا. صرختْ:

- خذوه ، يغضب عليه، لم أكن أريده أن يسمع كلامي سوى هذه المرَّة، لكنّه عصاني، ثم صمتتْ ومن بين دموع يأسها همستْ: الله يرضى عليه.

***

تخلخلَ الزَّمن لأيام طويلة، دخل الليل في النهار إلى مسافات لم يبلُغْها من قبل، وراية سوداء ممتلئة بالثقوب أصبحتِ السّماء، تدحرَجت الأيّام من أعلى الجبل إلى عمْق الوادي، وصعدتْ الليالي الحزينة الصّامتة.

لم يعد أحد يرى الآخر المزروع أمامه، وذهب كلُّ شيء بعيدًا خلْف فكرة سوداء في سرداب أسود بلا نهاية.

تلاشى الصّغير في فكرة أن الجميع يتلاشون، لم يكن هناك سوى الدّجاجة، وحدها تنقر التّراب حول سريره. لم يرَ أمّه، لم ير أباه، وخاف أنهما لن يعودا.

اختفتْ حنّون، قال: لعلّها لن تعود أيضًا. حاول النُّزول من السَّرير لم يستطع، أحسّ بقهر، بكى، لم يسمعه أحد، فتأكّد أنهم ذهبوا كلّهم ولن يعودوا. عندها، صرخ الصغير صرختَه الكبرى، فظهرتْ أمّه أمامه كما لو أنها طلعتْ من الأرض، وفرَّت الدّجاجةُ بعيدًا..

ولم تأتِ حنّون.

***

في ليلتهما الأولى، جلسا وجهًا لوجه، حدّقا في عيون بعضهما، قالت أم خليل بأسى: (إلتَمّ المتعوس على خايب الرَّجا) كانت الجملة كافية لتفجير منابع الدّمع كلّها.

فبكيا.

أمّ خليل، والزَّوبعة.

استندا إلى جدار بارد، حنّون نائمة في طرفه الأقصى، حنّون المنسيَّة بين مشاغل الكبار الدَّامية.

ولليالٍ طويلة ظلّ المشهد يتكرّر وصمتُهما ينتشر بين البيوت..

حنّون قالت: إنّها لا تعرفه، وإنّه بلا لسان.

خاف الصغير، لكنّها جاءت بعد أيام وقالت: إنه يستطيع البكاء، ولكنه لا يحبّني. ثم قالت بعد أيام: إنه طيّب، يحبني ربما، ولكنّه لا يقترب مني. ثم قالت: إنه مَسّدَ شَعري ولم أخفْ، حاول أن يقول شيئًا فبكى، وبكتْ أمّي، ثم قال لأمّي: منذ الآن، لا إسمي أبو محمّد ولا إسمك أم خليل، علينا أن ننسى.

وسألتْ حنّون: هل سيتغيّران؟!!

***

ومال عليٌّ على عائشة وقال: ما دُمنا نموتُ هنا، فعلينا أن نُنجبَ أطفالًا لعلّهم يعودون..

وانتفضتْ عائشة.

***

هدوءٌ مريض احتلّ خلايا الصغير، بدّد نظراته، وامتصَّ رحيق شيطنته.

ارتاحت أمّه، أمّه التي أرهقها طويلًا جريانها خلْفه، كما لو أنها تركض خلْف نهر لتُعيده، وحين تصل مصبّه يختفي في بحر.

لم تكن عائشة مطمئنة لصمت صغيرها ولا لصمت الجبل، ولا لذلك الألم الدّامي الذي يسكن بطنها، حيث توقّفتْ دوْرتها الشّهرية وطال ذلك..

لم تترك بابًا إلّا وطَرَقَتْه بحثًا عن علاج. ابتدأتْ بتمليس بطنها بيديها المدهونتين بالزّيت، أحضرت المُنخل، قلبته على ظهره وشدّته بالحبل على بطنها من الأمام، وظلّت هكذا، إلى أن قالت لنفسها: أرى جميع شروشي قد تكوَّمتْ في بطني. وفكّت الحَبْل، وكرّرت ذلك ثلاث مرّات، فكّرت بالكيّ، إلاّ أنها تركته للنهاية. كانت تخاف النار. وضعتْ لزْقة لِشَدّ الظَّهر بعد أن تحمّمت، ثم توَّجت ذلك بأن جمعت 40 نوعًا من الأعشاب على رأسها الطّيّون والميريمية والزَّعتر والبُطم، وضعتْها في "قِدْرَةٍ" أغلقتها بالطين وتركتها تغلي وتغلي، فتحتْها ثم وقفتْ والقِدرة بين رجليها؛ تصاعد البخار، تخلّل جسدها كلّه، ألهبَ جلدها. قالت: إن لم تنفع هذه فلن ينفع شيء وانتظرتْ، لكن شيئًا لم يحدُث.

لم تكن تجرؤ على الذّهاب إلى شيخ لعمل حجاب دون استشارة عليّ، هي التي ظلّت تتهرَّب من مفاتحته بما يجري فيها. وظلّت حائرة: لم لا يُفاتحها والأمر واضح؟

استعادت تلك الأيام، أيام حَمْلها الأولى بالصَّغير، خجَلها، عدم قدرتها على إخباره، دنوّها من شيء ثقيل تريد أن تحمله، توقّفها، طلبها منه أن يحمله عنها! ولم تكن له أُم لتخبرها، وكانت أمها بعيدة، لكن (عليّ) عرف ذلك دفعة واحدة حين أفلتت الكلماتُ منها دون أن تدري، دون أن تحسب حسابًا، قبل أن تُفكّر. كان يمازحها في ظلمة الغرفة، حين شدّها بقوّة إليه، حين صرختْ: انتبه، الولد!

فخورًا، ممتلئًا صدره بهواء مغرور هبط الجبل، لم تعد قسوة أبي إسماعيل قادرة على تبديد ذلك الفرح الذي سكنَه وتلك الرِّقّة التي اندفعتْ إلى أصابعه فجأة كلما لامسها. وتصاعدَ بطن عائشة، ارتفع كقبة عظيمة، وبدأ الصغير يُخابط في الدَّاخل.

- كأنه باسم الله قرد!

لكنها كانت تخشى أن يكون (قِردَة).

وضعتْ سكّينًا على النّار، عصرتْ ثديَها الصَّغير، أنـزلتْ نقطةً مـن الحليـب على السّكين، ظلّت النّقطة متماسكة كما هي، لم تنفرش، فابتسمت عائشة..

بعد يومين عادت لتقلق من جديد، ملأت كأسًا بالماء نقّطـتْ داخلهـا نقطـةً من حليبها، نـزلت النّقطة إلى قاع الكأس، لم تَطْفُ، فابتسمت عائشة..

لكن القلق عاودها، بحثتْ عن بيت نمْل، وضعتْ على خيطٍ بضعَ نقاط من حليبها، ألقتْ الخيطَ هناك، وفجأة اندفع النَّمـل باتجـاه الخـيط، جـرّه للـدّاخل، ابتسمت. لو لم يكن ذَكَرًا لما اقترب النَّمل من الخيط!! لكنها ظلَّت على نار قلقها إلى أن اختصر الصغير الطّريق وأطلَّ على الدّنيا قبل موعده. حدّقتْ بين رجليـه وابتسمت ابتسامتها المُرْهَقة المُتعَبة، ولكنها ابتـسامتها الكـبرى: ولـد، لم يكـذب النّمْل، ولم يكذب حليبـي!

***

لكن حليبها اختفى، كما لو أنها بلا ثديين، انتفخَ بطنهـا ولم تعـد قـادرة عـلى تناول الطّعام.

صغيرة كانت عائشة، مرتبكة بابنها.

تعبئة المياه من "رأس العَين"، عملُها في البيت دون توقّف، بنيتها الـصغيرة، دكّها للّطوب، بحثها عن حطب لم يعد موجودًا، أو أحذية عتيقة تـصلح للنـار، انعدام تغذيتها، كلّ ذلك تركها عُرضة لألم لم تُطق بعده إلا أن تـصرخ، ويـصرخ عليّ في وجهها: لِمَ لَمْ تقولي منذ البداية؟!

***

هزَّت المرأةُ الخبيرة رأسها، وقالت: لديها أيضًا هبـوط في الـرحم، تحتـاج إلى علاج طويل وإبر!

وأخذتْ ربع دينار.

ولم يكن عليّ قادرًا على تَرْك عمله، فجاء يوسف أخوها، وضرَّتهـا القديمـة، الذي ما إن رآها متألّمة حتى بدأ يبكي، نظر الصغير إليه، نظر إلى أمّه التي أخذتْ تبكي بدورها فاجتاحته عاصفة من البكاء، حتـى انتبهـا إليـه وراحـا يراضـيانه وينسيان بكاءهما في الوقت نفسه.

حملته عائشة إلى أم خليل ورجَتْها أن تعتني به إذا ما أصابها مكروه أو ماتت!!

فاستعاذت أمّ خليل بالله وطردتْ فكرةَ الشرِّ هذه بسيل من الدّعوات.

حزينًا كان الصغير بين يديْ حنّون وهو يرى أمه تبتعد، يتذكّر دمعاتها التي بللتْ وجهه فيوشك أن يبكي. ولم يكن يعرف خاله جيدًا، خاله الذي رآه مرّة أو مرّتين في زيارات عابرة. لم يعرف أين يمضي بعيدًا بأمّه.

وصامتًا ظلَّ الصغير، لم تُجْدِ أنامل حنّون التي راحت تتلمّس وجهه، كلما سهت، انطلق باتجاه العتبة وجلس محدِّقًا في قاع الوادي حيث الحركة تملؤه فيتناهى إليه صخبها.

حملته أمّ خليل فأحسّ بذلك الفراغ الهائل فيها، أسترجع صرخة بعيدة أطلقتْها فارتجف جزعًا. كان قد حاول كثيرًا الاقتراب من بطن أمه المنتفخ، حاول التَّحدُّثَ مع ذلك الذي يُفترض أن يكون هناك، ولم يكن يسمع سوى رجْعِ صوته. هذا ضاعف حزنه. ثمة فراغ في كلِّ مكان.

***

هزَّ الطبيب رأسه: يلزمها مستشفى وتحاليل.

فصعدَ بها يوسف إلى مستشفى "لوزْميلا" حيث كان بإمكانها أن تتعالج لأن لديها بطاقة وكالة الغوث.

هزّوا رؤوسهم، رؤوسهم النظيفة، وبياضهم الذي يُجلّلهم وتهامسوا. أخذه أحد الأطباء بعيدًا وسأله:

- قريبها أنت؟

- أخوها.

- يجب استئصال رحمها؟!

ارتبك يوسف، دارت الأرض به..

عاد إليها الطبيب سألها عن عدد أولادها..

فقالت: واحد الله يخليلك!

التفتَ إليها وجدها صغيرة، أصغر مما يجب.

تركها يوسف في المستشفى، وعاد.

أخذ الصغير من بين يديْ حنّون، الصغير الـذي كـان صـامتًا، كـأن لم يكـن موجودًا. حَمَلَه قاطعًا المسافة بين بيت أم خليل وبيت أخته. وحين وصـلا وجـد نفسه يبكي، لكن الصغير لم يبك هذه المرّة، ظلَّ يحدّق به، وبعد سـاعات أحبّـه، فبدأ يبكي معه.

وحين جاء عليٌّ بعد المساء وجد أعينهما منتفخة مُحمرَّة.

هبط للمستشفى، لم يتركوه يـدخل، كـان العـالم لـيلًا، عـاد مقهـورًا، وجـد يوسف يستمع إلى المـذياع، تناولـه مـن بـين يديـه بعـد أن ميّـز صـوت "عبـد الناصر" بصعوبة.

من كان يجرؤ على الاستماع إلى ذلك الصّوت عَلنًا؟ قلَّة قليلة! أمسك المـذياع بكلتا يديه، وضعه على حافة سور الحوْش، بعد أن أعلى الصَّوت إلى أقصى درجة ممكنة.

صرخ يوسف: ما الذي تفعله؟!

قال: لا أحد يجرؤ على فتح مذياعه لسماعه، فليسمعوه من مذياع آخر.

أطلَّت الرُّؤوس من أكثر من مكان، بحثًا عن عبد الناصر الـذي مـلأ الجبـل فجأة، وكانَ الأمر أشبه ما يكون بعملية انتحار.

***

صعد يوسف الجبل مُغلقًا الباب خلْفه، تاركًا الصغير وصـمته. وحـين عـاد وجده كما تركه، كان قد أعدَّ له مفاجأة، لكن الصغير لم يكن هنـاك، حتـى انـه لم ينتبه لعودة خاله، خاله الذي أخرج فجأة من خلف ظهره عصفورًا كان يُمـسكه من رجليه ووضعه كمعجزة كاملة أمام عيني الـصغير، الـصغير الـذي تراجـع للوراء خائفًا في البداية، ثم مدّ يدا مرتجفة إلى الكائن الصغير، وأعادها ثانية، ثـم مدّها ولامس العصفور، وأطلق كركرة عاليـة مـن أعـماق قلبـه. ربـط يوسـف العصفور بخيط، حاول أن يضعه في يد الـصغير، لم يـنجح، دار الـصغير حـول يوسف، أمسكه من قدميه جرّه للأرض، جلس بجانبه، ناوله العـصفور، قـبض عليه بقوّة وظلَّ الخيط يتأرجح، ويوسف يبتسم، ويطلب مـن الـصغير الـذي لم يُعِرْه انتباهًا ألّا يشدّ على العصفور..

انتفضت الأجنحةُ، وبغتةً استطاعت الإفلاتَ، لكن ريش الذَّيل بقيَ في يد الصغير. امتدّتْ يد يوسف بسرعة، لكن الأجنحة نجتْ بنفسها مُخلِّفة الذَّيل المنتوف، والخيط منسلًا من بين الأصابع الدّقيقة. صرخ الصغير: تار (طار) وفوجئ خاله بالكلمة، فوجئ بقدرة الصغير على الكلام.

تخبّط العصفور في البداية، لكنّه اهتدى للباب الذي يُطلّ على شجرة التّوت مباشرة، ورآه الصغير يحطُّ على غصن أجرد.

وقبل أن يقول له خاله كلامًا لم يعد مهمًّا بالنسبة إليه، كأنْ يَعِدَه بإحضار واحد غيره، كان الصغير يُكركِر ثانية.

شيء ما سكنه كحقيقة، ان الخيط لم يزل بيده. وهكذا كان، كلّما مرَّ رفّ سحَبَ خيطًا وهميًّا فاقتربت الطيور منه، أو تركه يطول واثقًا بعودتها، ويُكركر.

***

تتحسس أسفل بطنها بحزن وتبكي، كانت هناك وحيدة مع الصّمت، بعد أن أفاقتْ من تأثير المخدِّر. فكّرت: هل سيتزوج عليّ؟ هل سيُبقيني في البيت؟ هل سيأخذ الصغير؟ وتبكي..

وفاجأها الطبيب.

- لماذا تبكين؟!

- والله إني خائفة!

- ولماذا، العملية نجحتْ، أعدْنا الرَّحم إلى مكانه.

- صحيح؟

- آه صحيح، صحيح ونُصّ.

وطارت عائشة.

***

لم يكن صعود الجبل سرًّا ليَخفى على عينيْ أمّ خليل وحنّون. لاحتْ عائشة من بعيد مُتعَبَة يسندها يوسف، وقبل أن يصلا كانت أمّ خليل وبين يديها الصغير، وحنّون إلى جانبها يلوّحون. تعلّق قلبُ عائشة وعيناها بابنها، وهُيِّئ لها أنه كبر أكثر مما تتوقّع في أسبوعي الفِراق الطويلين. تفلّتَ الصغير من بين يديْ أم خليل وهو لا يكفّ عن ترديد كلمته: تار، تار..

احتضنته عائشة وتركَتْهُ لِيَدَيْ أم خليل ثانية، وهو يتَفلّت: تار، تار.

أخبرها يوسف بقصة (تار) فطارت بصغيرها فرحًا. وبعد أيام عـادت إليهـا حيويتُها، فبدأت تهتدي لآثار خطاها القديمة في الغرفة. ولم تَعُدْ تحسّ أنها غريبة عن المكان، والصغير حولها يحبـو، وكلّـما أراد شـدَّ انتباههـا، جلـس عـلى أليتـه العارية وقال: طار، طار، فتهزّ عائشة رأسها وتردّد خلْفه: طار، طار.

ويبالغُ

فتقول: والله فهمت: طار ، طار، طار!!

42

ربيع عارم غطّى الجبل، راقبه الصَّغير وأحبّه، تساءل كيف تغيَّر لون التراب هكذا؟ وبدأ ينتظر تغيُّر لون السماء، ولم يتغيّر. افتقد حنّون، لم يرها بجانبه كالعادة. انتظر على عتبة الغرفة، لم تأت. وكانت أمّه تنهره بين حين وآخر كلّما أراد الحبو بعيدًا، يجلس قليلًا ريثما تنشغل، ويعاود الحبْوَ.

راحت يداها تعملان بقوّة في تنظيف الملابس، حين غافلها وانسلَّ عبر البوابة الخارجيَّة للحوْش كسلحفاة مستعجلة. وخلْفه كانت الدَّجاجة، الدَّجاجة التي تلاحقه طوال اليوم، لكي تنقر برازه كلّما أفلتَ من أليته، الدّجاجة التي أصبح يكرهها أكثر، الدجاجة التي تفضحه بصوتها الذي لا يشبه صوت الطيور.

فرِحًا كان بنفسه وبالسَّفح الممتدّ الغارق في الخضرة والأزهار والبيوت الصغيرة التي تتسلّق الجبل البعيد دون أن تصل.

كأنه قطَعَ الطريق ألف مرّة قبل هذا اليوم؛ وجد نفسه يحبو في ذلك الممرّ الضَّيق الذي مهّدتْه الأرجل، أرجل حنّون، أمّها، أمّه. وفي منتصف المسافة حاول أن يقف، لم يستطع، كان يريد دخول بوابة بيت حنّون ماشيًا. لعن قدميه، نظر إليهما فوجدهما مدمّاتين عند ركبتيه، والدجاجة لم تزل خلْفه. أمامها وجدتْه حنّون، صرخت صرختها الكبرى: ولك شو جابَك؟!

أخذته بين يديها، راحتْ تقبِّله فرِحَةً، ومنذ تلك اللحظة قرّر أن يأتي كلَّ يوم لتُقبِّله وترفعه بين يديها وتضمَّه.

ومن الداخل جاء صوت أمّها: مع من تتكلَّمين؟

قالت: مع الصَّغير.

- الصغير!!

خرجت أمّها تتعثّر بأطراف ثوبها وكتل العجين ملتصِقة بيديها، وصرخت صرختها أيضًا: ولَكْ شو جابَك؟!

ولم يكن مستعدًّا للإجابة.

التفتتْ عائشة حيث كان الصغير، لم تجدْه، نظرتْ باتجاه الباب، وجدته مشقوقًا، خرجت تجري ولا تدري، يسبقها عويلها.

بعيدًا لمحت الدّجاجة، ركضتْ باتجاهها، وقبلِ أن تصلها تناولتْ حجرًا وضربتها به: أين ذهبتِ بالولد يا داشرة، ويلْي سيطلّقني عليّ.

راحت الدجاجة تركض مبتعدةً، تعرج، تتعثّر فيرتطم وجهها بالأرض ثم تنهض خائفة.

وعائشة تركض إلى بيت أمّ خليل، البيت الوحيد الذي كان يمكن أن تصِله وتسأل وتبكي أمام ساكنيه.

وهناك وجدت أمّ خليل تستعدّ للخروج لإعادته وهو يضحك بين يديْ حنّون. عندها تنفّست عائشة، احتضنته، وبكتْ كما لو أنها لم تجده!

***

الصغير، سيقوم برحلته هذه كلّما رأى الباب مفتوحًا، كلّما انشغلتْ أمّه، كلّما وجد فسحة ينسلّ منها عبر غفلتها والسّور، لكنّها لن تصرخ كما فعلت في المرَّة الأولى لأنها ستعرف أين ستجده.

ولكنها ستضعُ يدها على قلبها دائمًا، وتخاف أن يبتعد. وتهتدي للحلِّ الذي يُريحها أخيرًا، فتربطه وتربط الخيط بإبهام قدمِها الأيمن.

***

ضاقت صحراء المسّافة التي كانت تفصل أمّ خليل عن الزَّوبعة للحظات، حين أطلقتْ شهقتها وهو ينبئُها عن ثلاثة من عمَّال الكسَّارات اختفوا وبينهم السّائق بسيارته.

شهقتْ: سرقوها.

- لا، لم يسرقوها، السّيارة عادت، وجدوها في "طولْكَرم"، أما هم فلم يعودوا، كأن الأرض انشقّتْ وابتلعتْهم، اليوم اكتشفنا أنهم أخذوا الكثير من

البارود معهم، واليـوم قـال لي أحـد العـمّال: إنهـم ذهبـوا للقيـام بعمليـة ضـدَّ إسرائيل، وقد طلبوا منه أن يخبرنا إذا لم يعودوا خلال ثلاثة أيام. أبو صلاح جنّ، حتى بعد أن وجد السّيارة، جنّ لأن البارود سُرِق ولن يستعيده.

أتعرفين؟ كان يجب أن أكون معهم، لو أخبروني فقط!

قالت: أتريد أن تُرمِّلني للمرَّة الثالثة؟ أتريد أن يقولوا إنها مقبرة أزواجها؟!

انتبهتُ لكلماتها، ارتبكتْ، كانت المرّة الأولى التي تحدّثـه هكـذا، المـرّة الأولى التي تقول له إنه زوجها، المرّة الأولى التـي تعـترف بـه بـين جـدران الغرفـة وفي عتمتها.

وصمتت طويلًا.. امرأة قوية كانت دائمًا، إلا أن المأساة كسَّرتْها، لكن شيئًا ما تغيَّر تلك الليلة:

لم يعد الزَّوبعة غريبًا.

41

لم تعد مريم الشَّقراء ذات الجديلتين الذَّهبيَّتين تظهر في أيّ مكان، اختفت من الأعراس، من المآتم، من الطُّرق، لم يعد أحد يراها، لم تعد تزور أحدًا..

ظلّتْ مريم الشقراء هناك، بجديلتيها الذَّهبيَّتين. لم تعتن بشيء مثلما كانت تعتني بهما. أَوَلَمْ يقُلْ لها: إنهما أجمل ما رأى من جدائل في حياته؟!

ظلّ البيت حولها يضيق، وهي تحشر نفسها في زوايا نفسِها.

حتى الصغير، ذلك الذي تعلّق قلبها به كما لو أنه ابنها، الصغير الذي قالت له: كان يُمكن أن تكون ابني. لم تكن تراه إلاّ إذا زارتْهم عائشة، إلاّ إذا صعدت "جبل نَزَّال) وهو على كتفها، صغيرها الذي فكّرت أكثر من مرَّة أن تتركه في منتصف الطريق وتذهب لاستدعاء يوسف لحمْلِه، الصغير الذي كان يزوم كبطَّة، ولا يعرف أحد من أين أتته كلُّ هذه الصِّحّة في سفح الفقر ذاك.

منذ المرَّة الأولى، حين ألقوه في حِجْرِها، تعلَّقَ بجديلتيها، تعلّق بهما بكلِّ قوّته، أحس بأن أمّ الضوء مدّتْ له سُلّمًا ليصعد إليها؛ قوة غريبة سكنتْ أصابعه النَّحيلة، وصعد الصغير، وضع قدمه في عبِّها، وصعد، وكانت تعيده إلى حِجْرها بقوّة، ويصعد؛ يُبقي واحدة من يديه قابضة على جديلة ويرفع يده الثانية إلى أعلى: أتريد أن تلمس السماء؟!

ثم تقف وترفعه أعلى، يُنشب أظافرَه في الهواء، يضع قدمًا على كتفها: تريد أن تطير؟ وتطير مريم فرحًا به، تضحك.

الصغير وحده جعلها تضحك.

- قَتَلَني ابنكِ يا عائشة. صرختْ من بين دموع فرحِها.

وتقدّمت عائشة تحاول إبعاده عنها فتشبّثَ أكثر، استسلمت مريم، واستسلمت عائشة..

- كان يمكن أن يكون لي ابن مثله. قالت مريم، وهي تتأمّل الصغير المُتفلِّت باتجاهها أبدًا. ولم تعرف عائشة بماذا تُجيب.

ظلّت مريم نفسها، مريم المدلَّلة، المحبوبة، الرَّافضة دومًا لكلّ من يتقدّم لخطبتها، حتى أنها رفضت ذات مرّة مُعلّمَ مدْرَسة؛ جُنّتْ عائشة، وقال يوسف: لن نُرغِمها على شيء.

- ترفضين مُعلّمَ مدْرسة من أجل (أُمباشي)؟

- هو ليس (أُمباشي)، ثم لو كان يعرف مكاننا لأتى.

- والله لم أعد أفهم انتظارك له حتى الآن.

لم تقل لها عائشة ما سمعته عن تلك الوحدة الصغيرة من جيش الإنقاذ التي انسحبتْ قبل بدء القتال تنفيذًا للأوامر، فمريم تعرف، ويعرف الناس: بأوامر أو دون أوامر، لقد انسحبتْ، فرّتْ، بعد أن جمَّعتْ سلاحهم بحجَّة إعادة تنظيمهم. والناس تعرف: أن هناك وحدات رفضت الأوامر ورفضت الانسحاب.

غَيّبتْ مريم كلّ ما تعرفه، لم يبقَ لها غير تلك اللحظات التي تمّ اختلاسها من زمن متأرجح على حدّ الفجيعة بين لحظتين مُرَّتين اعتصرتا بلدًا بأكمله

- اسمعي يا عائشة، اسمعي. وتُخرج رسائله وتقرأ لها..

تُقاطعها عائشة: كلام في كلام، الناس عندنا لا تُحبُّ هكذا، ولا يلزمها كلّ هذا الحكي إذا كانت صادقة!

- أهذا الكلام كلام خائن يا عائشة؟!

تغضب مريم الشَّقراء، تتليَّلُ جدائلها، وينتشر رماد قديم ويُغطي ملامحها، تتنهَّد عائشة تقترب منها لتضمَّها، ترتبك، لا تعرف كيف تضع يدها على كتفها: كل الكلام خائن يا مريم، ما دامت البلد ضاعت وهو لم يأتِ.

***

ظلّتْ عائشةُ تُفاجأ بنفسها على الدّوام، وبالنتائج الباهرة التي تُحققها، حين أحسّت أنها بدأت تكبر وتتكلَّم مثل خَلْق الله! لم يبتدئ ذلك فجأة. حاولت في

البداية أن تجد المَثَل المناسب لتقطع حديثًا طويلًا حول مسألة مُعقَّدة، وكانت تتعثَّر في كثير من الأحيان، إلاّ أنها لم تيأس، استمرَّت تبحث عن القول الذي لن يُبقي الكثير من الكلام للآخرين حين تنطق به، جرَّبت ذلك مع أم خليل، مع بائع في سوق الخُضَار، مع جارة نـزِقة تلعن الدّنيا.

وكان ذلك يُوقعها في أخطاء كثيرة محرجة: (بنقول ثور بيقولوا احلبوه!!). هكذا تردّ عليها الجارة حين تخطئ. وظلّت عائشة تكبر.

فَرِحَةً بالحِكمة التي انسكبتْ على لسانها وأورقتْ، فرِحَةً بدهشة أُختها بها. تحيّنت كلّ الفرص لإيجاد مناسبة تُطلقها فيها ثانية ليسمعها عليّ؛ واكتشفتْ أن أية نشرة أخبار فيها من الكلام عن فلسطين ما يساعدها على ترديد جملتها حتى اهتراء لسانها، فقالتها، أعادتها معدّلة: كلُّ الكلام خائن ما دامت البلد ضاعت والجيوش تنسحب قبل بدء المعارك!

كبُرت عائشة فجأة في عيني عليّ.

أحسّ أنّ بإمكانه الآن أن يعتمدَ عليها!

لم تكبر بصغيرها، ولا بمسؤولياتها عن تلك المغارة المُلقاة على عاتقها بثعالبها التي تحنُّ للعودة بين فترة وأخرى، وبفئرانها المقيمة في زوايا العتمة. كبرت فجأة.

عائشة التي لم تكن تستطيع أن تحمل ابنها كما يجب خائفة أن يقع..

عائشة التي كانت تجفل كلما أرادتْ أن تُرْضعه في البداية وهي تُكركر: ألنْ يعُضَّني؟!

وتضحك أمّ خليل: يجازيكِ يا عائشة!! لا، لن يعضَّك.

عائشة التي احتارت بما تفعله ببراز ابنها وبتنظيفه، قبل أن تتجرّأ وتسأل أمّ خليل: ما الذي أفعله، الولد عَمَلْها.

وحين كشفتْ أمّ خليل عن أليته وجدتها محمرَّة وملتهبة مثل ألية قرْد.

عائشة التي كانت تضبط نفسها متلبِّسَة باللعب بالتراب، فتنهر روحها: قومي يا بنت شوفي طبيخ جوزك!

عائشة التي طارت فَرَحا حين بدأ الصغير يدرُج.

عائشة التي بدأت تعانده وتناكفه إلى أن تذكَّرت أنه ليس ضرَّتها. عائشة التي انـحشرت وحدها مع صغيرها في غياب عليّ القسريِّ، عليّ الذي لم تعد تراه لأنه يجيء في العتمة، وضوء القنديل لا يكفي لترى إنسانا تحبّه.

مريم قالت: سيعود "سَلْمان" يا عائشة، سيأتي ذات يوم.

ولم تكن عائشة مطمئنة في أيّ يـوم مـضى لتطمـئنَّ الآن: الـذي يُـضيِّع بلـدًا بخاطره لا يمكن أن يعود.

وستصدُق عائشة الحكيمة، كما بدأت مريمُ تدعوها، نصف ساخرة ونـصف مُعجبة، لأن سلمان لن يعود، ولأنّ مريم هي التي ستجده!

40

وقف محدِّقًا في الطائر كما لو أنه يراه للمرَّة الأولى، ملوّنًا وجميلًا كان، على قمَّة الشجرة يغنّي، والصغير تحت التوتة كاتمًا أنفاسه، غارقًا في بحر سِحر الكائن السّماويّ.

وجاءت راكضة، أحسّ بها، سمعها، أشرعتْ بابَ الحوْش، أشار إليها أن تتوقَّف، أن تُخفض صوتها، أن تبتلعه، ولم تنتبه.

- يا لّلا نروح عا الدُّكان، نشتري حلاوة..

وأشار لها أن تصمت ثانية، لكنّ صوتها ظلّ يتصاعد.

- يا لّلا عا الدكان يا لّلا. يا لّلا. يا لّلا..

كانت تُنغّم الكلمات، وتغنّي، وكان العصفور يغنّي، هي تغنّي، والعصفور يغنّي، وفجأة طار.

أمسك بحجر. قذفه باتجاهها، أصاب إحدى رجليها. خرجتْ تبكي. ذهب إليها ليُراضيها، لكنّها بدأتْ تلعن كلَّ ما حولها:

- يِلْعَنْ الحيط، يلعن الباب، يلعن الشبّاك، يلعن الطنجرة!

وخرجت من بيتهم وهي تصرخ: يلعن البابور، يلعن الصّحون يلعن اللحاف، يلعن الوسادة، يلعن..!!

مرَّة أغضبها كثيرًا فصرخت: يلعن الموس، يلعن السِّكين.

كانت هذه واحدة من عاداتها الغريبة، تلعنُ الأشياء، لكنّها لم تقل له مرّة: يلعنَك.

تجاوزت حنّون كلَّ الحدود هذه المرّة حين صرخت: يلعن الشَّجرة. تمالكَ الصغير نفسه، لكنّها أطلقت لعنتها القاسية:

- يلعن العصفور!!

عندها استدار، تاركًا لها السَّفح كلّه ولبكائها، عـاد للبيـت، البيـت الـذي لم يخرج منه إلى أن سمع أمّه تقول: سترحل حنّـون. فاعتقـد أنـه الـسبب. خـرج. كانوا يجمعون أغراضهم في صندوق السّيارة التي وقفتْ على قمّة الجبـل، رآهـا بين الأغطية وصندوق أمّها والنَّمْليّة[3] الصغيرة. لم تنظر إليه، كانت تحـدِّق هنـاك في رجليها ربما، وتبكي.

وأقْفَر الجبل...

***

طويلة مرّت اللحظات، وترامت الأيام بين يوم غيابها وذلك اليوم الذي تجرّأ الصغير أن يسأل أمّه فيه:

- ألأنني أغضبتُها رحلت؟

- لا، لكنّهم ذهبوا لمخيّم "الوِحْدَاتْ" أخذوا (وِحْدَة).

قال: وهل سنذهب نحن أيضًا؟

قالت: عندما يجيء دوْرُنا.

ولم يفهم الصغير متى سيجيء دوْرُهم.

***

قال لأمه: لا أحبُّ المغارة.

وردّت: ومن يحبّها؟

قال: كان يجب أن تتركاها منذ أتيتما هنا للثعالب.

: ومن حدَّثكَ عن الثّعالب؟

- أنتِ تعرفين، لا أحد.

- لكن ذلك كان قبلَ مولدك، قبل أن أحملَك في بطني.

***

جبل النَّظيف..

سفوح بكر، وصعودٌ لانحدار آخر.

---

[3] - خزانة صغيرة.

أطلقت الثّعالبُ عواءها في الليلة الأولى، التمعتْ أعينها غضبًا في الثانية. همستْ عائشة: أخشى أن تهاجمنا حين ننام.

نهض مُتثاقلًا، تأكَّد من قوّة لوح الصَّفيح على باب المغارة، وعاد إلى جانبها.

- ألم نأخذ بيتها؟ قالتْ.

ولم يُجب عليّ، شيء ما انتفض في صدره كضربة سكين.

فَرِحَيْن أقبلا على المغارة، لكن سربًا من الثعالب انفجر طائرًا في وجهيهما، فلم يجدا فرصة للتّراجع أو التَّحرّك.

- أحسُّ أنفاسَها اللاهبة تلفح وجهي حتى الآن. قالت عائشة. وأطلقتِ الثعالبُ عواءها ثانية.

- هي تُعاقبنا، لن تتركنا ننام ما دمنا نائمين في مكانها.

ولم يُجب عليّ، شيء ما انتفض في صدره ثانية كضربةِ سكين.. أكثر عمقًا.

***

انحدرت عائشةُ مع السَّفح باتجاه الماء، أغلقتْ باب المغارة بلوح الصَّفيح جيدًا، فكلُّ ما تملكه في الدّاخل.

فكّرتْ أن تطلب من امرأة كانت تُطلّ من مغارة بعيدة، أن تُعطي عينها للمغارة أثناء غيابها، خجلتْ، لم تكن تعرفها.

***

ارتقى عليّ السَّفح مساءً، شبحًا لاحَ في البعيد، تعِبًا حتّى لتظنّه بلا قدمين، وله جسد شبيه بذكرى قديمة. اقتربَ أكثر، نسيتْ عائشة مصيبتها، وأطلقتْ صرخة: ما الذي فعل بك هذا؟

- اليُتْم يا عائشة، نحن يتامى، لأننا لا نملك شيئا، وعلينا أن نُنكّس رؤوسنا ونَقْبَل ما يُمنح لنا من أولئك، أولئك الذين لهم آباء.

كانت ستشير إلى المغارة وتقول له: الثعالب عادت.

- لا تنظري إليّ هكذا، أستطيع أن أرى نفسي بنفسي دون مرآة.

ابتلعت ريقها.

- الثعالب.

- ما بها؟

- في الداخل.

- منذ متى؟

- منذ الصباح.

- وأنتِ هنا؟!

- نعم.

نظر إلى الباب، لم يدرِ كيف دخلتْ، تقدّم باتجاه المغارة، سَحَبَ لوح الصفيح بقوة، وتراجع، وقعَ اللوح أرضًا، تداخلت الثعالبُ ببعضها البعض، قبل أن تهتدي للباب وتفرّ طائرة.

ولم يتوقّف عواؤها طوال الليل.

قال والظلمة كُحْلٌ: معها حقّ، بيتها وأخذناه.

وقال: لماذا لم نَعْوِ حتى الآن؟!

***

- أحدهم قالَ لكَ هذا الكلام.

- أنت تعرفين، لا أحد.

- كيف لا أحد، كثير مما قلته الآن أوشكتُ أنا أن أنساه.

قال: والله لم يقل لي أحدٌ أيّ شيء.

- كذّاب.

- بكى الصغير.

قالت: ولكن كيف تريدني أن أصدِّقك؟

قال: لأنني لا أكذب.

- هل تذكر حكاية البدويّ؟

حدَّقت في وجهه بتحدٍّ مُعتقِدة أنها زجَّته في امتحان لن يُثمر فيه.

قال: ذلك الذي كان يريد أن يشتريني؟!!

- نعم.

قال: لا أذكره.

- وكيف عرفتَ أنه كان يريد أن يشتريك؟

قال: لأنه قال لكِ أريد أن أشتريه، بكم تبيعينه؟

- ولكنّني لم أقلّ لكَ ما حدث، لم أقلْه حتى لأبيك، لئلا يغضب.

***

على عادته التي اعتادها، ما إن غادر الصغير اللّفاع واهتدى لساقيه اللبنيَّتين اللتين لم تنفعاه في شيء، ثم اهتدى لركبتيه أخيرًا، منذ تحرّر من حزام القماش العريض المضروب حوله، بدأت أمّه تخشى عليه طيشه.

تنظر إليه يلعب بالتراب، يتسلّل إلى بيت حنّون، يحبو، يلاحق الدجاجة يمسكها داخل الصَّفيحة يحشرها، ينتف ريشها، تستغيث.

وتهجم أمّه: وَلَكْ قتلتَها!

تُخلّصها من بين يديه الصغيرتين، وتمسح الخدوش التي تركتها الدجاجة في ساعديه ورجليه.

يختفي، وقد كان أمامها، تحت عينيها.

قريبًا كانت تجده في البدايات، في فِناء البيت صامتًا يحدّق باتجاه البيوت البعيدة وسوق الحَلال، حيث الماعز والأغنام والجِمال، هناك في الوادي، كائنات عجيبة وصغيرة أيضًا!

رأى الماعز في الجبل، خاف، كان كبيرًا، أكبر من ذلك الذي يتجمَّع هناك، لكن الجِمال لم تصعد ليراها.

حين استطاع الوقوف للمرة الأولى لم يُصدِّق عينيه، وخشي أن تبتعد الأرض، أن تسقط من تحته ويهوي. وفي أيام قليلة اهتدى فَرِحًا لخطاه التي اتّسعتْ يومًا بعد يوم.

أمّه قالت له: على مهْلك، كأنك تريد أن تقطع الدنيا في خطوتين.

وعلى نحو غامض كان يرى أن قَطْعَها في خطوتين أفضل من قَطْعها في خطوات كثيرة!

***

خطوتان، وإذا به على حافة الهاوية، حيث أمسكه الرّاعي البدويُّ من يده وسأله: وين أُمّك؟

فأشار إلى المغارة - الغُرفة.

شادًّا على يده، تقدَّم البدويّ، وخلْفهما مجموعة من الكائنات الغَنَميَّة التي تُصدر أصواتًا غريبة، وسط رنين أجراسها المُعلّقة في رقابها.

طرق البدويُّ البابَ الصَّفيحي للسّور الحجريّ..

هبّت عائشة..

كأنّ شيئًا ما أوحى لها أنّ الأمر مُتعلِّق بالصغير، تلفّتتْ حولها، لم تجده، وحين اشتدّت الطَّرقات هوى قلبها فزعًا.

بادرها البدويّ: ولدكِ هذا؟!

- نعم، نعم يا خوي.

قال: تبيعينني إياه؟! سأعطيكِ غنمتين!

- كيف أبيعه يا خوي، وليس لي سواه.

هزّ البدوي رأسه: تُحبينه إذن، سأعطيكِ عشر غنمات.

بكت: كيف لا أحبّه إنه ولدي الوحيد.

عاد البدويّ ليهزّ رأسه: ولدك الوحيد، وتحبينه، ولا تريدين بيعَه! لماذا تتركينه إذن هناك على حافة الجُرْف، أتريدين أن يقع ويموت؟!

- لا يا خوي.

امتدّت يده، ناولتْها يد الصغير. وسار دون أن يلتفتَ، تتبعه أغنامه، تلك التي كانت تُراقب المشهد بدهشة بالغة.

***

كانت عائشة تبكي.

قال: لم أذهب هناك لأرمي بنفسي، ذهبتُ لأتفرَّج.

- وهل تذكر شيئًا غير هذا؟

قال: الكثير!!

ارتبكت عائشة، استعاذت بالله من الشَّيطان الرَّجيم.

- لن يُجنّني أحد غيرك. وابتعدتْ.

قال: لماذا أنت غاضبة، ومستغربة، ألم تقولي لي: إنّ أباك، أي جدّي، كان يقول لك دائمًا: قبل أن يتزوّج أبي من أمي كنتُ جَمَّالا ولي سبعة جِمال؟

- هذا حكي؟!! جدّك كان يمزح.

قال: ألم يقل لكِ إنّه حضر عرس أمّه وأبيه؟!!

- هذا كلّه حكي، كان يمزح، لكنّك تريد أن تجنّني.

قال: أريد أن أجنّنك؟

- آه.

بعد صمت قال: وأنا أمزح!

فابتسمت.

لكن صوتها تبعه وقد راح يتسلّق الجبل: وقصّة البدوي كيف عرفتها؟

- أي بدويّ؟

فصرخت: والله ستجنّني!

واختفى خلف القمّة محاولًا تقليد صوت (الحسّون) الذي لم يزره منذ زمن طويل.

***

ضبطته أمّه يحلم بصوت عالٍ: بدّي "حنّون".

في الصباح وجد قرب مخدّته باقة من أزهار الحنُّون[4].

قال: هذا ليس حنّوني.

- هذا هو الحنّون الذي نعرفه من أيام فلسطين!

قال: حنّون يعني "حنّون".

صرخت عائشة في وجهه: والله عال، عال، من اليوم تحلم بالبنات!

- آه، من اليوم!! أنا حرّ.

- وهل تحبّ أن نُـزوِّجك؟

وأدارت ظهرها تاركة إياه مع الدّجاجة الرّاقدة في صفيحتها، الدّجاجة التي ظلّت تُحدّق كلّ هذا الوقت دون أن تفهم شيئًا.

***

ابتسمت عائشة فَرِحةً بصغيرها، ابتسمت من كلّ قلبها، اتّسعت شفتاها، كما لو أنّ حديقتين تفتّحتا على طرفي فمها، فمها الذي لم تعد قادرة على لملمتِهِ من

---

4 - شقائق النُّعمان.

جديد. منذ زمن طويل لم تحسّ بهذا الفرح، الفرح الذي حاولت أن تدفعه بعيـدًا كما لو أنه خطيئة، وهي تتذكّر غربتَها وزمنها الكالح.

- لكنْ، لمين طالع ها الولد؟ وأجابت نفسها: والله إنه يشبهني!

وفرحتْ أكثر.

***

صغيرة كانت عائشة، لم يكن قد مرّ كثير من الوقت على امتحانها لخطواتها وانتشارها في الأرض، حين تجاوزتْ عتبة الباب مندفعة للسَّهل، السهل الأخضر الغارق في الأقحوان والحنّون، وهناك توقّفت طويلًا ترفعها الدهشة وتُشرع عينيها، مشهد لم تحلم به، وحين اكتشفتْ أنها متعبة لطول وقوفها محدقّة بالأزهار جلستْ، وراحتْ أناملها الصغيرة تداعب سيقان الزّهر البرّيّ كما لو أنها تدغدغه ليضحك. وحين جاء اللّيل، رفضتْ أن تنهض، بكتْ وهم يحاولون جرّها للبيت، تشبّثتْ بالعشب والأزهار، إلى أن سمع أبوها صراخها، فهبّ إليها، أبوها الذي سأل: ما لها؟

- لا تريد أن تدخل البيت.

- بدّي أظل جنب الورد.

وذهبت كلّ محاولاتهم لإقناعها بأنّ الزّهر سيكون صبيحة اليوم التّالي هنا، هباء. فأحضروا فِراشهم وناموا حولها. وكان أبوها يحدّق في النجوم ويبتسم كما تبتسم عائشة الآن.

***

صعد الصغير الجبل، أبصر فَراشة، طاردَها، لم تتوقّف، غنّى لها:

(فراشة هدّي هدّي .. أطعمك لحمة خدّي!)

توقّفتْ أمسكها!

***

وقف وسط الغرفة الصغيرة الجديدة بجانب غرفتهم- المغارة وغنّى:

أُضووا سراج العَمّ، هيْ

أُضووا سراج العمّ،

الليل كلّه عتمة والقمر ما طَلّ

احتفالًا بهيجًا، كان إشعال السّراج، السّراج الذي لم يفقد بهجته أبدًا، والعمّ يرجو زوجة أخيه: لا تُقبّليه من قدميه لئلا يصبح قصيرًا!

تخاف عائشة وتكفّ عن تقبيل قَدَمَي الصغير، ولكن فرحها بوجوده بين يديها يُنسيها كلّ شيء: مَن قال إن الأمّ لا تحب أبناءها حتى لو كانوا قصارًا؟! مَنْ؟ وتعود لتقبيل قدميه، فيغادر العمُّ الغرفةَ غاضبًا.

***

صغيرًا كان العمّ، لم يتجاوز الرابعة عشرة، قذفتْه امرأة أبيه في وجه أبيه وقالت

- أنا، أو هو في هذه الدار!!

فقال الأب الختيار: لا، أنتِ.

وجاء العمّ إلى بيت أخيه.

***

مخنوقًا بين قمة الجبل التي يصل إليها في ثلاثين خطوة وَحَوْشِ البيت، كان الصغير هناك، وكل ما حوله يضيق.

يناديه الوادي..

العصافير التي اكتشف أنها أكثر مما تصوّر..

فيتفلّت من نفسه.

ويتفلّت الغيم من نفسه فيكون المطر..

ويتفلّت البرق من الغيم فيشقّ الأرضَ والسماء بضربة واحدة.

ويكون السَّيل.

على قمة الجبل يقف، والأُسْرة كلّها ممسكة به، المطر توقّف، وبدأ فصل جديد من الماء..

- اليوم، الله يعوّضنا عنه، تقول عائشة.

ولم يكن عليّ يقول شيئًا وهو يرى جنون الماء، ويدرك أن أحدًا لا يستطيع قطْع الشارع للوصول إلى عمله.

أمام السَّيل تتراكض البيوت، يُدرك الماء الهادر بعضَها، يطفو صفيحُها، مقاعدُها، أوانيها، الخزانات، ويمتدُّ الذراع المائي الهائل مختطفًا بيوتًا أخرى

كانت تعتقد أنها آمنة. تنفجر استغاثات، لكنّ الهـدير يبتلعهـا ويعلـو عـلى كـل الأصوات.

تنفرط البيوت..

يتبعها ما في جوفها من بشر وأثاث فقير.

ويتراجع السيل، كاشفا عرْي حوافه التي كانت مأهولة قبل ساعات.

ويتراكض الناس باحثين عن الغرقى وما تناثر من أوانيهم وأثاثهم في أطراف الوادي.

39

صرخت عائشة: أين الولد يا عيسى.

قال: انظري، امرأة أخي، انظري، "شخَّته"[5] لم تجف بعد، انظري.

فتصرخ: ضاع الولد، ضاع.

فيعود عيسى ويشير: "شخّته" لم تجف بعد.

انحدر الصغير متتبِّعًا قسمات السفح باتجاه حوافّ السَّيل الجافّة، على وجهه تقطيبة رجل كبير في مهمة خطرة. أليته تلوْح تحت قميصه الطويل، تنكشف وتختفي، بفعل قوة النّسمات التي تتسلّق الجبل أو ضعفها.

ولم يُشغل عمَّةَ أبيه بحثُها عن أسهل الطّرق الترابيَّة الصّاعدة من أن تراه. لكزتْ ابنتها اللاهثة إلى جنبها:

- يا مصيبتي، مش هذا ابن عليّ؟

واندفعتْ باتجاهه.

- ولكْ مش إنتَ إبن علي؟!

هزّ الصّغير رأسه وقال: وعايشة!

- ولك وين رايح؟

- على الجِمال الكبار.

وكان توق الصَّغير للانحدار لرؤية الجِمال يكبر كلَّ يوم.

صرختْ: أبوك على أبو إمّك على أبو الجمال، قدّامي، يا لّلا.

ولم يكن الصغير يحبّها، وكانت هذه المناسبة كافية ليبغضها أكثر.

---

[5] - بوله!

***

صرختْ في وجه عائشة: تريدين أن تُضيِّعي الولد؟ ألا يكفي أنكِ غير قادرة على إنجاب أخ له؟

بكت عائشة وقالت: هذا الشيء من الله يا عمتي.

فردَّت العمَّة: الله لا يقول إن على الرجل أن يعيش ويموت وليس له إلا ولد واحد، لو حدث للولد شيء لا سمح الله، هل يعيش أبوه عمره بلا سند؟!!

***

كان الصغير يريد أخًا، قال: لا أريد أخًا.

أمسكت العمَّة بطرف قميصه، هزّته، انكشفت مؤخّرته وحمامته: تردُّ عليَّ يا مفعوص؟

أخذه عمّه وابتعد به إلى غرفته الضيّقة، وهناك كان يمكنه أن يجلس صامتًا ويكرهها أكثر.

***

في المرّة الأولى التي رآها بعد مولده كانت تشقّ الضَّباب بثوبها الأسود، بحريره الأسود، كلّ النساء يرتدين الملابس السّوداء، صبغن ملابسهنّ حِدادًا بعد الخروج من البلاد، ولأنّ قليلًا منهنّ كنّ قادرات على شراء ثياب جديدة، فإن الأسود بقيَ على سواده، وسيمرّ وقت طويل قبل أن تبدأ الألوان بالتفتّح ثانية، بخجل في البداية، ثم باندفاعة مُزهرة في النهاية، ستكون الأحوال قد تغيّرت والأمل قد عاد!!

كانت تشقّ الضّباب، بيدها ابنتها الوحيدة التي لم يعش لها سواها..

تلِد، ويموت الطفل حالًا، ثم تلد ويبدأ الحبْوَ، ثم يموت، وتلد فيقف على قدميه العجينيَّتين ويدرُج خارج العتمة ثم يموت. كانت امرأة (مَقْبوعَة)، أي تلك التي يموت أولادها بعد الولادة.

لم تُبقِ شيخًا إلاّ وطرقتْ بابه، تجمعّت الحُجُبُ في عبِّها، حيثما انتقلت، انتقلت معها. كلّ طلبات الشيوخ نفّذتها، وظلَّ أولادها يموتون.

مرّرَتْهم واحدًا بعد آخر من ورقة مستديرة مُفرغة من وسطها، على أطرافها كتابات لم تفهمْها، مرّرَتهم من عبِّها تلقّفتْهم من أسفل ثوبها، طوت الأوراق

وعلّقتها في أسرَّتهم. وضعتْ ضفدعًا مجففًا في وسائدهم. سَمَّتْ أحدَهم "ذيب" علّ "التَّابِعَة"[6] تخشاه وأطعمته مسحوق عقرب!

خرجتْ من بيتها تاركةً ابنتها، فالتابعة لا تحبّ أن ترى معها ولدين، تغيب أربعين يومًا، فلا يعود الوليد تابعًا لها بل يكون تابعًا لأبيه، وتعود مطمئنة فيموت!

وعاشت ثريا، ابنتها ذات الوجه الأصفر، الصّامتة أبدًا، التي ابتلع القطّ لسانها.

كانت تشقّ رماديَّة الضباب بثوبها الأسود. والصغير الذي شدّته أمّه بخيط كالدجاجة، لمحها من شقّ الباب. هل كانت تلك هي المرّة الأولى التي يراها فيها؟ لا.. فزعُه قال له: لا.. فارتدّ للوراء متلجأ لأمّه، ألقى بنفسه في حضنها. الآن عرف تمامًا لماذا لم يحب تلك المخلوقة - عمّة أبيه وابنتها الصفراء. إنها هي، هي التي كانت تريد أن تُبقيه في الدّاخل، هي التي شدّتْ على رأسه ودفعتْه. قال لأمّه كل ذلك، لكنّها لم تصدِّقه.

***

- هل تعتقدين أنك حامل.. خوفي أنك منفوخة لا أكثر، هل هناك امرأة يمكن أن تحمِل وهي هكذا كالعصا؟! كانت تقول لعائشة قبل أن تلد الصغير.

أما هي فكانت سمينة، قصيرة، وجهها جافّ لا تضحك، ولا تفتح فمها إلّا لتلعنَ الدنيا وحظّ ابن أخيها، عليّ، الذي ابتليَ بزوجة سمراء "شروة ليل". تصرخ في وجه السماء: والله يا ربي "عليّ" يستأهل امرأة أحسن من هذه الجلدة والعظمة!

وتنفث في وجه عائشة كلَّ أمنياتها القاسية: إن شاء الله يكون بطنك منفوخًا ونزوِّجه (ثريا).

الصغير قال لأمّه: هل تعرفين لم جئتُ مبكرًا؟!

- من أجل حنّون والعصفور، قلتَ لي ذلك ألف مرّة.

---

[6] - التابعة: في الاعتقاد الشعبي، كائن غامض وكل ما يعرف عنها أنها تحب إدخال التعاسة لقلب الأم من خلال إيذاء الأطفال وإماتتهم.

- لا، هناك سبب آخر، كنت أريد أن أثبت لأم ثُريا أنني ولد، ولستُ نفاخًا.

لن يحدّثها الصغير بعد ذلك، سينعقد لسانه كلّما حاولتْ ملاطفته ولكنّه سينفجر فجأة بكلماته المعوجّة الحادّة.

- أنت كذابة، أنا أعرف أنك كنتِ تريدين أن أموت،كنت تدفعينني للداخل حتى أكون نفاخًا، أنا ولد، فهمتِ، لستُ نفاخًا.

ارتعدت أم ثريا: من قال لك هذا الكلام؟

- من قال لي؟ أنا قلته لنفسي،أنا الذي رأيت، أنا لستُ أهبل.

طرقتْ صدرها وبدأتْ تولول: جُنَّ الولد.

قال: أنتِ المجنونة.

صرخت عائشة: عيب. وهوت صفعة على عنقه. لم يبكِ، لم يتحرّك.

- أنت المجنونة، أنا لا أنسى.

والتفتَ إلى أمه: أنتِ اسكتي، أنت لا تعرفين شيئًا، كنتِ تصرخين فقط، ولا تدرين ما يحدث!

جذبته أمّه للخلف، جلس بجانبها، اشتعل صدر عائشة قلقًا على ابنها أكثر، التفتَ إلى أم ثريا وقال: ها، أنا كاشفِك. فظلّتْ صامتة!

***

- أثبتَّ أنك ابن أصل، لكن إلى متى ستنتظر؟ قالت عائشة.

- كلّه من عند الله. قال عليّ.

وأم ثريا قالت: الله لا يقول لكَ ارمِ نفسك إلى الهاوية.

صمتتْ، ثم نطقتْ كلمتَها التي أوشكت أن تصدأ من فرط ما ظلّتْ هناك في جوفها.

- سأعطيكَ ثريا.

كانت ثريا قد اختفتْ في الشهور الأخيرة، فبدا ذلك كما لو أنه يجري إعدادها لأمر يتجاوز عمرها.

- ثريا نخطبها لعيسى.

انتفضت: أعوذ بالله، عيسى، عيسى لم يزل يبول على نفسه.

- عيسى أكبر من ثريا يا عمّتي، نسيتي؟

- لكنّه لا ينفع زوجًا.

- أنت تدرين أنه ينفع، وأنه الآن أكبر من زوجكِ حين تزوَّجكِ.

***

- أهلًا، أهلًا، من زمان لم نركْ، حمدًا لله أنك تذكَّرتنا!! قال عمُّ ثريا.

مزهوًّا داخل قمبازه السُّكري كـان، بغطـاء رأسـه الأبـيض، بالعبـاءة التـي انـزلقت من فوق كتفه الأيسر: هؤلاء لم يعرفوا طعـم الفقـر، هـؤلاء لم يفقـدوا بلدًا، بلدهم في أحزمة نسائهم وصدورهن كان، ذهبًا يلمع لا يمسّه حِداد.

- جئناك طالبين ثريا. قال أبو عليّ.

- تطلبها لمن؟ لعليّ أم لعيسى؟

- لعيسى. قالها عليّ بتصميم.

- ولماذا ليس لك؟!

- أنا متزوِّج ولي ولد، والحمد لله.

- وإن قلنا إننا لا نريد إعطاءها لعيسى؟

- ابنتكم عندكم، وابننا عندنا.

- أجئْتُكُم. قال العمُّ.

- يخْلِفْ عليك.

صمتوا قليلًا: والـمَهْر؟

- لعليّ نكتفي بسبعين دينارًا، لعيسى مئة!!

عادت السحابة السوداء تخيِّم فوق الوجوه، مال عليّ إلى أبيه، همس في أذنـه. مدّ الأب يده، قال: نقرأ الفاتحة.

- لم تقولوا مَنِ العريس!

***

يتنصَّتن في الخارج، وقفن:

أم ثريا ونساء أخريات؛ والكلمات معلَّقة فوق ألْسِنَةِ الرجـال في الـدّاخل، في لحظة طالت.

- لعيسى. قال عليّ.

ركضتْ ثريا بعيدًا، تعثَّرتْ بثوبها الفضفاض الذي حبسوها فيه. ركضتْ، وركضتْ أمّها خلْفها.

تحت شجرة تين عالية أدركتْها، شجرة تمتدُّ أغصانها مثل أصابع ساحرة بملايين الأيدي، وضعتْ رأسها على كتف أمّها، وصاحتْ صيحتها التي لم تصِح مثلها أبدًا: بدّي أتجوّز عمّي عليّ، مش عيسى!!

***

من الغور جاء عمُّ ثريا، حين لم تعد أم العروس، كما هي العادة في اليوم التالي لتُطمئن الجميع أن أمور العرس تمت بخير. صعد الجبل غاضبًا، وحين وصل كان يلهث وأنفاسه مقطوعة.

- سألتم عيسى؟!

قالوا: لم نسأله.

- وأنتِ؟ قال لأمّ ثريا. سألتِ البنت؟

- سألتها فقالت لي: ما دخلك أنتِ.. أنا وعريسي حُرَّين!

- عال العال، والله. قال العمّ.

***

يومان قاسيان مرّا على عائشة، تتذكّر ما دفعوه مَهرًا فتلطم خدّيها:

- يا مالنا، يا تعبنا، يا شقانا.

فتقول أمّ ثريا: لستِ خائفة على مالك وتعبِك وشقائك، أنتِ خائفة ألا ينفع عيسى ويأخذها عليّ!

***

بكتْ عائشة، خرجتْ حافية تركض في الليل. دقّتْ باب غرفة العروسين، أطلَّ عيسى، كما لو أنه ينتظر من زمن، جاهزًا، ومستعدًّا لأيّ طارئ: يرضيكَ يا عيسى أن يحدث بي هذا؟ يرضيك أن يتزوّج عليّ ثريا؟ يرضيك؟ ألم تنم على وسادتنا، ألم أكن أمّك في غياب أمّك، حين رمتْكَ في وجوهنا امرأة أبيك؟

قال بخجل: أنا غير قادر على أن أكون زوْجها، ربما عليّ يعرف!

خرجتْ عائشة، أحسّتْ بسائل لزج على قدميها، التفتتْ، كان دمًا أحمر يلمع في الليل. لكنّها حين اتّجهت لغرفتها ثانية اكتشفت أنها لا تستطيع

الوصـول، لأن الغرفـة انتقلـتْ وأصـبحت بعيـدة، ظلّـت تـسير طـوال الليـل باتجاهها، كلّما اقتربت، ابتعدت الغرفة، ولم يكن هناك جبال،كانت هناك سهول واسعة، بحجارة سوداء، تعبتْ، نامت، وحين استيقظت، وجـدت أنهـا لم تـزل نائمة، لم تفهم ما يحدث، كانت تريد أن تمشي، ولم تستطع.

***

من ثقب أحدثوه في الجدار راحوا يراقبون، العروس تتقافز من ركـن لآخـر هاربة من العريس، والعريس يطاردها. دجاجة وأفلتتْ في بريّة. وأحيانًـا، تُغِـيْرُ عليه فيهرب منها، ولم يطل الوقـت، انتـصبتْ في منتـصف الغرفـة، يـداها عـلى خصرها وقالت:

– بصراحة، حتى لو متَّ، إن لم تدفع خمس لـيرات مـن النُّقـوط فلـن أفـكّ السروال.

عمّها سمع ذلك فانقلب على ظهره ضاحكًا.

سألوه: ماذا؟!

قال: (جُر البنت من كمِّها برجَعْ مرجوعها لأُمّها). تذكرين ما الـذي فعلتِـه مع زوجك ليلة دخلتك؟ سأل أم ثريا.

ولم ينتظر أجابتها، لأن وجهها احمرَّ، وتذكروا كلهـم، تـذكروا الأغنيـة التـي انتشرت في القرية والقرى المجاورة، وربّما وصلت المدن:

لَزْرَعْ وردة عا إيدي   يا حلوةْ يا أمّ الجيدِ
وازيِّنك في العيدِ   بَلكي تفكّي ها السروال
لَزْرَعْ وردة عالكزازْ   وأسافر على لحجاز
واجيبلك برميل الكازْ   وأحرق دكّةْ ها السروال
لَزْرَعْ وردة ع السِّلَّمْ   بحبِّك وألله بيعْلَم
فلوسي بجيبـي أسلَمْ   إنْ شا الله ما تفكّي السروال!

غضبت أم ثريا، طرق العمّ الباب، أطلّ عيسى قال له: يا عمّي أعطيها خمس ليرات وفُكنا من هذه السِّيرة.

وعندما فكّهم من هذه السِّيرة لم تقبل أن تنام معه والسِّراج مضاء.

وأطلقت غنجتها الأولى: بستحي!

****

دخل الشتاء عاصفًا وباردًا.

التهبتْ لوزتا ثريا، ولم تكن قد استسلمتْ لنصيبها في الزواج.

- ماذا تفعلين هنا؟ اذهبي وابحثي عن امرأة تُدَلِّكُ لوزتيَّ. واحضري لي بيضًا مسلوقًا آكله فأشفى!

صعدت عائشة الجبل خائفة، تدعو الله ألا يصيبها مكروه فتموت.

حملت صغيرها وخرجت، فلم تكن تطمئن عليه في حضور ثريا، ثريا التي ما إن تراه حتى تصرخ في وجهه: أنتَ، أنتَ السبب.

***

- ما الذي كنت ستفعلينه لو أخذتُ عمّي عليّ؟! قالت ثريا.

- لقد طقّ شرش الحياء. ردّتْ عائشة.

ولم تكن ثريا بحاجة للسان: استحي وارحلي، الحياة ميتة فيكِ، وأنا أسألك هل هذا الصغير ابنك فعلًا؟

- ليس وحده ابني، هناك آخر في بطني.

أغارت ثريا على عائشة..

لم تتجّه بيديها لشعرها لتنتزعه، أو وجهها لتصفعه، إلى رحمها انطلقتْ إلى الحياة الجديدة التي ستُطوّح بثريا وأمّها إلى مسافة لا تعودان منها، حيث لن تستطيعا إلقاء عار الجدب على رحمها. زاغت عائشة، حملتْ ابنَها وانطلقتْ راكضة مهرولة، وحجارة ثريا تتطاير خلفها.

***

داخل القفص كان عليّ.

رأته عائشة من بعيد.

حاولت أن تومئ إليه، لم ينتبه، شرر لحام الأوكسجين يتطاير حوله، أبو إسماعيل يلعن الدّنيا ويلعنه، والصغير يرى الكائن يتحرَّك في قفص غير قادر على الخروج، أبو إسماعيل يعمل، وعليّ يُسند القضبان الحديدية من الداخل، براكين شرر تحاصره، وعائشة تشير، والصغير يشير. ولم يكن لعليّ عين ترى أو أذن تسمع، لم يكن له غير أن يُغمض عينيه ويلعن ذلّ لقمة العيش. وأبو

إسماعيل يُصدر أوامره لتثبيت قضيب جديد، وعائشة تشير، يمنعها حياؤها من التقدّم.

هنا تتغيّر المعايير، تنقلب، كان بإمكانها، في فلسطين، أن تأتيه في أيِّ حقل برغيف خبز وحبة بندورة وقليل من الملح؛ ما كان بالأمس عاديًّا، يُصبح عارًا هنا.

هل يسكن العار المدينة أم أنه مختبئ فيهم؟!

عليّ في القفص، أبو إسماعيل يلعن، ويعمل، وعائشة تفقد صبرها، عمّال مكاتب السفريّات في أول طلعة "المُضْدَار" يحدّقون، وهي تشير بلا جدوى. أمسكت طرف غطاء رأسها بفمها، اختفى نصف وجهها خلْف الأبيض الرَّقيق. وأبو إسماعيل يُعدِّل قامته، وعليّ يتحسَّس أرضية القفص باحثا عن قضيب، وعائشة تتقدّم، ينتبه أبو إسماعيل، المرأة تقصدهم، عرفها.

- عليّ، هذه زوجتك!

وقت طويل كان يلزمه حتى يرى، حتى يستردَّ بصره من غشاوة الضوء السّاطعة السّميكة والرَّماد الحديديِّ المتطاير، انتفض كأنّ أفعى فاجأته، حاول أن يقف، اصطدم رأسه بحديد القفص، لم يقلْ آه، وحينما وجد الباب، اكتشف، واكتشف معه أبو إسماعيل، أن الباب ضاق إلى درجة لم يعد بإمكانه الخروج منه، بحث عن فسحة أوسع من الباب يعرف أنه لن يجدها، انفجر، مثل أيِّ عصفور يجد نفسه فجأة في قفص، تُدمى أجنحته يتطاير ريشه، ولا يكفّ جنون البحث عن تلك الفسحة غير الموجودة. يعض القضبان، ينفجر دمٌ صغير من طرَفَي المنقار، يُلقي بكلِّ جسده على أحد الجوانب، يسقط على أرضية القفص لاهثًا. والصغير يحدّق ويبكي، وأصحاب مكاتب السَّفريات وعمّالها يقطعون الشارع ليملأوا أعينهم بالمشهد، وأبو إسماعيل يرتبك، وانتفاضة القهر في عينَيْ عليّ تزيد ارتباكه.

لو يهدأ قليلًا، لو يهدأ.

عائشة تنظر بعينين ميتتين إلى زمن كامل لا تدري متى ابتدأ، أو متى ينتهي.

أحد الرِّجال يهزّ أبا إسماعيل، يفيق، يناوله "فَرْد" الأوكسجين، يُشعل عود ثقاب، يلتمع أمام وجهه، تندفع النار برتقالية، تمتدّ اليد وتُعدِّل مفتاح فوهة النار، فتصبح زرقاء.

عليّ الآن هادئ، وهادئة عائشة، والصغير يبكي، لكنه فجأة يهدأ، كما لو أنه اتخذ قرارًا.

يبصقُ رجل على الأرض.

- تفو على أبو هيك عيشه!

حين أصبح بإمكانه أن يخرج لم يعد قادرًا، ولم يدر إلى أين يُفضي الباب، الباب الذي اتَّسع، لم يدر أين يبدأ القفص، وأين ينتهي ليحبو، ويخرج. ظلَّ ساكنًا هناك، تململ الصغير، أنزلته أمّه. خطا خطواته اليتيمة المرتبكة، دخل القفص، شدَّ والده، والده الغائب، شدَّه كما لو أنه يدعوه للاستيقاظ، استجاب الأب أخيرًا، زحف إلى جانب صغيره، صغيره الذي راح يقوده بعيدًا خارج القفص، وعائشة تسير خلْفهما.

واختفت ثُريا من الجبل..

اختفى عيسى..

قطعا النَّهر غربًا، إلى "بيت لحم".

38

(مخيم الوحدات)

الشتاء الأول لا يُنسى..

كأنه شتاء العالم الأول.

مُعلبات الإسمنت تنتشر على مسافات لا يحدها نظر، ولا يدركها خيال، لعبة التّكرار في الغرف الصغيرة، في المساحات الضيّقة؛ الأرض الطينيَّة التي ستُتعِب الأقدام طويلًا قبل أن تشقّ دروبها فيها.

الأرض جرداء، سوى تلك الأشجار المتناثرة حول مستشفى "الأشْرَفِيَّة".

رماديًّا ينتشر الصباح بين الغرف، ضباب كثيف يلفّ المدى. قال الصغير لأمّه وهو ينظرُ للدنيا من شقّ الباب:

هكذا كان الوضع في بطنك!

- شو يعني؟

- عندما كنت في بطنك كان الجوّ هكذا،لم أكن أستطيع الرؤية بوضوح.

ضحكت، قالت: الله يجازيك، لا أنا عارفة أصدقك ولا عارفة أكذبك!

***

تدفَّقوا من كلِّ الجهات، تداخلوا في غرف تتفاوت أحجامها تبعًا لعدد أفراد الأُسرة، ولكنها ضيّقة دائمًا، رقيقة الجدان، حتى أن المَثل المعروف (الزَّعلان يضرب رأسه بالحيط) اختفى. رأسٌ واحدٌ يمكن أن يودي بغرفة.

المخيّم..

والشتاء يتقدّم، يتطاول بين البيوت صقيعًا، ينتشر. كلّ ما لديهم من ملابس فوق أكتافهم،كأنهم يرتدون خزاناتهم. فَتْحُ الباب تبديد لذلك الدفء الذي

جمعته الأنفاس، ودائما هناك خِرْقة بالية عند العتبة لمنع الهواء من التسرُّب، وكذلك الماء.

لا طفولة بلا أزقة وشوارع ضيّقة، ولم تكن هناك أزقة أو شوارع. البرّ هو المساحة الوحيدة الحاضرة أبدًا. وهناك شرقًا، في المسافة الممتدة بين آخر غرفة للمخيّم إلى خط السّكة الحديد، مرورًا بوادي "الرِّمَم" والكسّارات، هناك يكتشفون أنفسهم.

والشتاء، سهل أحمرٌ منقوع بالغيم، دخوله عودة قاسية، يُطْبِقُ الطينُ على الأحذية، طين بقبضات خفيّة عملاقة يقبض على الأرجل، يُعرّيها، وقلّة كانوا أولئك الذين يمتلكون الجزْمات البلاستيكية التي تصل للرّكب.

حركة ثقيلة بطيئة يزرعها الشتاء في الناس والأشياء. ينحدر الرجال باتجاه قلب المدينة عبر منطقة "الأشْرَفِيَّة"، شارع "بارطو" توفيرًا لأجرة الباصات.

وعليٌّ ينفي تهمة البُخل التي يتَّهمه بها الرجال، لأنه يمضي إلى عمله على القدمين، وهم في الحقيقة يسلكون طرقًا أخرى، خوفًا من أن يرى أحدهم الآخر.

عليّ ينفي، ويؤكِّد لهم: انعقدت قدماي من الجلوس الدائم في مصنع السجائر، وعليَّ أن أحركهما قليلًا.

وهو يعرف، وهم يعرفون، أن لا راحة في المصنع ولا راحة في الطريق إليه.

***

انتشر النهارُ الغامض سرًّا لا يدركه أحد.

قال: لماذا لا يدخل الضّباب إلى الغرفة ويملؤها،فهو في كلّ مكان؟

- رُدّ البابَ، قتَلَني البرد، وهذه الريح.

قال: الريح! أين الريح؟ إذ كانت موجودة تعالي وامسكيها!

- ردّ الباب.

قال: وهل يعرف أبي الطريق إلى البيت!!

- اطمئن، يعرفها.

في الخارج انتصبَ أحد الأطفال، أكبر سنًا منه، كان يُشير إليه، يرى يدَه الملوِّحة، بصعوبة، كاستغاثة، وفم الضباب يبتلع جسمه.

تذكّر "خليل" الذي لم يأتِ، حنّون التي اختفتْ، حنّون التي تلاشت، التي لم تعُد واضحة، كما لو أنها سكنت الضّباب.

لوَّح لساكن الضباب، ولوَّح ساكنُ الضباب له.

قال لأمّه: سأخرج.

قالت: إلى أين؟ للسينما؟

ولم يكن الصغير يعرف السينما، لذا أكّد لها أنه لن يذهب إلى السينما. امتدَّت يدها، قبضتْ على كتفه، ولم تكن مضطرة لأن تقوم من الزاوية للوصول إليه، فالغرفة صغيرة، جذبتْه من كتلة الملابس الغريبة العجيبة التي يرزح تحتها، فإذا به إلى جانبها.

قالت: أختك راح يُقتلها البرد.

وبدأت أخته فصل بكائها. كانت تبكي، ما إن يتذكّر أو يذكُر أحد اسمها، هكذا كان يُحسّ الصغير، كأنها تريد أن تنسى وجودها هنا، والعالم يُصرُّ على تذكيرها بهذه المصيبة! تضايقه أمّه، يهدّدها: سأنادي عليها باسمها. وكانت أمّه تعرف أن فصل البكاء جاهز في رئتيها دائمًا.

فتقول: دخيلك، ما صدّقت وهي تنام.

سأنادي.

وتغضب: رُوْح، في ستين داهية!

كان رقم "ستين" هو أكبر رقم سمعه حتى تلك الأيام، وكان يقول: لماذا لا تقول في "أربعين" داهية؟

الصغير نفسه وجد أن "ستين داهية" أحلى وأقوى.

***

كان يسألها:

- كل الأولاد لهم أخوة، لماذا لا يكون لي أخ؟

فتبكي.

وينسى طويلًا سؤاله، إلى أن يعاوده ثانية.

فيصرخ: لماذا لا يكون لي أخ؟

فتبكي.

عمة أبيه قالت: تريد أخًا؟

قال: نعم.

قالت: نُـزوِّج أباك.

- امرأة غير أمّي يعني؟!

- آه.

فيصرخ: سأكسِّر رأسها بالحجر إن جاءت!

تفرح الأمّ. تمتعض العمَّة. ويتأمَّـل الأب المـشهد كلّـه ويظـل صـامتًا، الأب الذي كان يتمنّى أن يأتيه ولد ويسمّيه "جمال".

***

أشرقت الشمس فجأة. ترامت السماء صافية. خرجت النساء لنشر الأغطيـة والملابس التي تسلّل إليها الماء من السّقوف والشبابيك الخشبية الصغيرة.

وأشار الفتى إليـه ثانيـة، رآه بوضـوح، رأى وجهـه، أكـبر منـه سـنًّا، عينـاه تلتمعان ووجهه حاد كسكّين. أمّه مشغولة بأخته كانت. انـسلّ، ركـض الفتـى أمامه باتجاه البرّ، البرّ الذي لم يكن يفصل بيته عنه سوى أربعـة بيـوت، وركـض الصغير خلْفه.

توقَّف الفتى عند بركة ماء صغيرة، خـوَّض فيهـا بحذائـه العمـلاق، حـذاء أخيه الأكبر ربّما، لا، حذاء أبيه، إنه أكبر، حذاء جدّه ربما، الحذاء الـذي اختفـى في الماء الطينيّ.

-ستبرد. قال الصغير.

- تعال. قال الفتى.

ولم يفكر طويلًا، نـزل إلى بركة الماء، رافعًا أطراف الجاكيت الرِّجاليِّ الطويـل الذي يرتديه. بدأ الفتى بتحريك رجليه، تناثر الماء. حاول الـصغير أن يقـول لـه أكث من مرّة: كفى. لم يستجب. دخل الصغير اللعبة.

ضرب الماء بقدميه، راح الماء المحمّل بالطين يُغطّي ملابسهما، تصاعد، وصل وجهيهما، ولم يبق من وجه الفتى غير عينيـه البرّاقتـين، ضـحك الـصغير عليـه، وكان الفتى يضحك. لكن الصغير لم يعرف السبب إلّا بعد أن رأى وجهه بعيني أمّه.

تجلّدتْ قدماه، سحب نفسه بصعوبة وخرج، سعيدًا بما حـدث، رغـم الـبرد الذي شقّ عظامه.

وقف أمامها.

قالت: مَنْ؟

قال: أنا!

صرخت: مَن الذي عمل فيك هذا؟

قال: رحتُ إلى البحر!

قالت: أيّ بحر، هل توجد هنا بحار؟

قال: آه، هنا، بجانب الدار!

***

ولم تكن لعائشة دار.

حين هبطوا التلال قاطعين البراري الحجرية ووديانها، وعلى أكتـافهم عـبء أيام قادمة مالحة، ودقائق معجونة برمل خشن تتفتّـتُ بـصعوبة تحـت أسـنانهم، وهم يحاولون قطع الزّمن بالكلام. رأتهم من بعيد، عرفتْ أن حظّها رغم سـواد الأيام التي تعيشها الآن يفلق الحجر.

قالوا لها: إنّه عليّ.

قالت: إذن هو ذلك الذي كان يـسير متخلّفًـا عـن أهلـه خطـوتين. خطوتـا الخجل دلّتا عليه.

فرحتْ عائشة.

وفرحت مريم الشقراء. لكن قلْبها أوجعها. طلقة طائشة مرّتْ منـه. ومـضة لاذعة زرعت الظلام. وتساءلت: هل يكون قُتِل؟ وقالت لعائـشة: ربـما قُتـل في المعارك، لم يكن هناك شيء يمكن أن يؤخِّره سوى أن يكون استشهد.

وبكت مريم الشقراء كبنات الإنجليز، تفقّدت رسائلَه التي كانـت هنـاك في عبّها، الرسائل-الموقوتة، الأخطر من القنابل لو أنها اكتُشِفتْ.

قالت له: آه لو أنك لا تعود لارتداء البدلة العسكرية، البدلة تخيفني حتى لـو كانت عليك.

مُنسّلًا من وحدته المُرابطة قرب قريتها، مُعتمرًا كوفيّة وقُمْبازًا، ويفضحه مسدّسه العسكري بجرابه الكاكي الذي يتأرجح عند خصره تحت الجاكيت المُقَلَّم.

لم تعترف مريم لعائشة أختها وحبيبتها أنه مسّها. لو اعترفت لأغميَ على عائشة ربّما. لكن عائشة التي كان يمكن أن يُغمى عليها، كانت تعود لإطلاق سؤالها كلّما انفردتا: باسِك؟!

- يا خرابي يا عايشة، ما هذا الكلام؟!

ثم تسألها ثانية: باسِك؟

وتعبُّ عائشةُ كميّات لا توصف من الهواء في انتظار الجواب، ثم تُطلق تنهيدة عميقة كما لو أنها نجت من كارثة.

- أتريدين أن أكذب، لا والله.

***

فوق مدرَّعته الترابيّة، بيد على رشّاشها وأخرى تلوّح لسكان القرية مرَّ، حين لم ير من كلِّ تلك الجموع سواها، حين لم تر سواه.

حين حملت تنكة الماء مع بقية النساء والبنات وصعدت التلّ باتجاههم.

مريم التي ظلّت تخاف على شَعرها.

مريم التي لم تحمل تنكة ماء من قبل، حملتْها الآن وصعدتْ. وحين رأته، حين رآها، عرفتْ أنه هو، لا غيره، ذاك الذي حلمت به.

التقت العيون. اندفع باتجاهها دون خلْق الله من البنات وأنزل التنكة عن رأسها، وهناك لمح قطرات الماء تنساب على وجهها، تبلّل شعرها وتنحدر على عنقها خيوطًا تلتقي في مجرى واحد في النهاية، ينحدر بجذل ما بين نهديها، ويختفي، كأنها خارجة من بحر: حوريَّة!

هكذا همس سلمان لنفسه، هو الذي لم يرَ بحرًا في حياته. وتساءل: أي مصير مذهل ذاك الذي ينتظر خيط الماء؟ ولم يعرف كم اشتهاها إلاّ حين وجد نفسه بعد منتصف الليل، بعد ثلاث ليال، يطلب من أحد الحرّاس أن يذهب لينام لأنه سيحلّ مكانَه. وبعد دقائق وجد يده تمتّد إلى جسده مُطلقة دفقةَ ماء الحياة

اللاهبة التي سيحسُّ دائما أنها فضحته، وأنها كانت مرئية كقوس طلقات تنوير!!

***

اتّسعت الخيمةُ أكثر، حين غادرتها عائشة.

وفرِحَ الجميعُ بذلك.

كانوا يخشون أن تظلّ الخيمة لها وحدها في النهاية، لكنها تُخَلِّفُ الآن أختَها الأجمل. تتزوّج قبلها. مَن كان يصدّق؟

عائشة كانت تدرك ذلك. ولذا، قرّرتْ بينها وبين نفسها ألّا تعود إلى بيت أهلها إلا زائرة، مهما حدث، وأن زواجها يجب أن يكون الأهدأ والأحسن.

باتت عمّة عليّ في الخيمة تلك الليلة. امرأة مُحْكَمة، قوية كوتد، وفي صمت انحنت النساء وحَنَّيْنَ قدميْ عائشة، يديها. والعمَّة تُطلق زفرات نادبة، كلّما انكشف جزء من ذراعي عائشة أو قدميها:

- هل هاتان يدان؟ والله إنّهما عودان.

وترفع النساء ثوبها لإزالة الشَّعر عن ساقيها. فتصرخ: يا ربي، هل هذه أرجُل امرأة؟!

الشقراء الفَرِحة بزواج أختها. وبمكانها في الخيمة، وباحتمالات عودة سلمان بين لحظة وأخرى من موته أو حيث هو، انفجرتْ. مريم الشقراء انفجرت: يكفي ما سمعناه وإلا سأنادي أبي، متى كان للنساء كلمة في هذه الأمور؟! الرجال حكوا والرجال وافقوا وهذا لا يخصّك؛ (أنا راضي وهو راضي، وإنت ليش زعلان يا قاضي) وإلاّ، فكلّ واحد عند أهله،(ويا دار ما دخلك شرّ!).

صرخت العمّة: وهل نحن الشرّ؟!

هبّت الشقراء ثانية: الشرّ هو من يريد الشّرّ.

بكت عائشة، بكت قهرًا. كان الليل طويلًا تلك الليلة،حتى أنها أحسّتْ أن شروق شمس الصباح التالي كان أهمّ شيء حدث لها في حياتها.

بحثوا عن جوارب نسائية لها في "بيت لحم"، لم يجدوا. قالوا: تلبس من جوارب أخيها، فلبست!

***

وبلا طنّة أو رنّة مرَّ العُرس.

وتحت قوس من الأغاني المكتومة في الصّدور المحاطة بالبؤس تقدّمتْ عائشة باتجاه غدها، وظلتْ تصعد الجبل إلى أن قالوا لها: هذا بيتكِ.

قالت في نفسها: أحسن من الخيمة.

أكبر مغارة رأتها في حياتها كان البيت. سوداء في الدّاخل بفعل دخان النار التي أُوقِدَتْ ولم تَزل. وفي الزوايا الأكثر إعتامًا، كانت هناك صرر من ملابس وأغطية رثَّة.

نظر أبو عليّ إلى زوجته وقال: الليلة ننام في الخارج.

قالت: وعيسى؟

سألت، وكأنّ قلبَها يتقطَّع عليه، هي التي تمنّتْ أن تنشقّ الأرض وتبتلعه لترتاح منه.

قال: وعيسى ينام في الخارج معنا.

قالت: وماذا عن البقرة والحمارة والدّجاجات؟!

قال: في الخارج.

قالت: لا يمكن، البقرة تنام في الدّاخل، هذه هدية أهلي.

قال عليّ: البقرة تنام عندنا، لا يهمنّك!

قالت: هذا كلام العقل.

في صُرّة كبيرة حُشِرتْ ثياب عائشة. ألقاها عليّ في أعماق المغارة، ولم يكن هناك سوى صندوق صغير تضع فيه حليمة - زوجة أبيه أشياءها.

ومرّ وقت.

وجاء صوت حليمة من الخارج قاطعًا: أنا لا أستطيع أن أظلّ هنا إلى ما شاء الله، الليلة سأحتمل، وغدًا، فليبحث عن حلٍّ، ليحفرا مغارة أو يُحضرا خيمة. وصمتت.

- هل تسمع صوت (الواويّات)[7]؟

- هذه كلاب، والصوت بعيد، أجاب أبو عليّ.

- لا واويّات!

---

[7] - الثعالب.

اقترب عليّ متخطّيًا شوكَ الكلام المغروس في أذنيهما، العابر إليهما الظّلمةَ. أمسك عائشة من يدها، جذبها باتجاهه.

- استنّي، استنّى.

ولم ينتظر.

وفجأة دخلتْ حليمة تحمل دجاجتين بين يديها، ألقتْ بهما إلى جوف المغارة، سقطت الدجاجتان عليهما.

عادت حليمة تلوك كلامها القاسي: أنا غيرُ مستعدّة لأن أخسر دجاجتي، إنهما هدّية خالتي!

ارتبك عليّ، ارتبكت عائشة، خشيتْ أن تكون قد رأتهما قريبين إلى هذا الحدّ. لكنّها في النهاية قالت: فَلْتَرَنا، هل نحن نفعل العيب؟!

أبعد عليّ دجاجة استقرّتْ فوق اللحاف، تحاول أن تتبيّن موقعها في الظّلام، وذهبا في نوم عميق.

***

بعد تسعة وثلاثين يومًا من وفاة زوجته، تزوَّج أبو عليّ.

- كنتَ انتظرت يومًا آخر. همسَ له أحدهم.

أجرى حسابات عديد، وإذا بامرأته قد توفيت قبل واحد وأربعين يومًا. لم يقتنع بحساباته أحد، لكنهم قبِلوها على علّاتها.

سأل: من هي الأقلّ جمالا بين بنات البلد؟!

- حليمة.

أجابوا بصوت واحد.

قال: أخطبوها لي. إن امرأة غير جميلة لن تنشغل بنفسها وتنسى ولديّ، وطارت حليمة القَرْعَة فرحًا.

وولولتْ أمّ ثريا، التي لم يكن اسمها أم ثريا تلك الأيام، لأن واحدًا من أبنائها كان قد تجاوز رياح الموت التي تهبّ على أولادها في أول عمرهم، وبدأ يُنقِّل خطواته على المصطبة وفي حوش الدار.

كان اسمه سعدي.

واسمها أمّ سعدي.

مات محمّد، ومات سعيد، مات ربحي، ومات عبد الله، وماتت زريفَة، وها هي تحدّق في سعدي تطرد شبح الموت عن كلّ خطوة يخطوها.

- لعلّ الموت ينساه، الموت الذي لا ينسى، لعلّه ينساه. تقول ذلك وتبكي. إلى أن تزوّج أبو عليّ.

إلى أن قال: اخطبوا حليمة لي.

ولوَلتْ كأنها فقدتْ كل أبنائها تلك اللحظة،ولولت كأنها فقدت سعدي. وظلت تبكي ليلتين إلى أن فقدته فعلًا.

هبَّت إلى عنق أخيها أبي عليّ أنشبت أظافرها فيه، أطبقتْ عليه، وكأنها تُطبق على عنق عزرائيل، عصرته، انتزعتْ طبقات من خدّيه، جبينه، يديه، قبل أن يستطيعوا السيطرة عليها.

ثم أطلقتْ صرختَها الأخيرة: قَتَلْتَ ابني بزيجة النَّحسِ هذه، قَتَلْتَهُ حين أتيتَ بالغراب إلى الدّار!

وهمدت لأيام.

***

فوق التلال الغربية كانوا، عددهم يزداد، يحجبون الشمس بآلياتهم، يومًا بعد يوم. ومع تكاثرهم هناك، أصبحت الشمس تغيب في وقت أبكر مما غابت في اليوم السابق. أوشك النهار أن يُصبح قطعة من فحم منذ الفجر مع زحفهم لتطويق القرية.

- كل ما يلزمنا الرجال الآن.

كان أبو عليّ يقول ذلك، كأنه على ثقة أنه سينجبهم بلهفتِه هذه، وأنهم سيكبرون، ويكونون زنده وسنده خلال شهور لا أكثر.

- الزّيْن ليس مُهمًّا، وعسى أن يرزقني الله منها بأبناء رجال مثل إخوتها، فيكونون لكم أخوة.

وكان عيسى صغيرًا.

***

لم تمهل الحرب أحدًا كي يُنجِب، كي يواصل أحلامه التي بدأها. انفجرت في كل الجهات. وانكسرت آمالهم بجيش الإنقاذ الذي لم يستطع إنقاذ نفسه.

وانكسر أبو عليّ.

رأت حليمة ذلك بوضوح، تمرّدتْ: لم يعد يَقْرَبها، ازداد تمرُّدها. انفجرت في وجهه وهو يطلب منها أن تنتبه لعيسى، عيسى الذي كان على حافة الموت، مريضًا.

- لماذا لا تنتبه له أنت؟ آه يا ربي، آه، لماذا زوّجوني من امرأة؟!

عندها تلقّت الصَّفعةَ الأولى. صفعة لن تنساها. مباغتة كانت وقاسية، دارت نجوم الظهر في عيني حليمة مئات المرّات، ومضتْ، انطفأتْ. عصرتْ عينيها بيديها، وقبل أن تفتحهما رأت عالما يهوي عليها ويدكّ أضلاعها. كان عليٌّ أمامها، عليّ ابن السابعة عشرة متحفِّزًا.

- أنتَ؟!

وانفلتتْ باتجاهه مثل طلقة، عاجلها بصفعة ثانية أشدّ من الأولى، تسمَّرت مكانها، انهالت دموعها، بدأت ترتجف، زوجها يحدِّق في المشهد وكأنه خارج كل ما يحدُث.

- التفتت إليه: أيعجبك أن تهان امرأتك أمامك هكذا؟!

ظلَّ صامتًا.

***

في الصباح، هزّت حليمة رأسها ساخرة بعد أن قَلَّبت الفِراش بعينين خبيرتين:

- ألم أقل إنه لا ينفع لنسوان؟!

عندها، صفعها عليّ.

بكت. لم يتدخّل أبوه: تضربني؟!

وبهدوء قال: وسأكسرُ رأسك.

ثم جاءت أم ثريّا- عمته- جاءت وكأنها تعرف الخبر منذ زمن بعيد.

- لا تلوميه.. وهل هذه امرأة تشتهيها النَّفس؟! قالت لحليمة.

***

بصرَّة كبيرة، وفرشتين ولحاف على كتفيه، هبط عليّ الجبل وخلفه عائشة، بعد أن فقدا الأمل في أن تكون لهما حياة هنا.

لا هذه الأرض أرضه التي يعرفها، ولا هؤلاء الناس ناسه الذين خـرج مـن صُلبهم.

37

لم يعد بمقدور الصغير أن يرى أباه، ذاك الذي يسكن معه في غرفة الأمتار العشرة المربّعة.

قبل الفجر ينحدر مع السّيول إلى المدينة، ويعود وقد نام الجميع.

كم سنة مرّت؟!

كم سنة ستمرُّ؟ وسيبتلع الغياب أيام الجمعة، أيام خلْق الله التي زحف المصنع وابتلعها.

ولكن، أن تكون أجرة يوم العطلة مضاعفة، فهذا يُغري الجميع.

***

ولم يعد لحنّون وجود.

ولكن انتظارها ظلَّ له معنى.

***

- أم خليل بتسلِّم عليك.

قالت أمّه لأبيه في واحدة من الليالي الحالكة. وقبل أن يجيب عليّ: الله يسلّمك.

قفز الصغير من تحت لحافه: شُفْتِيْها؟

- بسم الله الرحمن الرحيم. تمتمتْ أمّه وقد هزّتها المفاجأة: إنتَ صاحي؟ ولم يكن يعلم إن كان نائمًا أم مستيقظًا.

- حنّون... شُفْتيها؟

قالت: لا.

تلك الليلة أتيح له أن يرى أباه، نهض من فراشه، اقترب منه، فوجئ الأب بصغيره: ولَكْ صرت زلمه!!

نفخ الصغير صدره ليبدو رجلًا.

لاحظ الأب ذلك، داعبه: أصبحتَ رجلًا سواء نفخت صدرك أم لا.

- ولكن ليس لي شوارب!

طمأنه الأب: سيكون.

التفتَ عليّ لعائشة، دمعة بعيدة تماوجت في عينيه، سدَّ طريقها بزفرة عميقة.

- هاتي الصغيرة لأراها.

لم تقل إنها نائمة، وإن نومها نعمة من الله لا تريد تبديدها.

فهمتْ، تناولتها من سريرها المعدنيّ. حدّق في وجهها: والله وكبرت!

صمت قليلًا، وكان الصغير يحاول الاقتراب أكثر من أبيه في ضوء المصباح الشّاحب.

- آه لو أراهُ في الشمس! قال الصغير.

وقال عليّ: إن ظلّت الأمور على ما هي عليه، فإنني أخشى ألّا أعرفهما إذا ما رأيتهما في الشارع.

....

صباحًا، كان الصغير يسأل ويلح: أين رأيتِ أمّ خليل؟

- في السّوق.

- يعني في "الوِحْدَات"؟

- آه.

- أين يسكنون؟!

- في المخيّم.

- أين في المخيّم؟!

- في طرفه الآخر.

***

كم طرفًا للمخيم؟ سأل الصغير نفسه، ولم يستطع الإجابة. نحن طرف المخيّم أيضًا، لكنها لا تسكن عندنا!

***

- ضاع الصغير.

ولوْلَت عائشة.

عادت إليها صرختها التي أوشكت أن تنساها.

- ضاع، سيطلِّقني عليّ.

شائعات عن سرقة الأولاد، الاتّجار بدمهم، كانت تملأ المخيّم: ضاع الولد وشربوا دمه.

ولوْلت، ورَجَتْ جارتَها أن يذهب ابنها ليبحث عنه. إلا أنّ الجارة باغتتها: وهل تعتقدين أن ابني أكبر من ابنك؟ إنه أصغر منه!!

- خذي ابنتي - قالت عائشة - سأذهب أنا. وذهبتْ.

***

واسعة هي الدنيا.

هذا ما اكتشفه الصغير، حتّى أنه نسي من كان يفتّش عنها.

وجوه كثيرة.

أناس كثيرون.

صغيرات مثل حنّون.

لكنهنّ غيرها.

المخيّم يمتّد، نسيَ قدميه. التفتَ إليهما صدفة، كانتا ناصعتين بلا طين، يسيرُ على ارتفاع أقدام من الأرض، لم يلحظْ أحد ذلك، لكنّه كان يتزلّج على الهواء بخفّين كبيرين ويرى الدنيا واسعة.

وارتبك.

- دنيا بهذا الاتساع كيف يمكن العثور فيها على حنّون؟

انحدرت أمّ الضوء باتجاه غيابها اليوميّ، أوشك أن يبكي، اختفت الوجوه، اختلطت الملامح، تداخلت، أغلقت الدنيا أبوابها، فعمَّ ظلام مبكر. عندها استدار عائدًا، كما لو أنه يعرف الطريق من ألف عام.

متأخّرة عادت أمّه، عبرت العتبة باكية بشعرها المبعثر، غطاء رأسها المُنْزَلق فوق كتفيها، رأته في الزّاوية، اندفعت إليه، هل ضربته، هل احتضنته؟!

ولم يعرف لماذا تبكي.

***

قال: المخيّم بلا طيور. بلا حنّون.

وبلا أبي.

كان يحدّثني في السّابق. قال لأمّه.

الآن لا يحدثني.

كنت أراه، الآن لا أراه.

وولّى الغيم.

وعاد للشمس مكانها القديم في السماء، مكانها الذي انتُزِعَتْ منه، عرشُها، عاد لها وهجها وحرقة ضوئها الذي يغشي العيون.

وتلاشى الطين..

صرخ: أريدها الآن.. حنّون.

قالت: سآتي بحنّون من تحت الأرض.

ثم التفتتْ إليه بعينيها الشّاخصتين كعلامتيْ سؤال بينهما علامة تعجُّب كبيرة: ولك بتحب حنّون أكثر، ولا بتحبني؟

وأجابت نفسها: شو ها السؤال!

- أريدها الآن.

ولم يكن أكثر تصميمًا من تلك اللحظة في أيّ يوم مضى، فكانت على بوّابة الغرفة، كاملة كقمر يقف على أطراف ثوب أمّه الأسود الطويل.

- تقطَّعت أرجُلنا ونحن نبحث عنكم!

حدّق في رِجْلَي حنّون، وجدهما سالمتين، فرح، طار إليها، دخلت أمّ خليل، انحنت عليه قبَّلته.

افلت من بين يديها باتجاه (حنُّونه)، ابتعدا.

قالت: لسّه زعلان منّي؟

قال: لأ، مش كثير.

وابتعدا أكثر.

على الصّخرة البيضاء المشرفة على مكبِّ النّفايات، جلسا هناك، وبقيا صامتين حتى جاءهما الصوت.

- يا لّلا يا ولاد، يا لّلا.

***

وذهبت حنّون.

لكنها لم تبتعد كثيرًا هذه المرّة.

قال: البعيد هو الذي لا تعرف مكانه!

وقرّر ألّا تكون بعيدة.

تبِعَها عن بُعد، إلى أن وصلت بيتها، لمحته أكثر من مرّة. يحاول الاختباء، كلّما التفتتْ.

فَرِحةً راحت تبتسم وقلْبها ينبض، تَعُبُّ كمّيات كبيرة من الهواء، وتُصدِر تنهيدة إثر تنهيدة، مضاء ذلك كلّه ببريق عينين نشوانتين.

36

داميًا كان الغروب.

في السّماء رفوفُ عصافير الدُّوري، تعبر فضاء السّاحة التّرابيَّة بخط مستقيم. والصغار يُجهِّزون حجارتهم، حشوها في جيوبهم، كدَّسوها عند أرجلهم بعد عملية انتقاء مضنية من بين الحصى.

وشُعَبُهُم المطاطيةُ في أيديهم.

يمرُّ الرفُّ. تنطلق الراجمات الحجرية باتجاه عمودي إلى الأعلى. يتبعثر الرّفُّ، يرتبك، تنخفض بعض عصافيره كالبرق، كأنها تُغيْر على الصغار، الصغار الذين لا يعرفون ما الذي يمكن أن يفعلوه في تلك اللحظة.

ويسقط عصفور.

يتراكض الأولاد باتجاهه، تبدأ المشاجرة، وتأخذ العصافير بثأرها.

- أنا الذي أصبته.

- لا، أنا.

- أنا الذي أصبته.

- لا أنا.

ويأتي فتى من آخر الساحة لم يكن موجودًا، يباغتهم وقد أمسك اثنين من ياقتيهما.

- أنا الذي أصبته، أتكذّبني؟ هل أكسر رِجْلك لتقتنع؟

وبأصابع رشيقة يتناول العصفور من بين أيديهم ويمضي به.

***

يمرُّ رفٌّ آخر، وآخر.

وتبدأ الرِّماية من جديد تتساقط عصافير، وتنجو عصافير، لكنهم لا يجرؤون على العراك أبدًا، خوف أن يسمعهم "سعود الشَّرَّاني" ويأخذها.

***

ذلك الفتى الذي أخذه إلى البحر، اقترب منه.

قال: اسمي سمير.

وكان يحاول القبض على العصفور المتفلِّتِ من يده بصورة أفضل.

- لماذا لا تصنع لك شُعْبَة وتصطاد العصافير معنا؟

تأمّل الصّغير الدمَ الأحمر، تأمّل الكائن المتفلّت.

- حرام. قال لسمير.

- من قالَ لكَ ذلك؟

- أنا قلته لنفسي. العصفور يطير وأنا أمشي، هل تحبّ أن يكسر أحدٌ رِجْلَك؟ سأله الصغير.

- لا..

قال: والعصفور أيضًا. هو يُغنّي، ونحن نتكلّم. هو لا يستطيع أن يقول لك إنّه لا يحبّ أن تكسر له جناحه، لكنّه بدل أن يقول لك ذلك ينزف!

- أنت تتفلسف كثيرًا.

قال: أنا لا (أتفسلف). لم يستطع الصغير نطق الكلمة، لكنّه كان واثقًا كما لو أنه نَطقها بصورة صحيحة.

- أنت عصفور أيضًا.

- نعم؟! قال سمير.

قال: إذا لم تكن عصفورًا فكيف هدّدك سعود بكسر رِجْلك إذا لم تعطه عصفورك؟!

- يعني، أنا جبان.

- لا، أنت أهبل. قال له.

....

وقالت له أمّه: أنت الأهبل. حين أخبرها بالقصة: اذهبْ واصنع لك شُعبة.

....

- خذ، امسِك العصفور جيّدًا. قال سمير.

ولم يكن النـزيف قد توقّف.

- كلّ هذا الدم من عصفور واحد؟ سأل الصغير نفسه، ورفض الإمساك بالعصفور. كيف إذا جُرِحَ إنسان؟!

أمّه قالت: إن أبا خليل غرق في دمه. وأبوه قال: إن كثيرًا من الذين خرجوا من فلسطين عن طريق البحر غرقوا.

سأل الصغير: وهل الدَّم بحر؟

وسأل: مَن أفضل، نحن أم العصافير؟

وكان سمير يرفع بنطاله بيد وإصبعين، حيث الثلاثة الأخرى تقبض على العصفور.

- نعم؟

أعاد الصغير السؤال.

- أنت تتفلسف.

وأمسك رأس العصفور بيد وجسده باليد الأخرى، وبسرعة هائلة، فصَلَ الجسد عن الرأس وألقاه على الأرض، وبقيَ الرأس في راحته مُشرعًا العينين بدهشة مطفأة. انتفض الجسد للحظات.. سكَنَ، وقبل أن ينحني سمير لالتقاطه، راح يُقشِّر الرأسَ، كما لو أنه موزة، ويلتهمه، ويُلقي بالجلد بما عليه من ريش بعيدًا.

- آه. أطلَقَها باستمتاع. هذا أجمل ما في الصَّيد!!

***

ظلّ رأس العصفور يتدحرج بين عينيه.

لم ينم الصغير بسهولة تلك الليلة.

جاءت أمّه سألته: هل تذكُر طعم اللحم؟

مالتْ إلى الأرض التقطتْ رأس عصفور من بين آلاف الرؤوس المتناثرة حوله، قشّرته، أمسكتْ برأس الصغير، حشته في فمه، كما لو أنها تريد معاقبته لأنه كذب عليها بوضع قرن من الفلفل في فمه.

زمَّ شفتيه، حتى أصبحتا نقطة لا تُرى، ثم أشرع فمه في صرخة مدوِّية: لا.

***

مضى الصغار في صيد العصافير متجاوِزين حدود الدّم، حين صبغوا الساحة بالأحمر والريش. ولم تنتبه العصافير، العصافير التي ظلّت تمرّ في فضاء السّاحة كما كانت تمرّ دائما.

حَمَلَ صفيحةً، راحَ يطرقها بكل قوّته، يريد تشتيت الأسراب. لحقه الأولاد. اهتدى لقدميه بسرعة، فرَّ، امسكوه عند طرف السّاحة، ظَهْرُه إلى الحائط، خاف، لكنه تمالك نفسه.

- أنتَ معنا أم مع العصافير؟

صرخوا به.

قال: مع العصافير!

- سنكسر رجلك إذا فعلتها ثانية. ودفعوه فارتطم بالجدار بصورةٍ موجعة. انصرِفْ من هنا، لا نريد أن نرى وجهك. مفهوم؟

لم يُجب.

انزلق الصغير، تكوَّم تحت الجدار، راقب الطيور تتساقط، والأطفال يلتهمون رؤوسها بتلذّذ، غابت الشمس ووجد نفسه وحيدًا في العتمة.

35

ارتفعت الأسوار حول الغرف..

أوشك أن يصبح للمخيّم أزقّة، أزقّة واسعة لمرور الشّقاوات،وحياكة المكائد، أزقة للمعاصي الصغيرة التي تبدأ بتدخين سجائر الملوخيَّة، وتنتهي بدفع بهيمة ضالة نحو ضلالة سِريَّة في عتمة المساء.

عالم يتفتّح في شقائه، وجهاتٌ مصمتة أمام الرّوح، صدئت مفاتيح الدُّور القديمة، وربّما خُلِّعت الأبواب. صدئت الأواني المدفونة في التراب، وصدئت الأيام التي تفصلهم عن البلاد.

لم يُطلّ الأحمر بلونه عبر ثوب كجمرة معتَّقة. لم يُطلّ الأصفر كوهج. وظلَّ الأخضر فرصة متاحة لأحواض النّعناع والريحان وشجر التوت الذي يكبر على عجل، والدَّوالي التي تسبق الأولاد في صعودها للسطوح.

قال سمير: مَن هذه؟

وكان الصغير يمشي إلى جانبها باتجاه الصخرة البيضاء المُطلّة على مكبّ النّفايات.

قال: حنّون. وحاول تجاوزه.. شدّ حنّون من يدها لتسرع.

أسرع سمير: أنا سمير. قال لها.

ثم أمسك الصغير من يده، جرّه بعيدًا، وهمس في أذنه: قريبتك؟

- لا..

ثم تدارك: نعم، ابنة خالتي.

- حلوة. قال سمير.

دفعه الصغير من كتفه بقوة فأوشك أن يقع.

كنت أمزح: قال سمير.

قال الصغير بحدَّة: يعني مش حلوة؟!

-حيّرتني! قال وابتعد.

***

بينهما تلك المسافة الصغيرة الأزلية، التي ترمي بظلّها ثقيلًا لتكون أبديّة أيضًا، المسافة الصغيرة التي لم يقطعها أحد منهما.

صامتين كانا، فَرِحَيْن أيضًا، ببهجة ما تتموَّج تحت الملامح فتجعلها أكثر إشراقًا.

سألها: كيف المدرسة؟

قالت: مليحة.

سألت: أين ذهب صاحبك؟

قال: سمير؟

قالت: آه.

قال: للصّيد.

قالت: لصيد العصافير؟

قال: آه.

صمتتْ وصمتَ.

- أنت لا تصطاد العصافير؟ سألَتْه.

- لا.

وصمتت وصمت.

زمن طويل بلا كلمات مرَّ، لم يوسّع المسافة، وفجأة صرخ سمير صرخة أفزعتْها. كان خلفهما. التفتا. بيده عصفور.

- عصفور بلا جروح، اصطدته بالفخّ.

التمعتْ عينا حنّون.

مدَّ سمير يده إليها: أمسكيه.

لم تدر ماذا تفعل، مدّتْ يدها، سحبها الصغير، وقف، شدّها، وراح يجري بها للبيت.

استندا إلى حائط، وكانت المسافة أكثر اتساعًا. في الدّاخل كانت عائشة مُصرّة على أن تتناول أم خليل العشاء عندهم، ولم يكن زمن العشاء يتجاوز الخامسة أو السّادسة.

- صحيح الطبخة ليست من مقامِك، لكن هذا المتيسِّر.

كانت عائشة قد اشترت عظامًا كما يحدث دائما،وألقتْ فوقها كأسين صغيرين من العدس، ودار العدس حول العظام في دوْرات الغليان المتتالية حتى تَعِبَ فسقط في قاع الطنجرة. ملأتْ صحنًا، تركتْه في الزاوية لعليّ. ونادت: تعالوا، العشاء جاهز.

لم يتحركا، بقيا صامتين.

وفجأة ظهر سمير، في يده قطعة لحم، هي العصفور، نظرَ إلى وجه حنّون قال: هذا لكِ.

خرجت أمّها تستعجلها، وجدتهم الثلاثة وجهًا لوجه صامتين أمام العصفور، وخرجت عائشة: شو في؟!

قال سمير: عصفور أحضرته لها هدية. وصمتَ. أنا آكل العصافير كلّ يوم.

قالت عائشة: خذوا الهدية.

وقالت أم خليل: خذوها.

ولم تُفارق عينا حنّون قطعة اللحم الصغيرة برائحتها التي كانت تهبّ وتملأ صدر الصغير أيضًا.

وامتدتْ يد حنّون.

- اقسِماه بينكما.

تناولتْ يد حنّون العصفور، دون أن تفارق عيناها وجه سمير؛ كانت تخشى أنه يمزح. أمسكته بكلتا يديها، شطرتْه نصفين، فانتشرت رائحته أكثر، ثم انقضَّت عليه بأسنانها تلتهمه. وعندما لم يمدّ الصغير يده، التهمت النصف الآخر. فأحسّ أنها لم تعد تراه، وأنه ليس موجودًا إلى جانبها.

.. صمتٌ.. نهضَ الصغير..

ركضَ بعيدًا. تجاوز الصخرة البيضاء عابرًا مكبَّ النّفايات، باتجاه السَّهل، باتجاه نقاط لم يصلها من قبل.

وسار سمير خلف حنّون. عيناها تلتمعان، ويتبعها عن بعد.

وفي أعلى قمّة الجبل المُطلّ على الكسّارات، المطـلّ عـلى سـكة الحديـد، نظـر الصغير حوله، فرأى بيوت المخيّم البعيدة صغيرة إلى حـدٍّ لا يوصـف، وأحـسّ بأنه وحيد كما لم يكن في أيِّ يوم من الأيام.

34

جاء "اللامي".

هتف الأولاد.

ولم يقصدوا ذلك العصفور التُّرابيَّ الرَّشيق المتطاير بين رؤوس الصخور، الدَّارج بينها قاطعًا المسافات برقّة لا تخدش الرَّمل.

جاء "اللاّمي".

غضب الصغير بداية. اللقب الذي يُرمى عليك سيرتديكَ إلى الأبد. غضب، ولم يدم ذلك طويلًا، حين رأى اللقب يتحوَّل في عيون الصغار إلى حسد.

طفل قال للآخر: أتحسبُ نفسك "اللاّمي" الذي يصطاد العصافير ويُرينا إيّاها، نحن لا نسمع منك سوى الكلام؟

في فراشه تساءل: أنا أصطاد اللامي، فكيف أكون اللامي؟ لا يمكن أن أكون الصيّاد والعصفور.. الفخّ ليس الرَّقبة.

***

تكاثرت الألغاز حول الصغير فجأة، محاطًا بهالة من الغموض كان. الوجه طالع من ضباب، وعلى بعد خطوتين خلْفه تختفي تلال الأسرار.

أحبَّ المسافة فركض، المسافة التي لا تنتهي، ورأى الأرض أجمل حتى من أُمّ الضوء..

ركض، تسلّخت قدماه، وحين رأى الطيور تصعد، تقافز مثل جَدْي فلم ينطح سوى الهواء. خيط ما سرّي لا يراه يثبته بالصّخور. وراح يركض والألغاز آثاره..

***

باغَت (سمير)، حين وقف أمامه بصمت. لم يكن حادثَةُ منذ حنّون، منذ رائحة العصفور وصوت لحمِهِ تحت الأسنان الصغيرة.

ارتبك سمير، وقف جامدًا، تحفَّز كما لو أنه سيتلقى ضربة، لا يدري من أين وفي أية لحظة.

امتدَّت يد الصغير التي كانت مخفيَّة طَوال الوقت وراءَ ظهره، جَفَلَ سمير، وفي يد الصغير ظهر "البُرَّقُ" - الطائرُ الأكبرُ والأكثر اكتنازا من اللامي والكُحْليِّ والحِمريَّة.

ضحك سمير ساخرًا: من أعطاك إياه؟ واسترخت أعضاؤه المشدودة فجأة.

- اصطدته. قال الصغير بثقة.

- لا تكذب.

تحرّكت اليد الأخرى التي كانت مخفيّة بدورها خلْف الظَّهر ولوَّحت بالفخِّ.

- من أين أتيت به؟!

- صنعتُه. قال الصغير.

- أنت لم تلمس فخًا في حياتك، كيف أُصدّقك؟

- لا أريدك أن تصدّقني، ولكن بإمكانك أن تسأل "البُرَّق" إن كنتُ قد اصطدته أم لا!

ارتبك سمير، كيف يمكن أن يسأل "البُرَّق"؟!

وامتدت يد الصغير إلى العصفور تنتزع ريش ذيله، باستثناء الريشتين الأخيرتين من كلِّ جانب. عصفور بعلامة فارقة، وكانت مجموعة من الأولاد قد توافدت، تَحلّقتْ حولهما، تستمع بترقّب واندهاش. حدَّق الأولاد في الطائر القابع بين الأصابع الصغيرة.

أبعدَ الصغير السّبّابة..

صاح طفل: انتبه.

أبعد الوسطى، وأرخى الإبهام قليلًا.

عيناه في عينيْ سميرْ.

ارتفع نبض الأطفال مدوِّيًا في صدورهم، ولم يعودوا قادرين على التَّنفس بسهولة. للحظة تمنّى أن تكون حنّون هنا، لكنه هزّ رأسه في النهاية غير مكترث.

- سيطير!

وأبعدَ إصبعيه الأخيرين عن جسد العصفور.

كانت المفاجأة أكبر من أن يحتملَها الأولاد، حتى العصفور، العصفور الـذي بقيَ بلا حركة مُستلقيًا على جانبه لفترة كادت تكون عامًا في أعين الأولاد.

- عُدْ إلى السَّهل. قال للعصفور.

انتفضَ العصفور، وطار..

تبعته العيون..

لم يفهم أحد لماذا يحدث كلّ هذا، ولكن عينيْ سمير فهمتا.

- مجنون. صرخ الأولاد.

وظلّ سمير صامتًا.

***

مُتنقلًا بين الصخور، يـراه الأولاد عـن بعـد، رشـيقًا، المـسافة بينـه وبيـنهم امتصّتْ وقعَ خطاه فبدا أثيريًّا في أعينهم.

- العصافير تستجيب له، وتُنفِّذ ما يقوله لها.

قال الأولاد.

وحملت ريحٌ خفيفة صفيره النّاعم إليهم..

- إنه يسحر العصافير.

- لا.

قال الآخر.

- يُقال ابن عمٍّ له علَّمه الصَّيد.

-لم نرَ أحدًا يزورهم.

- يُقال إن خاله هو الذي علَّمه.

- لو علّمه، لكنّا رأيناهما في السَّهل.

- لا يتعلَّم أحد كلَّ هذا فجأة.

- هناك سرّ!

- هناك أسرار!

وانقطع كلامهم.

مُنطلقًا رأوه كالسَّهم. كان قد أبصر سحابةَ الغبار الصغيرة، انتفاضة التّراب بفعل انطباق فكّي الفخّ، وصوت ارتطام السِّلك بعظم الرقبة، ركض، ركض، لكنّه لم يصل في اللحظة المناسبة. هل كان بعيدًا عن الفخِّ أكثر ممّا يجب؟ هل كان بطيئًا؟

وصل..

وكان العصفور ميتًا.

عرَف الصغير ذلك، أحسّ به على بعد خطوات، عشر خطوات، تسع، ربّما. انتفض قلبه ومرّت سكين غير مرئية عبْره. هل أبصر سكون الأجنحة؟ أم سمع انطفاء خفقانها رغم سيل الحجارة المتناثرة في خط اندفاعه؟

فوق الفخ وقف.

طويلًا وقف هناك.

غابت الشَّمس.

لم يتحرك الأولاد. كأنّهم أدركوا أن شيئًا كبيرًا يحدُث، لا يستطيعون مواجهته. وعمَّ ظلام. اختفى جسده. وحين فاجأتهم أُمُّه: هل رأيتم ابني؟

هبطوا كلّهم وأحضروه.

لم يتكلَّم لأيام طويلة، لم يقترب من الأولاد، إلى أن رآهم يتسابقون مُتَحدِّيْنَ بعضهم بعضًا.

- من يستطيع الوصول إلى آخر الشارع ويعود إلى هنا؟

- مَنِ الأسرع؟

ودخل اللعبة، صامتًا.

***

عبَّ كميّة كبيرة من الهواء، اندفع راكضًا، حوله الأولاد يتراكضون، تجاوزهم، بدأ يلهث، سمع لهاث صبيٍّ خلْفه يحاول تجاوزه، لم يلتفت إليه، لم يهمّه مَن هُمْ، تلاشى اللهاث الرّاكض خلْفه، جانبه، لمس طرف الحائط في آخر الشارع، الحائط الذي كان لابدّ من لَمسِه ليستمرَّ السِّباقُ نظيفًا، عاد، قابلهم في الطريق، لم يعرفهم، وللحظة لم يعرف لماذا يركض كلُّ هؤلاء الأولاد والعَرق يغطي وجوههم.

اتّسعت المسافة، وصل خط البداية، هتف له أكثر من ولد لم يدخلوا السّباق وصفّقوا: سبقتهم.

لم ينتبه. التقطَ أنفاسه. وصلوا.

قال: نتسابق ثانيةً، نصل نهاية الشارع ونعود عشر مرات.

- مجنون. قالوا. ستقتلنا سنموت!

- لستم رجالًا. قال.

دخل الأولاد اللعبة ثانية في ظلِّ التَّحدي، اندفعوا، بدأوا يتساقطون الواحد تلو الآخر، ظلّ يركض، ويعود، يلمس الحائط ويبدأ من جديد.

تناثروا في أماكن متفرِّقة على امتداد الشارع، ظهورهم للجدران، وحده ظلَّ يركض، يُسابق نفسه.

صاحوا: لقد فُزتَ.

لم يسمعهم، ظلّ يركض، يركض ويركض، لا يرى سوى الحائط في آخر الشارع، لا يرى سوى خط البداية!

- هَزمتَنا، يكفي. قالوا ذلك، وخافوا، ولم يتوقَّف.

- لكنني لم أسبق العصفور!

***

ولم يغادر سمير السّهل، كان التحدّي الذي ألقاه الصغير في وجهه لا يَحتَمِل التّراخي.

- هذا "البُرَّقُ" لي، أعرف أنه سيبقى في السَّهل، لن يبتعد، وهذه علامته، ذيلٌ منتوف باستثناء ريشتين على كلِّ جانب، إن اصطدته قبل نموّ ذيله ستكون وحدك ملك الصَّيد!

***

هل كان الصغير يعرف أنّ اصطياد طائر سبق إمساكه بفخ أحد المستحيلات؟

لم يعرف الأطفال ذلك إلّا في وقت متأخِّر. كانوا قد أخلوا السهل لسمير، يرونه مُنكسرًا يعود، بيده عصفور أو اثنان، لكنّهما ليسا ذلك العصفور.

وأتى الشتاء.

تحدَّاهم.

- من يستطيع اصطياد "الْكَرْكَ"؟

ودخلوا لعبة جديدة أنستْهم حكاية سمير والبُرَّق، أنستْهم الـصيد بالنُّقيفـة، ونصَّبُوه ملِكًا للصيد، مُبتكرًا للطُّرق الجديدة التي لم تخطُر ببال.

33

تفرَّق الصغار في أزقّة المخيّم..

انتشروا..

حتى أصبح الوصول إليهم وإعادتهم مساءً إلى بيوتهم أمرًا شاقًّا. شوارع ضيّقة بظلال نحيلة. أزقّة طويلة تعبرها قنوات بطولها. مياه آسنة بروائح كريهة ترفُّ حولها حشرات من أشكال مختلفة.

مطالب كثيرة رُفِعَتْ،وعرائض وُقِّعتْ، حتى أصبح بإمكان النساء الحصول على الماء من حنفيات عامة، خُصِّصَ عدد منها لكلّ حارة، بعد أن كان الصِّراع للوصول إلى الماء الموزّع بالصَّهاريج يُكلِّف النساء كثيرًا من الدّم!

تتخبّط النسوة في الطّين، يتناثر الماء، يتصاعد العِراك، كلّما اخترقتْ أعينهنَّ السِّحرية الحديد، وقَدَّرْنَ أن كميّات المياه المتبقية لن تكفي الجميع. صراع بقاء تتناثر فيه خصلات الشَّعر، تتلوّث أغطية الرؤوس، تُمرّغ تحت الأقدام، ويتكرَّر المشهد كلّما جاء الماء.

وانخفض منسوب العِراك.

ومنسوب الشَّتائم.

وانتصبتْ الحنفيات على الجانبين، وفي وسط السّاحة دائمًا، وهدأت النّسوة والفتيات.

ثلاثة أسباب كانت كافية لتفجير العراك، تضاءل أوَّلها المُتعلِّقُ بالماء، وبقي الآخران: الحصول على الطحين، ومشاجرات الأولاد!

***

حملتْ صفيحتَها وذهبتْ.

سمعت أن صهاريج الماء لن تأتي للحارة.

أوصت الصغيرَ أن يبقى عند أخته، ومضت عائشة.

اندفعتْ وسط المعمعة، شقّتْ طريقها بجسدها النـَّحيل، وبإحساسها أنّ ما لديهم من ماء في البيت لن يكفي للصّباح التالي.

صراع أكتاف، أرجل، أيدٍ. وكلمات نابية تنطلِق دون وعي بلا ورع.

يد قويّة امتدّت، سحبتْ عائشة من شَعرها، فوجدتْ نفسها خارج المعركة ملقاة في بحيرة طين، لملمتْ نفسها انتصبت كقطة، استطالت أظافرها في لحظة، اندفعت باتجاه أوّل امرأة أمامها، ولم تكن تعرف أهـيَ التـي أوقعتْها أم غيرها، شدَّتها بكل ما لديها من قوة، تراجعت المرأة، وبارتدادها، بثقلها، بسقوطها كانت تأخذ معها جسد عائشة النَّحيل، فتسقطان معًا.

لم يتلفتْ أحد باستثناء سائق الصِّهريج وموظف وكالة الغوث. أعمى الحقدُ بصيرتيهما تعاركتا، ولكنّ بريق عينيهما المألوف فَجَّر ما تحته من دمع. احتضنتْ كلٌّ منهما الأخرى، ونهضتا.

قالت أم خيل: عائشة؟!

وقالت عائشة: أمّ خليل؟!

وبكت كلّ منهما على الأخرى، وعلى نفسِها.

***

وتأتي حنّون، وتأتي أمّها، حنّون التي أخذتْ تزداد نُحولًا.

- نحولها يتحوَّل إلى طول. قالت عائشة.

ويندفع الصغير بعيدًا عن البيت، تتابعه حنّون بنظرة متوهِّجة.

كم مرَّ من الوقت دون أن يأتي لسانها على لسانه بكلمة واحدة؟ لم يعد يدري. اندفع عبر السَّهل،وصل سياج مستشفى الأشْرَفيَّة، في سباق لم يكن فيه سواه، وحوله تتطاير مبتعدة عصافير اللامي والبُرّق والـكُحْلي.

مرّة قال له أحد الأولاد: ركضك هذا سُيهجِّج العصافير من السَّهل.

فطمأنه ساخرًا: من يسمعك يعتقد أنكَ واحد من ملوك الصَّيد.

لم تكن مثل هذه العصافير تُغادر البريّة الصغيرة تلك، تأتي ويعرفها الصغير واحدًا واحدًا، مثلما يعرف أطفال الحارة، يعرف الطائر الجديد، والطائر الذي

اختفى، يعرف كيف تُقاد إلى الفخّ، يعرف الصَّخرة المُفضلة لها، والتي يمكن أن يجعلها مُفضلة بوضع حجارة جديدة فوقها تحوِّلها لقنطرة. يعرف زوايا السِّياج والمدى الذي تبلغه نظرة العصفور فوقها. يعرف المسافة التي تقطعها الأجنحة في كلِّ مرة في الحالة الطبيعية، والمدى الذي يمكن أن تبلُغه في حالة الفَزع، وأقساها انفجار الفخِّ أمام منقار العصفور وتطاير التُّراب إلى عينيه، ونجاته بأعجوبة.

طيور أتت للسَّهل كأنها لا تريد أن تغادره إلا قتيلة.

أتعبتْه عصافيره، أجنحتها المُقيَّدة بحدود المكان، واندفاعها الأرعن نحو الطُّعْم.

أتعبه التّفكيرُ بها، عبءُ أجنحتِها فوق كتفيه، إلى أن وجد الحلَّ فارتاح قليلًا،

يصطادها أولًا، ثم يتركها. عندها، تتحوَّل إلى كائنات لا يمكن معرفة المدى الذي يمكن أن تبلغه في طيرانها، تتحوَّل إلى أنصاف "حساسين".

كان عليه أن يصطاد طيور السَّهل كلّها، ينتف ريش ذيولها، كلَّ مرَّة بشكل مختلف عن سابقه.

بعضها يُبقي له ريشة في منتصف الذَّيل، تبدو كحركة من الإصبع الوسطى في وجه الأولاد الذين يحاولون اصطياده، بعضها يُبقي له ريشتين على طرفي الذَّيل، فيبدو مضحكًا في طيرانه، بعضها ينتف ذيله كلّه، أو نصفيْ جناحيه القريبين من صدره..

علامات فارقة تراها فتعرف أن هذه الطّيور، طيور الصغير.

***

أطبقَ الأولاد على عنقه في قاع الوادي، الوادي الذي يشقُّ السَّهل، عرف السبب، سمير كان أكثرهم غضبًا.

- السهل ليس لك وحدك. قال أحدهم.

- علَّمتها الحَذَر، لم يعد بإمكاننا اصطيادها. قال آخر.

ومن بعيد، كان سعود الشَّرانيّ يُراقب المشهد وينتظر النتائج.

- لا أحد يمنعكم من اصطيادها قبْلي. قال الصغير.

أحسّوا بالتَّحدّي، اتّقدَ الغضب في صدرهم، لمعتْ أعينهم الصغيرة وسكنَها الشرُّ. دفعوه باتجاه صخرة.

- هذا السّهل سيكون لنا، ابحثْ لك عن مكان آخر.

في حين أحضر طفلٌ فخاخ الصغير الثلاثة التي كانت منصوبة.

- السَّهل للجميع، وكذلك العصافير، ولو كنت آكلها لما بقي لكم شيء منها!

- أن تأكلها خير من أن تقتُلَنا ونحن نحاول اصطيادها دون جدوى!

- أراهنكم أنني قادر على اصطيادها مرَّة ثانية.

- لا يمكن!

- أتحداكم.

- إن استطعت لن نقترب منك ثانية.

- إنه يُسحر العصافير، يصفر لها، فتمشي أمامه كالغنم، دون أن يتعب، نحن الذين نتعب، لا تستمعوا إليه!

- اتَّفقنا؟ سأل. وكأنه لم يسمع تعليق الولد الأخير.

نظروا في أعين بعضهم البعض، غلبهم الفضول الذي أمسك بقلوبهم وأشعلها ترقُّبًا، الفضول الذي أقصى الغضب.

- اتّفقنا. قالوا.

***

تقدّم سعود الشّرانيّ بعينيه اللتين تقدحان شررًا، على معصمه تلتفُّ قطعة من جلد أسود مُدرَّعة بدوائر حديديّة صغيرة لامعة.

- ستترك السَّهل لأنك تأكل حصّتي. قال للصغير.

لم يسأل الصغير: كيف؟ فهو يعرف أنه يأخذ العصفور الذي يعجبه من الولد الذي يريد، ولأن العصافير كانت مُتشابهة، فكلّها تُعجبه، سوى تلك التي لا يراها، تلك التي يُخفيها الأولاد بعيدًا عن عينيه، إذ يعودون من طُرُق أخرى إلى الحارات.

يعترض الصيادَ الصَّاعد أرض السهل باتجاه المخيّم؛ كسَدٍّ يقف أمامه، يتفحّصه بعينين خبيرتين.

- هل اصطدتَ اليوم؟

- لا..

- لماذا تكذب؟

يرتبك الصيّاد: أنا لا أكذب.

- بل تكذب، أرني يديك، أظافرك.

ويريه يديه، أظافره.

- هل هذا دم أم ماذا؟!

- إنه طين!

- طين ودم يا شاطر! طَلِّع العصفور.

تمتّد يدُ الصّياد إلى أحد الأماكن الخفيّة في ثيابه،وتُخرج العصفور. ينتصبُ في وجه طفل آخر من جديد.

- كم عصفورًا اصطدتَ اليوم؟

- اثنين.

- هات واحدًا. أترى كم أنا عادل معك؟! وأنت، هل اصطدتَ شيئًا؟ يسأل الصّياد الثاني.

- لا.

- ما هذا الريش على ثيابك؟!!

ويرفع ريشة عن قميص الولد، يتفحَّصُها بعين خبيرة: صايد "حِمْرِيَّة"؟!

أو يسمع صوت (الطُّرِّد) المتخبِّط في الفخِّ عن بعد، يسأل: من يصطاد اليوم في تلك الناحية؟

- سمير.

يباغته بالسؤال: كيف الطُّرِّد؟

يخرجه سمير من جيبه أو عبّه، يناوله إيّاه. ويعترضُ "فؤاد"، فؤاد الكسول السَّمين، الذي يجرّ قدميه بصعوبة، ودائمًا يكون هناك على بعد خطوات من الأولاد، فؤاد المِضْحَكَة المرتجف هلعًا، الذي لا يهتدي ليديه ولا لجيوبه كلّما اعترضه سعود، سعود الذي يمدّ يده ويُقلِّب جيوبه.

- هذا المصروف كثير عليك، هذا يكفيني ويكفيك، أليس كذلك؟

يهزّ فؤاد رأسه موافقًا.

ويبتعد سعود مطوِّحًا بالقطع النقديّة في الهواء.

***

بين فكّي الفخّ أحسّ الصغير نفسه، مُطبقًا على رقبته بإحكام، الأولاد حوله وسعود الشّراني أمامه.

تذكّرَ "الطّرّد"، رغم أنه الأقوى بين الطيور التي يصطادها إلاّ أنه أجبنها، منقارٌ قوي كاف لإحداث جرح في اليد أو الوجه، إن وصل الوجه، لكنّه لا يتمالك نفسه داخل الفخّ، لا يفكّر إلا بالصّياح.

وتذكّرَ نصيحة يردّدها الأولاد: أضرب أقوى رجل على رأس معدته سيتهاوى. جمّعَ قبضتَه.

- قلت لك، أنت تأكلُ حصَّتي، أسمِعت؟!

لم يسمع الصغير. دفعه سعود ألْصَقه بالصَّخرة خلْفه. تفرَّق الأولاد.

- ما يقوله الأولاد يجب أن تنفِّذه.

نظر الصغير إلى الأولاد وجدهم صامتين. لا أحد منهم يحبّ سعود الشرَّاني، ويعرف أنه الأقرب إليهم منه رغم كل شيء.

استجْمَع قبضته أكثر.. وأطلقَها كما لو أنها حجر يريد أن يوصِله إلى أقصى نقطة من السّهل، وهناك، انفجرت تمامًا عند رأس معدة خصْمه الذي تلوّى بفعل الدَّهشة وبفعل الألم، وصاحَ، انحنى فلامس رأسه ركبتيه. نسيَ الجمهور دوْرَه فصاح: الْكُمْه على وجهه.

وتحرَّكت قبضةُ الصغير بكامل قوة الأولاد حوله.. وهوتْ صاعقةً على وجه سعود. فتناثر الدَّم من بين أسنانه. وسقط.

هتف الأولاد فرحين. حملوا الصغير على أكتافهم، يزفّونه كعريس.

أطلق سعود صياحه خلْفهم، اختفى فيه، واختفى من الشوارع والأزقة طويلًا.

***

- ابنِك بطل!

قالوا لعائشة..

وكانوا يغنّون وحنّون وأُمّها تحتَ شجرة التّوت، شجرة التّوت الثانية في غربتهم، التي استطالت وأصبح لها ظلٌ يمكن الاحتماء به من قيظ الصيف.

- ابنكِ بطل.

خافت أمّه، والتمعتْ عينا حنّون فَرَحًا، ووقف سمير منسيًّا.

دنا ولد من أُذن الصغير وهمَس: وصيَّاد بنات كمان، حَبِّبْ.

والتقتْ عينا الصغير بعينيْ حنّون، واحمرَّ وجهه.

***

- نبدأ اليوم. قال للأولاد.

حمل فخاخه وأوغل في السّهل.

راقبوه عن بُعد.

- أراهن انّه لن يستطيع اصطياد عصفور مرَّتين.

قال أحدهم.

لم يسمعوه.

يفهم العصافير جيّدًا، كان. ويفهم عصافيره أكثر.

يقترب أحدها باتجاه الفخّ.. حين يلمح الدُّودة يفرُّ، وفي المرَّة الثانية يقترب بحذر، يقاوم إغراء الدُّودة، يبتعد بخطواته الصغيرة السريعة وقلبه لا يطاوعه، بعد أيام يتقدَّم مستعدًّا للانهيار أمام بياضها، خاصة إن كانت من دود الذُّرة الشَّهيِّ ذاك!

يقترب من الفخّ، يُحلّق على ارتفاع نصف متر، ينقضُّ، ينقر الدُّودة بسرعة خارقة، ويرتفع من جديد. الصغير يراقب فرِحًا، ومزهوًّا بما منح الطيور من حذر.

ينقضّ العصفور ثانية، وثالثة، ينقر بسرعة، يرتفع، يكرّر المحاولة دون أن تلامس رجلاه الأرض، حتى تنفجر سحابة من التراب الصغيرة بفعل انطباق فكّي الفخ. عندها يهبط إلى الأرض آمنا مطمئنًا، يسير باتجاه الدّودة يأكلها بتلذّذ شديد لا يحيطه خوف. يُصفّق الصّغير بحرارة للعصفور، العصفور الذي يرتفع في حركات فرِحَة في الفضاء بمعدة ممتلئة وعنق حرّ.

***

جلس الأولاد يراقبونه.

أوغل في اللعبة واثقًا.

فخاخه منصوبة في أكثر من مكان، يعرف أنها الأماكن المفضّلة للعصافير، ولم يطل الزمن، قبل أن يصطاد واحدًا من عصافيره ذات العلامات الفارقة ويصعد إليهم. لكنهم لم يدركوا أبدًا أن المعركة لم تكن بينه وبين العصفور، بل كانت بينه وبينهم.

***

ينصب الصَّغير فخاخه. يُرجع الخيط الذي يُمسكُ بالدودة إلى منتصف "الكُرْزُم"[8] بعد أن يضع الدّودة الثانية، يدفع الطائر إلى الغنيمة مرّة أخرى، يرفرف العصفور، ينقضّ، ويرتفع.. يتعب.. ينسى حذره.. يطمئن لأن شيئًا لم يُطْبِقْ عليه في المرّة الأولى، ينزل إلى الأرض، يُمسك الدّودة بمنقاره يسحبها بكلِ قوّته، ينكشف الفخّ، لكن العصفور لا يبالي، يسحب الفخّ خارج التّراب، يشدُّه زارعًا قدميه بقوّة عصفور كاملة في الأرض، يتراجع للخلْف، ينزلق الخيط القابض على الدّودة باتجاه رأس "الكُرْزم". لا ينتبه العصفور، العصفور الأعمى، ينطبقُ الفخُّ، يصيح العصفور، يركض الصغير، وتنتهي المعركة بفوز آخر. يحمِله للأولاد، يبصمون له بالعشرة، تنبسط يده بعد أن ينتف جزءًا مميّزًا من ريش الطائر، الطائر الذي وقع مرّتين في الفخّ، يطلقه.

***

اطمأن لحذر عصافير السّهل، أخذ نفسًا عميقًا، أحسَّ بارتياح شديد: الآن تغادرُ السَّهل مطمئنًا على ما خلْفك من طيور، كلّها دخلت الاختبار الصعب وتجاوزته بعد دفع الثمن، كلّها تعلّمتْ وباتتْ مؤهّلة لعبور المسافات بين فخاخ الأولاد والتهام دودهم وجنادبهم و "الكعاكل"[9].

شيء ما ظلّ يدور فيه، يفجّر أسئلة صغيرة تعبره خاطفةً، تمتلك هشاشة حقيقة وقوّة حلم: ماذا عن العصفور الذي اصطاده مرّتين؟ أجّلَ مغادرته للسهل، راقبه عن بعد، تبعه، خصّص أيامًا كاملة له، هزّه في البداية أن الطائر لم

---

[8] - سلك معدني في آخره الخيط المربوطة به الدّودة، حين يسحبها العصفور ينطبق الفخ.

[9] - حشرات أرضية تفضّلها بعض الطيور على الدّود!

يعد يقرب أيَّ شيء يؤكَل. كان دفْعُهُ باتجاه أيـة نقطـة كفـيلًا بـأن يجعلـه يقطـع السَّهل كلّه في طيران طويل، قبل أن يحطّ على حجر آخر؛ حتـى أنـه بـدأ يخـشى الأحجار، لا يتوقّف إلّا بعد أن يُرفرف للحظات فوقها، يلامسها ويرتفع كما لو أنه يلامس صفيحًا ساخنًا، وفي النهاية يهبط.

زيادةُ الحَذَر أوشكتْ أن تقتل العصفور، وقِلَّةُ الحَذر كانت تقتُله أيضًا.

فكّر الصغير: ما الذي كنت سأفعله لو كنت مكانه؟

وحاول أن يتقمَّص الطّائر.

***

بعينين خبيرتين تتبّعه صبيحة اليوم التالي..

لم يره يقترب من طعـام. كـأنّ الفَـراش الملـوَّن قـد فقَـدَ طعمـه، والجنـادب الصَّفراء والحمراء المتقافِزة ليست أكثر من جيَفٍ دقيقة في الـسّهل. لم يعـد ينقـرُ الأرض، اختفت من عينيه تلك النَّظرة الصافية، وضاع زهـو خطواتـه الـسّريعة فوق الأرض.

يتوقّف فوق صخرة، يبقى هناك لساعات دون حراك، كأنه سيُقيم.

ويبقى الصغير بلا حراك، حتى أوشكت الفريسةُ أن تأخذ بحياة صيّادها.

هزل الصغير..

لم يعد يأكل..

لم يعد ينام..

لم يعد يدري أيها الطائر وأيها الولَد.

***

دفعَ الأرض بقوّة قدميه، هبط قليلًا، أم أنه ارتفـع مـن جديـد، وجـد نفـسه يتزلَّج في الهواء، بياض مُتقن حوله، مثـل فكـرة لم تُولـد بعـد، وللمـدى رائحـة النهاية. كان ينـزلِقُ ويوغِل في الغابة النّاصعة، ولا من كائن حوله، لا شـجر، لا بشر، لا طيور.

وحده الطائرُ الذي لا توصله أجنحته إلى شيء. حاول أن يستنجد بما ليس له وجود، اكتشف أن منقاره موثقٌ ولا مجال لأن يفتحه.

***

افتقدته عائشة.

.. كم مرّة ستفتقده؟

المهم أن تجده.

وتقدَّم المساءُ كائنا عملاقًا خارجًا من أرض الرّماد.

- رأيته في السّهل. أكّد أحد الصغار.

على صخرة كبيرة كان ملقىً.

حملوه وعادوا به.

***

توقَّد زهرُ الجمر في الرأس الصغير، اندفعتْ ملايين المناقير باتجاهه، عصافير لم يرَ مثلها أبدًا، من أين أتت؟ انشغل بألوانها، بشكل مناقيرها، لم يكن خائفًا، كان دهِشًا لا غير، صعدت العصافير فوق صدره. غطّت رجليه، انطفأ الجمر. رقدتْ كلّها فوقه، كما لو أنها تحمي بيضة عملاقة. ونامتْ مطمئنة.

من بين الرِّيش، حانت منه التفاتة إلى عصفور يقف بعيدًا يرقبه بحذر، ولا يقترب، أشار له بعينيه أن يأتي، ظلَّ بعيدًا.

ودخل الغابة النّاصعة من جديد، غير قادر على فتْحِ عينيه.

***

- هذا الولد لم يأكل منذ أيام، ثم ما هذا الرِّيش؟!

حوّلَهُ الطبيبُ إلى المستشفى. عندما استيقظ، وجدَ نفسه مربوطًا بخيوط بلاستيكية، يندفع فيها ما يشبه الماء إلى عروقه.

- هل مات العصفور؟ سأل.

- لا، لم يمت أيّ عصفور. أجابوا.

نام من جديد، اقتربت العصافير ثانية، حطتْ على السَّرير، متجاوزة الباب، أسرَّة المرضى.

- الولد بردان. قالت أمّه. وأضافت: بطانية لا تكفي.

صعدت العصافير وغطّته بأجنحتها، فردَتْها، كما لو أنها تُشَمِّسُها وقت القيلولة. لاحت من الصغير التفاتة، كان العصفور يقف هناك على رأس سرير رجُل عجوز يسعل، ظَهْرُ العصفور للعجوز، عيناه للصغير، أشار له، اندفع

العصفور بحركةٍ صغيرة من جناحيه، حطَّ عند رقبته، ثم وقف فـوق الوسـادة، مدَّ منقاره داخل أُذنِ الصغير كما لو أنه يهمس بسرٍّ، ثم طار.

***

ضاق المستشفى به وبطيوره. غافل أمّه، واندفع صوب السَّهل.

بعينيه المرهقتين ظلَّ يبحث عنه.. حتى رآه.

- أمس رأيته يأكل فَراشَةً، وجندبًا.

التفتَ إلى مصدر الصوت. هذا الوجه يراه للمرَّة الأولى، ولدٌ أكبر منه قليلًا، بعينين ذكيتين هادئتين، متحفِّزتين كعيون القطط.

فَرِحَ الصغير.

- إن طائرًا يستطيع الصمود كل هذه الأيام بلا طعام، طائرٌ عظيم، وأن يعود إلى طيرانه، ألاّ ينسى أجنحته، فهذا أعظم.

***

حيث حنّون..

متتبِّعًا خطى الشمس، اتخذ الصغير قراره بالنـّزول هناك، إلى السهل الآخر.

- تذكَّرتَها أخيرًا؟ سأل نفسه؟

ولم يكن مهيّأ للإجابة.

***

- ما اسمك؟ سأله الصغير.

- خليل. أجاب.

- هل أتيتَ من جبل النّظيف.

- لا، أتينا من "الكَرَامة".

- كان لي صاحب اسمه خليل.

- أين هو الآن؟

- لا أدري، صغيرًا جدًا كان، حينما فارقني.

- لماذا فارقك؟

- كان يُريد أن يرى أباه.

- وما دخلُ أبيه في ذلك؟

- لأنه مات.
- والصغير، ماذا حدث له؟!
- مات، مات أيضًا.
ومرّت فترة صمت.
- هل تحبُّ الصيد؟ سأله الصغير.
- لا. أجاب خليل.
- إذن سنمضي غدًا للصيد معًا!
- أنت غريب، قلت لك أنا لا أحبُّ الصيد.
- هذا هو المطلوب!

***

ثارت سحابة الغبار الصغيرة، ركض الصغيران.
كان الفرق بين سرعتيهما كالفرق بين جناحين وقدمين.
أمسك الصغير بالطائر.
- أوّل أصحابنا في هذا السهل!!
- هل تفعل هذا دائمًا بأصحابك؟ سأله خليل.
ابتسم الصغير: ولدٌ ذكيٌّ. قال في نفسه. ستفهم بعد قليل.
امتدَّت يده وأخذت بنتف الذَّيل، أبقى ريشة واحدة في منتصفه. أبعد الإبهام، أبعد السبّابة، الوسطى..
- سيطير، صرخ خليل.
- أبعدَ الصغير بقية أصابعه، طار العصفور.
- خسرناه. قال خليل.
- ربحناه. ردّ الصّغير. من الآن سيتذكّرنا جيدًا ويحبّنا كلّما رآنا في السهل.

***

كانا يركضان، يجتازان الشوارع والأزقة، ينعطفان مثل خيول المعارك، يصعدان الجبل، يعبران السهل مُهرَيْنِ رشيقين، دون توقّف، يعبران أمام عيون الأمهات والأولاد سهْمين مندفعين باتجاه هدف واحد. تُبَسْمل النسوة اللواتي فوجئن بهذه الرّيح، يستعذن بالله من كلّ الشياطين.

يتوقّفان.

- هل ستصنعُ لي فخًّا كي أصطاد معك؟ يسأل خليل.

- لا تستعجل. هيا، نبدأ من جديد.

- نبدأ.

لم يقلّ خليل إني تعبت أو يكفينا اليوم. قال: نبدأ.

طافا بالحارة أكثر من مرّة، حملتْهُما أقدامهما إلى بيت حنّون، ولم يكـن الـصغير قادرًا أن يمرّ من هناك بأقلّ من هذه السُّرعة، أحسّ أن نافذة أُشرعـت في ظهـره وأطلّتْ منها فتاة صغيرة، لم يلتفـت، ظـلّ يـركض ويتبعـه خليـل؛ كلّـما سـبقه صاحبه، تتفجّر فيه قوّة غريبة قرب ذلك الشُّباك ويتجاوزه كالرّيح.

***

- أنت اليوم جناحي، وأنا جناحك.

قال الصغير. وامتدَّت يده إلى عبِّه، وناوله فخًّا.

- هذا لك.

- كنت أعتقد أنك ستصنعه لي فيما بعد، متى صنعتَه؟

- منذ لقائنا الأوّل، كنت متأكّدًا أننا سنكون صديقين.

32

غيوم رماديَّة انتشرت في السماء، هدأت الرِّيح، تلاشى الأزرق الشَّاسع، أدرك الصغير أن مطرًا غزيرًا قادمًا سيغمر السهل.

ركضَ ومعه خليل، الخروج من السهل الأحمر صعب، إذا ما أمطرت، ومستحيل دون إتلاف الأحذية.

سارا محاذيين لسور المقبرة الإسلامية، صعدا التلة الصغيرة، اجتازا شارع "مَأْدَبا" وصلا إلى ساحة النَّادي. صنبور ماء أصبحت السماء، صنبور ماء بلا صمام، ماسورة مكسورة. لا عصافير في أيديهما. من زمن بعيد يحدُث هذا، لا يُحضران الطيور إلا لتبديد نظرة الشَّكِّ في أعين الأولاد، وغمزاتهم اللاذعة حول صيد مزعوم.

***

كان لابدّ أن يمرّ تحت شبّاكها، ذلك المرور السريع، المليء بالحَذَر. صغيران، كان يمكن أن يجدا مئة طريق تؤدي إلى بيتيهما، وألّا يجدا نفسيهما مضطرَّين للمرور من هنا.

أنظار العالم كلّها مُنصبَّة تحفر جسديهما، دائمًا هذا الحسّ. الصغير، أسرَّ لصديقه أن حنّون حبيبته. لم يفهم خليل معنى أن تكون لك حبيبة دون أن تكلِّمها، أن تنفردَ بها. لكن ذلك لم يمنع انفجار إحساسِه بخطورة ما يفعلانه كلّما مرّا تحت الشبّاك الخشبيِّ بمحاذاة سور الطوب الهزيل.

خطرٌ ما يقبع في كلمة (حبّ) هذه. خليل يعرف، والصغير يعرف: أولاد الحارة يطاردون أيّ شاب وفتاة يَشكُّون في أنهما ليسا أخَويْن أو متزوِّجَين.

كيف يعرفون الأخت وأخاها من الحبيب وحبيبته هكذا، ومن النظرات الأولى، كما الحبّ من النظرة الأولى؟ لا أحد منهم يستطيع الإجابة عن سؤال صعب كهذا، لكنّه يستطيع أن يؤكِّد واثقًا أن هؤلاء عشّاق، وهؤلاء متزوِّجون، وهؤلاء إخوة.

***

يوم جمعة..

ولم يكن حذاؤه الثقيل مؤهلًا لدخول بحر الأسبوع التالي دون أن يذوب، تاركًا قدميه قطعة من جليد.

أمّه وعدتْه: هذه الجمعة لن يعمل أبوك، سيستريح وتنزِلان معًا إلى "عمّان"، وتشتريان الجزمة التي تُريد.

تأخّر الجمعة، لم يأتِ، وظلّ الوعد مُعلَّقًا، صبرَ الصغير، لكن حذاءه فقد الصبر حين اندفع باتجاه حجر وضرب رأسه هناك، مُشرِعًا فمه إلى درجة لا يمكن معها إصلاحه أبدًا.

خبرٌ صغير طيَّرتْهُ عائشة إلى خاله فجاء، خاله يوسف الذي يحبّه، خاله الذي يدسُّ في جيبه دائما في غفلة من عيون أمّه قرشًا أو قرشين، ويغمزه: "أَتْبَحْبَح"! ولو كانت عائشة تعرف بذلك لانقضّتْ عليه وقَلبتْه وأخرجتْ ما في جيوبه، لكنّها لم تكن متأكِّدة من مسألة القروش هذه.

سألت الصغير: ألم يعد خالك يعطيك شيئًا؟

يهزّ الصغير رأسه نافيًا.

لم يقل لها: لا.

لأنه كان يعتقد أنه إذا قالها فإنه يكون كاذبًا، أما إذا هزّ رأسه فلا يعتبر كاذبًا!

وسيهزّ رأسه كلما جدّ الجدّ وأطبق السؤال عليه.

- خذ اشترِ له جزمة وارحمني. قالت عائشة.

مدّ الخال يده، أخذ الورقة النقدية الخضراء، وهبطا إلى "عمّان".

اندفع قبل خاله، صعد الدّرجات المعدنيّة للحافلة، اندسّ في الكرسيّ ليكون محاذيا للشبّاك، اندفعت الحافلة بطيئة في البداية، ثم انطلقت أسرع، وأسرع. الحافلة تجري باتجاه عمّان، وعمّان تجري باتجاه الحافلة. البيوت تركض كالرّيح

على جانبي الطريق، تجتاز شبّاك الصغير، وتواصل ركضها في الاتجاه المعاكس حتى تختفي.

تتوقّف الحافلة، وتتوقّف البيوت، تتوقّف الشّوارع، وتكون عمّان. ولا يعرف الصغير من وصل إلى الآخر أولًا، عمان أمْ هُم.

- المكان الذي نركض إليه يركض إلينا! قال الصغير فيما بعد، ولم يفهم خليل إلّا بعد أن ركض الصغير أكثر من مرّة باتجاه صخرة أو حائط أو شجرة.

غير أنّ (خليل) قال له: هذا لا يحدث مع العصافير، فصمتَ الصغير.

وفكّر حتى أوجعه رأسه؛ دفع الفِكرة إلى مكان قصيٍّ في جمجمته، وحاول أن يتناساها.

***

شارع "الملك طَلَال"، شارع "السَّلْطْ"..

وعمّان، مدينة للرّجال يوم الجمعة، ترى مئة رجل قبل أن ترى امرأة واحدة، فتاة.

لكن الصغير رآها، وعرفها، تمسمرتْ قدماه في الرّصيف المنقوع بالماء؛ تتكئ على بوابة أحد المحلاّت المُغلقة. شدّه خاله فلم يتحرَّك، وشدّه ثانية قبل أن يلتفت إليه ليتأكد أن تلك اليد الصغيرة التي في يده لابن أخته لا لسواه.

كانت دموع الفتاة الجميلة تتساقط مُنحدِرَة على الورق بصمت، دموع هادئة في شارع مزدحم يغُصُّ بالرجال. وشدّه خاله ثانية: ما لك؟!

ولم يكن وحده الذي وقف. هناك تحت قدميه توقّفت الأرض، أطبقتْ بأصابعها الخفيّة على حذائه، ولذا، حين شدّه خاله للمرّة الثالثة، أفلتت قدمه من الحذاء وغرقت في بركة ماء صغيرة، فابتلَّ جوربه الكبير.

تحرّكا أخيرًا، وظلّت الفتاةُ هناك تبكي، الفتاة الجميلة بدموعها الهادئة على غلاف ذلك الكتاب. فكَّر أن يطلب من خاله أن يشتريه له، خَجِلَ، خشيَ أن يقول له: لا.

قال لخليل: الله كم تشبه حنّون!

- مَنْ؟

- الفتاة الباكية على غلاف الكتاب.

- أي كتّاب؟

شرح الصغير كل شيء دفعة واحدة، لأنه كرِهَ تكرار الأسئلة والإجابة عنها بهذه الطريقة.

- سنشتريه.

- لكننا لا نقرأ، قال خليل. ثم من أين لنا بالنقود؟!

- فكّرت في ذلك. علينا أن نصطاد عصفورًا، اثنين، ثلاثة ونبيعها.

- نبيعها! صرخ خليل. نبيعها ليأكلها الناس؟!! لقد تغيّرتَ، هل نسيتَ ما تعاهدنا عليه!!

أدار خليل ظَهْره وابتعد.

قال الصغير: لن نبيعها لأناس يأكلونها.

- وهل نبيعها لأناس يحبسونها في الأقفاص إذن؟ الأولاد الذين يضعونها في الأقفاص شُرطة، شرطة عصافير، لن أوافق! وابتعد أكثر.

- نبيعها لأناس لا يأكلونها ولا يضعونها في الأقفاص!! قال الصغير بصوت عال. توقَّف خليل.

- حُزّيْرة هذه؟! سأل خليل.

- لا، نبيعها لأناس يتركونها تطير.

- نعم؟!!

وعاد خليل ليتقدّم باتجاه الصغير، بحذر.

- يتركونها تطير!! أعاد الصغير كلامه.

- إمّا أنك مجنون أو أنك ستجعل الناس كلّهم مجانين. قال خليل.

***

هبطا إلى السهل، مالا باتجاه بقايا أعواد الذُّرة البيضاء، شقّاها، أخرجا مجموعة من الدّود الأبيض، زجّاها في علبة كبريت فارغة نصفها طحين، طحين مُختلَس من البيت في غفلة من أمّه، أمّه التي حين تكتشف ذلك تصرخ: هذه الكمية كافية لصنع رغيف، أعليَّ أن أطعم العصافير أم أطعمكم؟!

هنا في الطحين الجوّ الأمثل لاستمرار حياة الدّود. لا أهمية للدودة الميّتة في الصيد، يجب أن تتحرّك كي يراها العصفور. بعض الدّود يُفسد عملية الصَّيد

بحركته النشطة، حيث ينطبقُ الفخّ قبل وصول العصفور بثوان؛ وأحيانًا، يبدأ العصفور بنقر الأرض بنهم قبل الوصول إلى الفخّ بأشبار، معنى ذلك أن الدّودة أفلتت.

في علبة الكبريت ما يكفي لاصطياد سرب من طيور مختلفة، عَمِلا بسرعة، للزّمن أهميّته، تقاطعا في السهل يَرُدّانِ عصفورين باتّجاه فخاخهما المنصوبة.

- آخ لو كانت لنا أجنحة!

قالها الصغير، وعبَرَ خليل دون أن يُعلّق وعيناه على عصفوره.

انطبق الفخّ، ركض خليل وركض الصغير خلْفه. "بُرَّقٌ" سمين، حين وصلاه كان شبه ميت، تناوله الصغير من يد صاحبه، نفخ في منقاره، توقّف لحظة، عاد ونفخ من جديد. الوقت مشحون بالترقّب.. وأخيرًا، تحرّكتْ إحدى رِجْلَي العصفور، انتعش، رفَّ جناحه، دبَّت قوة خفيّة ناعمة في جسده، عاد قلبه إلى نبضه: بب، بب، بب.

أحس الصغير بذلك. أخذ نفسًا عميقًا مُعلنًا بذلك ارتياحه.

اصطاد العصفور الثاني، الثالث.

- ألا يكفي؟ سأل خليل.

- يكفي. قال الصغير.

- لمن سنبيعها؟

- لا يهمنّك، اتبعني.

***

على باب غرفة أم ثريا توقّف، وخلْفه، على بعد خطوات وقف خليل حائرًا، فتحتِ البابَ.

خطواتُ الزّمن حفرت في جلدها عميقًا، ورمح الحزن مغروس في قلبها لا يلين. ولانَ الصغيرُ من زمن.

تُطوِّقها العزلة، بعيدة عن أخوتها، زوجاتهم اللواتي لم يعدن يُطقنها، فاخترعن ألف سبب وسبب لإبعادها، ولم يصمد الإخوة، عملوا بدأب إلى أن استطاعوا رشْوة موظف في وكالة الغوث سهَّل حصولها على غرفة في المخيّم.

وتغيّرت أم ثريا.

- لم يحدث لي ما حدث إلا لأنني أغضبت الله. قالت. وبدأت تحاول إرضاءه، فلم تجد وسيلة أفضل من أن تَلزَم غرفتها وتُلزِمَ لسانها البقاء هناك في عتمة فمِها.

- تريدين إرسال مكتوب إلى أبنائك في الجنّة؟ سألها الصغير.

بكت.

- كيف ، وهل تصل المكاتيب إلى هناك.. من يحملُها؟

- ألم تقولي إن الصّغار الذين يموتون يعيشون هناك في الجنّة، كالطيور ومع الطيور؟ والحقيقة أن أمّه قالت هذا الكلام.

- نعم؟!

- نرسل الرسالة مع عصفور إذًا؟

هل كان الصغير يشكُّ في إمكانية وصول العصفور؟ هل كان يُصدِّق كلماته ويقع في فخاخها؟ لا يدري ، ولن يدري، حتى بعد أن رأى واحدًا من هذه العصافير في السّهل، وتساءل: أيكون هو نفسه؟

- اعطني عصفورًا لأرسله. قالت.

- أبيعك عصفورًا. قال.

- ليس معي مال.

- أبيعه لغيرك.

أدار ظهره، سحب صاحَبُه عدة خطوات، تبعه الصوت:

- عُدْ.

فعاد..

- كم تريد ثمنًا له؟

- قرشين.

- قرشين ؟! صرختْ. وهل العصفور أغلى من البيضة؟!

- نعم أغلى. العصفور لحم، والبيضة. صمت قليلًا. ثم قال: البيضة بيضة والعصفور عصفور، هناك فرق.

- بقرش. قالت برجاء.

- بقرشين. لو أردتِ إرسال رسالة واشتريت طوابع لكان ذلك أغلى! ثم إنّ رسائل البريد لا تصل الجنة. العصافير وحدها تستطيع الوصول.

- ولكن، إذا اشتريت العصافير الثلاثة أبيعك إيّاها بخمسة قروش.

- وماذا أفعل بعصافير ثلاثة؟ أريد واحدًا فقط.

- كم عدد أبنائك؟

- ثمانية.

- أنتِ بحاجة إلى ثمانية عصافير إذًا!

- ألا يكفي عصفور واحد؟!

- لا يكفي.

- إنك مجرم. قال خليل للصغير.

مال عليه الصغير، دفعه للوراء، صَرّتْ أسنانُه: لا عليك، سترى كم ستكون فَرِحَة بعد إطلاق العصافير. ستفرح هي ونفرح نـحن وتفرح العصافير.

- لكنها فقيرة.

- اطمئن، لن تموت جوعًا، أمّي تقول ذلك دائمًا، ثم إنّ لديها الكثير من المال الذي تسرقه ابنتها من عمّي ، معهـا خمـسات وعـشـرات ، حُمْـرٌ وزُرق، دنـانير، فاهم؟

- بماذا تتوشوشان؟!

- لا شيء.

- لكن لِمَنْ سأُرسل العصافير، وكلّهم أبنائي!!

- أرسليها لمن ماتوا أولًا.

- فِكْرَك؟

- نعم.

مـدّت يـدها إلى عبّهـا أخرجـتْ تلـك الـصُّرّةَ الـصغيرة، تنبّهـت لوجـود الصغيرين فجأة، أدارت ظهرها حتى لا يريا ما معها.

غمز الصغير صديقه، كأنه يريد أن يقول له: أرأيت؟

وحين استدارت إليهما ثانية قالت: أعطِني العصافير.

- أعطيني (الشّلن) أولًا!

ناولته (الشّلن).

ناولها العصفور الأول، قرَّبتْه من فمها، همست، بكلمات لم يسمعها أحد، وأطلقته.

تناولت الثاني، الثالث، وأطلقتها.

تنهّدتْ بعمق وقالت: يرضى عليكو، ريّحتوا بالي، لكن بدّي كمان خمس عصافير!

هزّ الصغير رأسه، تبعه خليل بصمت، هل بدأ الصغير يحبّ تلك المرأة؟ ينسى ما فعلته به؟ بأمّه؟

أمّ ثريا هي أمّ ثريا لكنّها ليست أمّ ثريا أيضًا!

حائرًا كان.

***

بأيدٍ مليئة بالعصافير.. أربعة سمان.. صعدا التل في اليوم التالي.

– لماذا لا نبيعها اليوم لفؤاد. قال خليل. أبوه غنيّ ونستطيع أن نأخذ منه أكثر.

ذهبا إليه.

باغته الصغير: أنظر، أنظر إلى ما فعله الله بك!

– ماذا فعل بي؟!

ارتبك فؤاد وبدأ يتفقّد نفسه.

– خلَقَكَ تيْسًا، لا تفهم، غبيّ، لا تدخل الدُّروس رأسك!

– وماذا أفعل؟

– عليك أن تفعل الخير، هذا ليس ذنبك فقط، هذا ذنب أبيك أيضًا، الذي يستغلّ الناس ويأكل حقّهم. يستغلّهم في الكسّارات، ويدفنهم في وادي "الرَّمَم" بالحجارة والبارود.

– وما ذنبي أنا؟

– ذنبك أنكّ ابنه، لذا جعلك الله غبيًّا، ليعاقبه!

– إن الملائكة لا تستطيع أن تسكن بيتكم لأن أباك شيطان. قال خليل.

بدأ فؤاد يرتجف: ماذا أفعل؟

- عليك أن تُرسل رسالة إلى الملائكة تقول لهم فيها إن الذَّنب ليس ذنبك. أفهمت؟

- وكيف يمكن إيصال رسالة للملائكة؟

سأل سؤاله، وبدا على وجهه تعب. اسْوَدَّ، وتهدَّلتْ ذراعاه.

- لا تعرف حتى اليوم كيف تُرسل رسالة إلى الملائكة؟!!

قال خليل. وأضاف الصغير:

- ستبقى غبيًّا، هيا، هيا لنمض. استدارا، لحقهما.

- أَنْقِذاني.

- عليك أن تشتري عصفورًا، تُحَمِّله رسالة وتطلقه، تقول فيها إنك إنسان طيب ولا ذنبَ لك فيما يفعله أبوك.

- أريد عصفورًا.

- ونريد ثمنه، عشرة قروش.

- عشرة قروش؟ هل هو دجاجة؟

- لا، هو أحسن.. اذهب وأرسل رسالتك هذه مع دجاجة وانتظر، لأنك ستصبح أغبى!

- من أين لي بعشرة قروش؟!

- نَعم، نعم يا شاطر، تريد أن تضحك علينا، مصروفك اليوميّ أكبر من مصروف نصف أولاد المدرسة، ثم إنك تكذب، هل تلاحظ أنك تكذب؟ قال له الصغير.

- ولكن بعشرة قروش أستطيع أن أشتري خمسة عصافير على الأقل.

- وهل تعتقد أن أيّ عصفور يمكن أن ترسله إلى الملائكة، هكذا؟! سأله خليل.

- يجب أن تعرف، ليست كلّ العصافير صالحة لذلك، هل تستطيع إرسال عصفور أسود إليهم؟ سأله الصغير.

- لا. أجاب.

- لماذا؟ سأله خليل.

- لأنّ الملائكة بيض. أجاب فؤاد.

- ممتاز. ها قد بدأتَ تفهم منذ أن صَفَّيْتَ نيَّتك. قال الصغير.

أخرج عشرة قروش من جيبه، فأبصرا عدّة قطع نقدية أخرى.

- خذ هذا العصفور الأبيض، حَمِّلْه رسالتك وأطلِقه.

ولم يكن العصفور أبيض. حَمَلَه، وركض يتعثّر بنفسه.

قال خليل: كنا نستطيع أن نبيعه كلّ ما معنا.

- أعرف. ردّ الصغير. ولكن هذه محجوزة لأمّ ثريا.

- أنبيعها العصافير ثانيةً؟

- لا، سنعطيها إيّاها دون مقابل.

- نعم؟!

- اسمعْ.. لو أننا بعناها العصافير الأربعة اليوم فكم كنا سنأخذ منها؟

- ثمانية قروش.

- ولكننا أخذنا ثمنها عشرة، أي أننا ربحنا قرشين أيضًا، أترى؟

ذهبا إلى أمّ ثريا.

وذهب فؤاد ليكتب الرِّسالة، رسالته التي لن تفهمها ملائكة ولا بشر لكثرة ما فيها من أخطاء إملائية، ولرداءة خطه.

طرقا بابها، انفتح، وأطلّتْ أم ثريا باسمة وحزينة.

- رأيتهم في المنام، كانوا يبتسمون ويضحكون.

- أتينا بثلاثة عصافير أخرى، يلزمك اثنان، وينتهي الأمر؟

- مدّت يدها إلى عبّها، أخرجت النقود، لم تستدر هذه المرَّة، كانت مطمئنة لمعجزتها التي تحقّقت.

لكنهما باغتاها: لا نريد نقودًا.

- لا تريدان، لماذا؟

- لا نريد.

ناولها العصفور تلو الآخر.. وهي تُسرُّ لكلّ منها بما تحمله في قلبها من شوق وتطلقه..

***

وابتعدا. رأياه هناك، عصفورًا مُعَلَّقًا كذبيحة.

التفَّ على قدميه خيط في طرفه رسالة، رسالة عَلِقَتْ في شق بين طوبتين، حرَّرا العصفور من الرّسالة، وضحكا لأنّ رسالة كهذه لا يحملها غراب. وعادا إلى أمّ ثريا، وراحا يطرقان الباب.

***

عملية حسابية بسيطة أجراها الصغير وصاحبه، تأكدا فيها من حجم مدّخراتهما، بعد أن نجحا في بيع فؤاد ثلاثة عصافير أخرى، مثلما تأكّدا من حماس فؤاد الجديد للمدرسة، الحماس الذي جعله ينطلق باتّجاه صَفّه برشاقة مَن ألقى عن كتفيه حِمْلا ثقيلًا كان على ظهره من سنوات.

على الصَّخرة البيضاء المُطلّة على مكبّ النفايات جلسا. استعاد صورة "حنّون"، صورة الفتاة الباكية على الغلاف. انثنى، انتزع جزمته، امتدّتْ يده إلى عمقها المظلم، أخرج خمسة وأربعين قرشًا، لو رأتها أمّه لصرخت: من أين لك هذا المال؟ هل سرقتَ بنكًا؟!

***

فكّر الصغير وصاحبه في الطريقة التي يمكن أن يذهبا فيها إلى البلد، استبعدا ركوب الباص لأنّ ذلك يثير الكثير من الكلام إذا ما رآهما أحد. قررا النُّزول مشيًا، لأنهما ومع وجود كل هذه الثروة، لم يكونا قادرين على تحديد السِّعر الذي يمكن أن يطلبه صاحب الكتاب.

أعاد النقود إلى جزمته، مضيا باتجاه شارع "بارْطُو" ففي ذلك اختصار للمسافة بدل السير باتّجاه ساحة النَّادي ثم المخفر، ثم قيادة شرطة البادية، فمستشفى الهلال..

ضايقته النقود بصوتها أكثر مما ضايقه ارتطامها بأصابعه، فالجزمة كبيرة، توقّف عند أحد الأسوار العالية، طلب من خليل أن يقف حارسًا، توارى خلف السّور. قذرًا كان المكان، استند إلى الجدار، أخرج النقود، دسّها في جيب معطفه الذي يكبره بخمس سنوات على الأقل.

وراحا ينحدران مع انحدار طريق "المُصْدَار".

***

بحثا عن بائع الكتب قرب موقف الباصات ، أمام ذلك المحلّ التّجاريّ الذي كان مُغلقًا، لم يجدا شيئًا.

- أنا متأكّد أنني رأيته هنا. قال الصغير.

- ولكن ذلك كان قبل أن يتزوّج جدّي جدّتي.

- لنبحث في مكان أخر.

كان لديهما الكثير من الوقت. الشمس تواصل إطلالتها المتقطّعة من بين الغيوم، ولم يكن الرَّذاذ عائقًا.

أحسّ الصغير أنه ابتعد أكثر من اللازم، لكنّه ثبَّتَ عينيه منذ البداية على واحدة من مئذنتي "الجامع الحُسَيْنيّ" ، بحيث لا يضيعان أبدًا. وقد كان بإمكانه أن يستدلّ في طرقه بعلامات أصغر كثيرًا من مئذنة.

توقّفا أمام بائع كتب، لم يكن هو، بحثا بأعينهما عن فتاة جميلة بعينين دامعتين. أشار خليل إلى غلاف تُزَيِّنه صورة فتاة.

لكزه الصغير: أهذه مثل حنّون؟!

نهرهما الرَّجل لأنهما يحجبان الكتب عن أعين المارّة، لم يدر أنهما الأكثر جدّية في وقفتهما هذه من الرصيف وما عليه من بشر.

قال الصغير: نريد أن نشتري لا أن نتفرَّج!

- قبل أن تَشتروا تعلّموا القراءة يا فالحين!

فقدا الأمل في العثور على كتابهما. شعرا بالجوع. أدركا أن وقتًا طويلًا مضى قبل أن يتنبها أن بحثهما بلا طائل.

نظر الصغير إلى مئذنة الجامع، لم يعد يظهر منها الكثير. تلبّدت السماءُ بغيوم سوداء، ازدادت سرعة الناس في الشوارع ، تزاحمت خطواتهم أكثر، لوى الصغيران عنقيهما يائسَين وعادا من حيث جاءا، إلا أنهما، وفي حُمّى خطاهما التي تعرف تمامًا موعد العاصفة، لم ينسيا أنهما جاءا من أجل شراء ذلك الكتاب.

على الطرف الآخر من الشارع لمح الصغير وجهًا يعرفه، لم يكن غير وجه بائع الكتب ذاك الذي رآه قبل أيام. شدَّ صاحبه من يده. اجتازا الشّارع كأن لم تكن هناك عربات ، توقّفا في "الجزيرة" الصغيرة تحت برج "السّاعة" الصغير، ثم عبرا مُسرعَين.

وهناك، كان الكتاب.

- نريد هذا. قال الصغير.

عدّل بائعُ الكتب عقاله: وهل معكما نقود؟

- معنا. أجابا.

- كم ثمنه؟ سأل الصغير.

- عشرون قرشًا.

فَرِح الصغير بذلك، هذا يعني أن كثيرًا من النقود سيبقى لهما، لكنّه قال: بخمسة عشر قرشا.

بين جديّة المشهد وهزليّته، ابتسم بائع الكتب باستخفاف.

- سأبيعكما إيّاه بعشرة قروش، ما رأيكما؟!

أدار الصغير وجهه، أعطى ظهره للبائع كما كانت تفعل أم ثريا، وبيده التي ما زالت قابضة على النقود منذ انطلقا، تحسّس قطعة عشرة قروش، أخرجها، ثم استدار على طريقة أم ثريا أيضًا، قائلا للبائع: أعطنا الكتاب.

انحنى الرجل ، ناولها إيّاه. حدّق الصغير في الوجه، نعم هو، حتى نسي القروش العشرة والبائع ، البائع الذي هزّه: ثمن الكتاب يا أستاذ!!

ناوله الصغير ما بيده دون وعي.

صافية كانت دموع الفتاة، تنهمر دون توقّف منذ ذلك اليوم.

وانهمر مطر من السماء غزيرًا، ركض الناس، وقبل أن يبدأا ركضهما باتّجاه الباصات، دسَّ الصغير الكتاب تحت معطفه من جهة القلب، فاتّقدتْ أكثرُ من جمرة في صدره، وأحسّ بحنّون قريبة كما لم تكن في أيّ يوم مضى.

***

- ولك هذي أحلى بكثير من الصورة. صرخ خليل حين رأى حنّون.

ولم يدر الصغير بماذا يجيب.

- ما دفعناه في الكتاب كان خسارة. قال خليل.

***

.. وتغيَّرت ملامح أمّ ثريا، تدفّق ماء الحياة في وجهها من جديد، هواجس كثيرة طافت في رؤوس نساء الحارة، بحثًا عن سبب هذا التَّغيُّر، أقلّها اقتراب الموت، وأضعفها الجنون.

وحدهما، الصغير وصاحبه، كانا يدركان سرَّ الانقلاب الكبير.

أصبح بإمكان أمّ ثريا أن تضحك، أن تذهب إلى حنفيّة الماء دون تذمُّر. لبستْ واحدا من أثوابها الجديدة. أخذها فرح ما في بحيرات الطّين التي تُدعى الشوارع، ورفعها إلى تلك النقطة اللانهائية بين الغيوم، لكنّها لم تتوقّف عن توجيه سؤالها: ما الذي كان سيحدث يا الله لو انكَ أبقيتَ لي واحدًا منهم على الأقل؟

ولم يدم ذلك طويلًا.

فرؤيتها المتكررة لأبنائها في النّوم، وحديثها الدائم عمّا يقولونه لها، احتلالهم الكامل لأحلام يقظتها، كل ذلك أعاد السؤال المُرَّ حول ذلك الذي يحدث داخلها.

وعندما اقترب عيد الأضحى، كان بإمكانها أن تشدّ قامتها المصابة بستين خريفا، وتشقّ طريقها إلى السوق لتشتري ملابس لصغارها.

تغيّرت أمّ ثريا.

لم يجزم أحد إن كان هذا التّغيُّر لصالحها أم لا. خرجت من غرفتها، رأت الشمس ثانية، وبدأت الخيرات المحبوسة في (صُرّتها)، الخيرات الصغيرة على ضآلتها تتفتّح في كل شيء تلقي بظلالها عليه.

31

قالت: سأَلِد.

بحثتْ عن "حفّايتها"، وجدتها تحت "النَّمْليَّة"، تناولت غطاء رأسها وخرجت.لم يمضِ وقت طويل، ولدت.

- جاءتكِ بنت. قالوا لها. فرحتْ عائشة.

حملتْ ابنتها وبقايا دمها وعادت للبيت. لم تكن قد جلست بعد، دُقَّ الباب: شوف مين!

نهضَ الصغير مُتثاقلًا، فَتَحَ الباب.

- أين أمّك؟

- في الدّاخل.

دخل الرجل الأبيض.

- مَنْ، الطبيب؟ دُهشت عائشة.

- آه، الطبيب، لماذا غادرْتِ المستشفى، لماذا؟ نحن لم ننتهِ بعد، هناك ولدٌ آخر في بطنك.

- ولد آخر؟!

- آه، ولد آخر.

التفتتْ للصغير: انتبه لأُختك جيدًا. فاهم؟

وعادت عائشة إلى المستشفى.

التفتَ لقطعة اللحمْ الباكية المصبوغة بالدّم، حاول أن يُناغيها، لم تستجب.

حالكة كانت الطرق، ولم يكن هناك أحد. بحث الطبيب عن سيارة تحملها للمستشفى لم يجد.

قال: ليس ثمّة حل، سنمشي.

بعد زمن عادت عائشة بولد آخر.

سألتْه: كيف أختك؟

- إنها تبكي، تبكي فقط.

وناولتْه أخًا جديدًا.

تأمّله، حاول أن يلمسه.

- ما هذه الليلة؟ قالت.

ولم تكن قد جلستْ بعد، حين دُقَّ الباب، فتحتْه عائشة.

- لماذا غادرتِ المستشفى ثانية؟! لماذا؟! نحن لم ننتهِ منك، هناك ولد آخر!!

- متأكدٌ أنت؟!!

- ما هذا السّؤال؟ أنا الطبيب!!

- الله يعينني.

- هيا بسرعة.

بحثا عن سيارة أجرة لم يجدا، قال: علينا أن نمشي.

- لا حولَ ولا..

سارت عائشة وخلْفها الطبيب يلهث. وصلا المستشفى. استلقتْ على السَّرير. دقائق، وناولها ولدًا آخر، ولم تكن تتألم ، كان الأمر لا يعدو أكثر من أن تمدّ يدك إلى كومة برتقال وتتناول حبَّة.

- الله، هذا أحلى من الأولَين. قالت عائشة.

وغافلت الطبيب، وعادت به.

دخلتْ، كان الصغير صاحيًا هناك، إلى جانب أخته وأخيه.

- أتيتكَ بواحد آخر.

حدّق الصغير في الوجه الجديد.

- إنه أجملهم، أنظر!

ولم ير الصغير فيه غير كتلة لحم مغطاة بدم جافّ لا تكفُّ عن الصراخ.

لم تكن قد جلست بعد، كانت تقول: خلاص.. سأكتفي بهؤلاء، لقد تعبت من كلّ هذه المشاوير. وطُرِقَ الباب. اختبأت عائشة.

- قل لهم إنني لستُ هنا!

- أمي ليست هنا.

لكنّه فوجئ بهم يدفعونه، أطباء وممرضات بثياب بيضاء.

فتّشوا عنها، وجدوها.

- تختبئين منا يا خبيثة، أمسكناكِ!

وكانوا يضحكون. كأنهم في لعبة.

- ألم تعلمي أنّ هناك عددًا آخر من الأولاد في بطنك لم نُخرجْهم بعد؟

جروّها من يدها، استجابت.

- لي الله!

وطلبت من الصغير أن يعتني بإخوته.

انتظروا سيارة أجرة، والليل في آخره، حين وصلتْ اكتشفوا أنها لا تتّسعهم، فانتظروا هناك في ساحة النّادي حتى وصل باص الصباح الأول.

نـزلوا وسط عمّان، ولم تكن عمّان، انعطفوا باتّجاه شارع "السَّلْطْ" صاعدين درج "الكَلْحَة" إلى مستشفى "لوزْميلّا"، وفي أقلّ من دقيقة أخرجوا خمسة أولاد! وقالوا: إيّاك أن تغادري!

إلاّ أن عائشة غافلتهم ثانية، حملتْ أولادها وغادرت المستشفى على رؤوس أصابعها. لم يقبل أيّ سائق سرفيس أن يحملها مع كلّ هذا العدد من الأولاد.

استقلّت الباص ، الباص الذي ما إن أكملتْ صعود درجاته حتى انطلق، ولم يكن غيرها وغير أولادها فيه. الباص الذي لم يتوقّف في ساحة النّادي، بل ظلّ يسير إلى أن وصل شارعها الضيّق ، الشارع الذي لا يتّسع لمرور سيارة صغيرة، لكن سائق الباص واصل سيره إلى أن أوصلها إلى البوابة.

فتحت الباب، كان الصغير نائمًا وإخوته. وحين استيقظ وجد أن الدّار حوله مليئة بالإخوة والأخوات، وأن سهى أصبحت كبيرة، لدرجة أنه لم يعرفها هكذا في واحد من فساتين "البُقَجْ"[10] التي استلمتها أمّه من وكالة الغوث.

[10] - صُرَرُ الملابس المستخدمة التي كانت توزعها وكالة الغوث التابعة للأمم المتحدة على اللاجئين الفلسطينيين كمعونات.

كانت أطول مما يجب، إلى حدِّ الإرباك. وحين اقترب منها ليتأكّد من ذلك تبيّن له فعلًا أنها أطول منه، وبدا الأمر في نظره أنه لو نادى عليها الآن وردّد اسمها ألف مرّة فلن تبكي، لأنها فَرِحَة بما هي عليه.

- البنات يكبرن بسرعة. قال. ولم يعرف المدى الذي يمكن أن تكون بلغته حنّون في طولها.

لكن ذلك لم يطلْ، لأن أمّه جاءت وبدأت برفع طرف الفستان بالدَّبابيس، وما هي إلا لحظات، حتى اكتشف أن سهى كانت فوق كرسي القشّ، الذي اختفى تحت الفستان. قالت لها عائشة: انزلي.

نزلت.. فإذا بها أقصر من الصغير بكثير، فتنهَّد مرتاحًا.

***

لم يشغل الصغيرَ أمرٌ في الدنيا مثلما شغلته العصافير، أضاع سنة دراسيّة كاملة، هيَ الأولى، لأن أمّه لم تجده في أواخر أيام التَّسجيل.

وضع المدير رجليه في الحائط وقال: لا يمكن، وإذا لم يأتِ السنة القادمة في موعده فلن يدخل المدرسة أبدًا.

غضب عليّ، كما لم يغضب في أيّ يوم، زجر وصرخ، سمعه الصغير فأوشك أن يبول على نفسه ذعرًا.

ودخل خليل المدرسة.

- لكن سنة أخرى بكامل أيامها مع العصافير ستكون أكثر روعة من ذلك الصراخ الذي أسمعه متصاعدًا من حناجر الطلّاب كلما مررتُ بجانب المدرسة! وسيبقى لي شَعْرُ رأسي، ولن يجبرني أحدٌ أن أحْلِقه على الصِّفر. قال الصغير، وهو يرى أن كلّ شيء حوله يكبر، الأولاد بملابسهم المدرسيّة، البيوت بجدرانها ، الشوارع بأقنيتها والشبابيك بزجاجها الذي تجرّأ بعض الناس حين أبدلوه بخشبها وقالوا: على الأقل نرى وجه ربّنا.

واحتار هو طويلًا في هذه الجملة، وتمنّى أن يكون لهم شبّاك زجاجّي يطلّ منه، ليرى وجه ربّه. تحيّن فرصًا كثيرة للوصول إلى شباك زجاجي، إلى أن غيّر أهل خليل شبّاكهم، استرق نظرة عبره للخارج، فلم ير غير القطعة الزرقاء،

وحين ارتفع أكثر، رأى امتدادات السّهل وصعودها إلى الجبال قاطعة وادي "الزّمَم" وسكة الحديد.

قال: هذا أراه كل يوم.

وأسرّ لخليل: لا يستطيع الإنسان أن يرى الله من شبّاككم!

***

مضى في الشوارع. شغلته الشبابيك فجأة، الشبابيك بارتفاعاتها في بيت أبي فؤاد، بأنوارها التي يمكن أن يراها المرء من أيِّ موقع في المخيّم؛ بانخفاضاتها القريبة من الأرض في بيوت أخرى، وكأنها ستهبط بعد قليل إلى مستوى الأبواب، شبابيك مُغطّاة بقطع البلاستيك، شبابيك تحميها عوارض متصالبة مثبتة بالمسامير، شبابيك لا يشتعل فيها ضوء.. يسكنها أعمى، وشبابيك تُلوِّح في الهواء، تصطدم بالجدار مرّة وبإطارها مرّة، فتصدر أصواتًا لم تعد مزعجة لأنها معتادة، شبابيك تشبه الفخاخ، يمنع انطباقها ذلك العوْد الصغير المثبَّت بعناية في إطارها.

وشبّاك (حنّون) الذي عُلِّقتْ به أوان صفيحيَّة مزروعة بالريحان والنعناع، وداليتها التي تطلُّ من فوق السور.

وعَرَقهُ المنساب بين كتفيه.

عرقه أم دموعها؟

هل تمنّى الصغير أن يراها نادمة؟

ألعبةٌ خفيَّة لعض الأصابع هذه التي يمارسانها، وما الذي يمكن أن يراه لو نظر إلى الدنيا عبر شبّاكها؟ ولماذا يرتجف كلّما نظر إلى الشبّاك وحاول أن يرى ما في الدّاخل؟

مشغولًا بعصافيره، وشبّاك حنّون، بقي هكذا، إلى أن اكتشف أنه أصبح مَضْحَكَة.

***

تناسى "سعود الشَّرَّاني معركته مع الصغير، نتائجها.

- لقد غدر بي. قال.

لكن حدود التَّحرش بالصغير لم تتّسع كثيرًا.

- شو؟ أليست لك "حمامة"؟!!سأله سعود.

- لا، أنا لي عصفور!

- الآن فهمنا، لماذا لا يعنيكَ أن تنظر إلى البنات!!

ضحكوا كلّهم.

أصبح الصغير مَضْحَكة، وفهم الأمر متأخِّرًا.

كان الصِّبْية منشغلين بلعبة أكثر إثارة، لعبه البنات. سعود الشرّاني، سمير، وحتى خليل الذي أخذ يتغيَّب عن الصيد أحيانًا بحجَّة الواجبات المدرسيّة. لم تعد العصافير تبني أعشاشها سوى هناك في رأس الصغير وحده، ولم تعد هناك ضرورة لأن يُعلِّمها كلّ هذا الحذر.

***

شدّه خليل من يده: معك "قرشين"؟

- لماذا؟

- أريد قرشين.

- لماذا؟

- سنعطيها لسميرة.

- أخت سمير؟ لماذا؟!

- سنلعب عروس وعريس. قال خليل، بعد أن تلفّتَ حوله.

ابتلع الصغير ريقه.

- أهذا ممكن؟ سأل.

- ممكن إذا كنت "فِلِح". قال خليل.

- كيف؟

- لا عليك ، سأريك. لن تفعلها هذه المرّة، ولكن في المرّة القادمة، اتبعني.

تبعه الصغير إلى أكثر الأمور غموضًا في حياته. دخلا زقاق بيت سميرة، تمشّيا هناك وفي عينيهما بريق لصوص يرصِدون المكان.

لم يَطُل الوقت، انفتح الباب، أطلّتْ سميرة، بيدها صفيحة مليئة بالماء، دلقتْ ما فيها في الزقاق، أشار إليها خليل. هبّ الترقُّب في عينيها، تطلّعتْ بقلق

إلى طرفيّ الزّقاق، لم يكن ثمة أحد. انطلق خليل باتجاهها، تبعه الصغير وقدماه ترتجفان. حين وصلاها همس خليل، بكلمة واحدة: الحقيني!

قالها دون أن يتوقّف. ابتعدا خطوات.

وقال للصغير: لا تنظر خلْفك.

حاول ألّا ينظر، إلّا أن الأسرار التي تركها وراءه كانت من القوّة بحيث أدارتْ عنقه ، فاستدار وحده.

- فَضَحْتَنا! أطلقها خليل من بين أسنانه.

وعندما لم يلمح أحدًا، خفّف تأنيبه: كنتَ ستفضحُنا.

ولم يكن للصغير رئتان ليتنفّس منهما، أو لسان لينطق به حرفًا واحدًا، فظلّ صامتًا.

وصلا إلى نقطة التقاء الزقاق بالشارع، توقّفا هناك.

يمرّ بهما الغروب والناس، الشّمس على وشك الاختفاء، وقلب الصغير الفَزِع أيضًا.

وأطلّتْ سميرة.

جاءت مسرعة، تجاوزتهما، تبعها خليل، حاذاها، همس بكلام غامض، أبطأ قليلًا، فتجاوزته مبتعدة بخطوات سريعة، مال للصغير، شرح له دوره، فَهِمَهُ غير مُصدّق، وركبتاه لا تتوقّفان عن الارتجاف.

ثم عاد وسبقه.

***

منتصبًا كان الحَمّام في الفسحة الضيّقة.

حَمّام ببابين غير موجودين، لكن الجدار ينعطف في زاويتين قائمتين ليستر مَنْ في الحجرتين الصغيرتين كملاءة لا تكتمل استدارتها.

ولم يكن هناك ضرورة لوجود الباب، ما دام الناس يتنحنحون عند وصولهم، فإن سمعوا نحنحةً في الداخل، ذهبوا، أو انتظروا حتى يخرج مَن في الداخل.

خاليًا كان الحَمّام بجناحيه عندما وصلوا، دخل خليل، ودخلتْ سميرة وراءه دون أن تلتفتَ خلْفها. تجمَّد الصغير قرب الباب، على بعد أمتار.

الغموض كلّه في الدّاخل، والذُّعر يرفعه بيدين سِرِّيَّتين ويتركه مُعلقًا في الهواء على بعد خطوات من الأرض.

أحد الرجال تقدّم باتجاهه، تقدّم بخطى رجل محشور! وجْهَتُهُ الحمّام، لم يكن ذلك يخفى على الصغير، الصغير الذي لم يجد قدميه، الصغير الذي أدرك أنّ الكارثة ستهبط بكاملها على رأس خليل وسميرة، الصغير الذي نسيَ الوصايا كلّها، وصايا خليل، الصغير الذي تذكّرها فطار يسبق الرّجل، بعد أن أوشك على الدّخول، الصغير الذي التفتَ للرجل حين قبضه من كتفه وقال له برجاء: مسهول يا عمِّي!! فواصل الرّجل مسيره باتّجاه الجزء الثاني من الحمّام.

عند نقطة الجدار الأخيرة، قبل لحظة من الوصول لرؤية كل شيء في الدّاخل ، وقف الصغير هناك، أخرج "حمامته" على عادة أولئك الذين يصرُّون دائما أن يبولوا قرب الباب، على عادتهم السيئة تلك، فوجئ بحجمها، فوجئ بهذا التحفّز الذي تُبديه، أحسّ برغبة ما تدعوه لعضّ أيّ شيء، الهواء أو الجدار، أو عتمة الساعة السادسة الغامضة.

.. خرج الرجل من الجانب الآخر، حانت منه التفاتة باتّجاه الباب، حيث الصغير منتصبًا هناك.

- مسهول يا نصّاب، مسهول؟! على الأقل بُلْ في الداخل!

قالها الرجل مداعِبًا أكثر منه غاضبًا، ومضى بخطوات رشيقة غير تلك التي أتى بها!

تنبّه الصغير، فوجد حمامته على وشك الاختناق بين يديه، أرخى أصابعه، ولم يَبْدُ أنها تنفّست؛ مثل "كُرْزُم" الفخِّ كانت، حركة واحدة ويندفع للخلف، ويتقدَّم الفكّ العلوي للأمام مُنطبقًا في لمح بصر.

جاءه الصوت من الداخل: راح؟

صوت خليل الذي أصبح فجأة مبحوحًا!

- راح. أجاب الصغير. بصوت أحسّ أنه ليس صوته.

ونسيّ أن يبتعد، وهو يسمعه يطالبها أن تعود فتخلعَ سروالها من جديد.

- إنتبه، حتى لا تكون هناك فضيحة.. وأحبَل!!

- اطمئني.

- خلاص، يكفي.

همس متوسّلًا: كمان شويّ!

- الآن سيفتقدني أهلي ولا يجدونني.

- لا تخافي.

دفعته.

رأى الصغير كتفه، يديه ترفعان بنطاله، نسيَ حذره كلّه، نسيَ مهمته.

خرج خليل مسرعًا، اصطدم به، وقعَ، فوجئ بوجوده قريبًا من الباب، نهض الصغير بسرعة، حدّق مذعورًا في أطراف الساحة، في نهايات الأزقة التي تصبُّ فيها.

- كنت ستفضحُنا.

- لولاي لكنتما انفضحتما.

بعد قليل خرجت سميرة، ولم تكن نفسها سميرة التي دخلت. سرًّا عاريًا أمام عينيه كانت. ووجد الصغير لسانه.

- وأنا؟!

- ماذا؟

- دوْري؟ متى أدخل معها؟

- سأقنِعها، ربما توافق، وربّما لا، عليك أن تحضر قرشين أولًا.

وتمنّى أن يزورهم خاله، تمنّى أن يذهب للبيت طائرًا ويجده هناك.

في الشوارع راح يخبُّ، يغمره إحساس بأنه مضحكة، وهبيلة، وأن لعقْلِه أجنحة لا تنفع جسده هذا الذي له ذَنَب. أحسّ بصاحبه يسبقه، في هذا الصَّيد الذي لا يشبه الصَّيد في أيّ شيء. صيد بمذاق خاص، يلتهب فيه البدن، وتختلط الدّنيا.

***

- أقنعتُها. قال خليل.

- ماذا قلتَ لها؟ سأل الصغير.

- قلت، لا تخافي، لا توجد له حمامة، يوجد له عصفور!!

غضب الصغير، تمتم بكلمات من تلك التي يردّدها سعود الشَّرّاني، الكلمات المتعلِّقة بأعضاء الأمّهات والأخوات، وابتعد.

لحقه.

- ما لك؟

- أهكذا تتحدّث عني، عن صديقك مع البنات؟!

- كنت أمزح، المهم أنها وافقتْ، المطلوب إحضار قرشين فقط.

- من أين آتي بقرشين؟ سأل الصغير.

- بعْ عصفورًا، مثلما فعلنا مع أمّ ثريا وفؤاد.

كان خليل يتحدّث معه وكأن المشكلة مشكلة الصغير الخاصة وحده، كأن الصغير لم يُعْطِهِ القرشين اللذين أدخلاه جنّة سميرة.

- لن يشتروا مني الآن، فؤاد بقي في صفِّه، ويحسُّ أننا ضحكنا عليه.

- وأمّ ثريا؟ سأل خليل.

- أمّ ثريا، خلاص، ارتاحت الآن ، ولا أريد أن أُذكّرها بموت أولادها الذين تراهم أحياء في أحلامها كلِّ ليلة.

- والحلّ؟ سأل خليل.

- لا أدري.

- لماذا لا تعطيها عصفورًا؟ سأل خليل.

- وماذا ستفعل به؟

- ستكون حرّة بأن تفعل به ما تشاء، تأكله.

- لا أوافق.

- إذن عليك أن تُحضر قرشين.

- ألا يمكن أن يتمَّ الأمر دون قرشين.

- لا، لا يمكن، فهي لا تحبّك. قال خليل.

- وكيف سألعب معها عروس وعريس إن كانت لا تحبّني، سأبحث عن واحدة تحبّني!

- لن تجد من تحبّك هناك في السّهل، لأن البنات هنا في الشّوارع. دعها تأكل العصفور أو تفعل به ما تشاء؟

غضب الصغير، صرخ: لا يمكنك أكل العصفور لأن معك ثمنه، لا يمكنك أكله لأنك تستطيع اصطياده أو الحصول عليه.

- اتفلسف يا خوي، اتفلسف! قال خليل، وتركه.

***

عند الغروب مرّ سمير بالصغير.

مُثقلة أطراف حزامه بالفخاخ والعصافير المُعلَّقة، مرَّ وابتسم. نزلت يده، حركّت الفخاخ فأصدرت صوتًا، وأرجَحَتْ العصافير ذات الرؤوس المقطوعة.

سؤال مرّ هزّ أركان تلك الليلة في عيني الصغير..

- هل نَسِيَتِ العصافيرُ حذرَها؟! هل عاد سمير ليأخذ بثأره؟

***

قوّة غامضة شدّت يد الصغير، استجابت ، وراحت تتحسّس العتمة، اصطدمت هناك تحت "النَمْليَّة" بكتاب، كتابه الوحيد، وفكّر في هذا العناد، هذا التَّحدِّي الذي يواجه به نفسه قبل حنّون، وفكّر بعنادها.

تحسّس الكتاب، قَلَّبه في يده، لم يستطع أن يعرف في الظلام على أيّ وجهٍ وجهُ حنّون، حنّون الباكية. لم يستطع استحضار وجهها. لم يستطع استحضار صورتها وهي بين يديه، استحضر غيابها، لعنادها التي طالت أخيرًا "الأسكيمو" الحمراء، حين طوّحتْ بها بعيدًا، لأن عينيه ظلّتا مسمَّرتين في الأرض في زيارتها الأخيرة وأمّها لبيتهم، حين لم ينتبه لرسالتها، لاحمرار شفتيها المصبوغتين، لاستطالة عنقها وجبينها المرفوع.

- يلعن الأسكيمو.

تذكّر غيابها، ومرور سمير بينهما، وقوفه، عظام العصفور تحت أسنانها. وأخذته العتمة للنوم.

***

دفعته أمّه من كتفه.

فتَحَ عينيه.

عاد وأغمضها.

- حِلْمٌ، أم عِلم؟

في يدها قطعة لحم حيّة، تتفلّتْ ، شبه ضفدع كانت. ارتجف.

- عصفور؟!

- أرسله إليك من لا يخاف الله.

- سمير؟

- سمير.

تناول العصفور من بين أصابعها، قطعة باردة من اللحم، عارية تمامًا، وفي عينيها عراء صقيعي مكسور، وقانط.

نهض الصغير، أحضر علبة، بَطَّنَها بقطعة قماش، وضع العصفور فيها. دسَّ قدميه في حذائه وانطلق يركض بكلّ ما فيه من قهر. يركض كما لو أنّ عصافير العالم كلّها ستقع في الفخِّ وتموت دفعة واحدة. يركض ، لكنّه لم يستطع اللحاق به قبل دخوله المدرسة.

أفلتَ سمير.

- لكن لا، سأنتظره هنا.

أسند ظهره إلى السّور. غضبٌ قاتل يُفتّتُ أضلاعه، غضبٌ جمرٌ لم ينطفئ حتى بعد مرور الحصة الأولى، وجرسها، الثانية وجرسها، الثالثة وقدوم الفُسْحة، وانتشار الطلاب، سباقهم باتّجاه باعَة الكعك والهريسة وكرابيج حلب وشَعر البنات.

مئات الطلاب.

رآه، اندفع باتجاهه، شاهده خليل من شرفة الطابق الثاني، اندفع هابطًا الدَّرج.

قفز الصغير قفزته الوحيدة، قفزة النَّمر المحتشدة في دمه منذ بدء الحياة، الضحية تحته تقتلها المفاجأة أكثر مما تقتلها الضربات. دبّت الفوضى، قبل أن يعرف سمير من يهاجمه، قبل أن يستدير، قبل أن..

أطبقتْ يدُ أحد المُدرِّسين على رقبة الصغير، رفعته عاليًا، فراحت قبضتاه تلكمان الهواء دون جدوى. رفع سمير وجهَهُ المغموسَ بالتراب، وعندما رأى

الصغير في قبضة المُدرِّس حاول أن يندفع إليه، إلاّ أن صفعةً واحدة باغتته من اليد الكبيرة أعادته إلى وعيه، فبدأ يبكي.

قال المُدرّس: قدّامي، إلى المدير.

هتف الأولاد وكان خليل قد وصل: هذا مش طالب!

أدرك المدرّس أنه لا يستطيع معاقبته لأنه ليس من رعاياه، لكن ذلك لم يمنعه من توجيه صفعة إلى عنقه، مُعزّزة بتحذير حاد: إياك أن تعود إلى هنا، إن رأيتك ثانية سأكَسِّر رجليك.

انفلت الصغير راكضًا. دفع المدرّسُ (سمير) إلى غرفة المدير.

وهناك، من بعيد كان باستطاعة الصغير أن يعدّ العصي التي انهالت على كفّيه. هدأ غضبه، عاد للبيت بخطى ثقيلة.

- سيموتُ العصفور.

كانت هذه الحقيقة وحدها التي تحتلُّه.

***

مال إلى العلبة، وجده مقرفصًا هناك، خَجِلًا بعرْيه، هل تخجل العصافير؟! ردَّ طرف قطعة القماش عليه، لم يبق من العصفور غير منقاره وعينيه.

- العَرْص، القوّاد، لم يترك ريشة واحدا!.

- اذبحْه وأَطعمْه لإخوتك. قالت أمّه.

حدّق في إخوته. انساب لعاب حار على أطراف أفواههم.

- لن أذبحه.

- سيموت.

- الموت أهون من الذبح.

ابتعدت أمّه، وفقد إخوته الأمل بالتهام العصفور.

وصرخت سُهى: اذبحه.

قال: كم تشبهينها، أمّك.

وكم تمنّى أنه لم يقلْها، تلك الجملة.

انفجر شلاّل دمع، بكت سهى، شهقت، راحت في نصف إغماءة، ارتبك، اقترب منها.

- ولكن أمّكِ ليست سيئة لتبكي هكذا إذا ما قلتُ لكِ إنك تُشبهينها.

غادر البيت هاربًا ثم عاد، فوجدها تبكي.

وفجأة صرخت: أنا لا أُشبه إلاّ نفسي، فاهم؟!

***

أكملت الشمسُ نصف دورتها.

توسّطت السماء تجلّلها غيوم رمادية، تنفلتُ عبر فسحاتها، تُشرق لحظة، تختفي، وتطول العتمة.

ظلٌّ ثقيل ارتمى فوق كَتِفَي الصغير، واختلط الظلُّ بظلّ آخر فازداد ثِقله، تنبّه لذلك، عرف أن شخصًا يقف وراءه الآن. استدار.

- خليل؟

ولم تكن ثمّة حاجة لقول الكثير من الكلام والصُّندوق بين ساقيه.

أطلّت أمه: قلْ له أن يذبحه بدل أن يذهب خسارة!

حدَّق الصغير في خليل، تمنّى ألاّ يطلب منه صاحبه الوحيد هذا الطلب. فلم يطلبه.

انسحبت الأمّ، انشغلتْ بنشر الملابس على حبل الغسيل، ولم ينشغل إخوته بغير قطعة اللحم تلك.

هزَّ خليل صاحبه بحركة خفية لها أسرارها، أشار إليه أن يتبعه.

حمل العلبة، دخل الغرفة، أحضر كُرسيّا، رفعها فوق النَّمْليَّة، اطمأن لارتفاعها عن الأيدي الجائعة، تبعَ صاحبه.

- كيف سترُدّ؟ هل ستسكتُ على هذا؟ سأله خليل.

- لا، سأعود للسَّهل الشَّرقي من جديد.

- هذا لا يكفي.

- وما الذي أستطيع أن أفعله غير ذلك؟ سأل الصغير.

- سميرة. أجاب خليل.

- ليس معي أي نقود!!

ومرّ سمير..

على جنبيه فخاخ كثيرة، ألقى نظرة سريعة ذات معنى عليهما وهبط إلى السهل.

هذه فرصتنا. قال خليل. نستطيع الذهاب إلى سميرة وهو منشغل بالصَّيد. وصمت خليل طويلًا، ثم قال: لديّ فكرة، أعطِها العصفور المنتوف.

- فِكْرَكْ؟! هل تقبل؟

- نُجرّب.

عادا إلى البيت مُسرعَين، صعد الصغير، أنزل العلبة المعدنيَّة، وحين ناوله إيّاها صاح خليل: العصفور ميت!

صاحت أمه: قلت لك اذبحه بدل أن يموت هكذا!

- يموت أفضل من أن أذبحه. عاد يُردّد.

***

تمشّيا في زقاق بيت سميرة، طال ذلك، الخوف من عودة سمير يزداد. أطلتْ. أشار إليها خليل أن تنتظر. اقترب منها.

- تيجي نلعب؟

- الدنيا نهار، أخاف.

- صاحبي أحضر لكِ عصفورًا.

- أينه؟

- أخرج العصفور من جيبه، جثته زرقاء، ورأسه بجانبه.

صرخت: هذا فطيسة!

قال: كيف؟

- هذا ذُبح بعد أن مات، لا يوجد دم!

- أُقسِم أنه ذبحه بيده.

لم تصدّق: أحضِرْ عصفورًا حيًّا إذا أردت.

قال: لستُ أنا صاحبي.

- صاحبك، يقال إنه الأشطر في الصيد. إذا كان هو أريد عصفورًا كبيرًا.

وطرقت الباب خلْفها وتوارت.

ألقى بالعصفور إلى آخر الزقاق، سقط الجسد في جهة والرأس في جهة. اندفع قطّان، كأنهما ينتظران النَّتيجة منذ زمن ويعرفانها. اختفى الرأس في جوف القط الأوّل، والجثة الصغيرة في جوف الثاني.

وراقب الصغير المشهد بلا اكتراث.

***

لم تقبل الذهاب إلى الحمّام إلا بعد أن أمسكت العصفور وتفحَّصته.

قالت: يمكن أن تكون رِجْلُه مكسورة، أو جناحه!!

سألها: ستأكلينه؟

قالت: نعم، سآكله.

تناسى إجابتها، دفعها بعيدًا، تذكّر بأن هذه المغامرة التي تنتظره أغرب من أيِّ شيء مرَّ عليه في حياته.

- لتأكل العصفور، كل الناس تأكل العصافير!!

لم تستطع وضعه في البيت، دسَّتْه في جيب فستانها في البداية ويدها عليه.

سبقاها إلى الحمّام، الحمّام الذي لن يكون نظيفًا كالعادة، لكن ذلك ليس مُهمًّا، من يتذكّر؟ من ينتبه؟!

قال لها خليل: أعطيني العصفور لئلا يطير.

قالت: تريد أن تضحك عليَّ وتهرب به؟

العصفور في يدها، تقبض عليه وكأنها تستخدم يدها للمرَّة الأولى في حياتها، انشغلت بالعصفور، نسيت الصغير، محاولاته العديدة للوصول إلى نقطة التقاء الفخذين الصغيرين.

قالت: أنت قصير.

ولم يكن قصيرًا، كانت أكبر منه.

خرج ليُحضِرَ طوبة، يحضر أيّ شيء يرفعه شبرًا عن الأرض.

رآه خليل صرخ: صرت مخلِّص؟!!

لم يُجبْ، اندفع يبحث، وجدها، عاد.

: انتبه أحسن يجوزوك إياها!!

لم ينتبه الصغير، لم يرَ أحـدًا، لم يـر شـيئًا غـير بنطـال سـميرة المُنــزلق حتـى الرُّكبتين.

عادت لترفع فستانها الذي أنزلته حـين خـرج، فبـدا ذلـك الـشيء العجيـب واضحًا أكثر من سماء، أكثر من أيّ تحذير سمعه.

صعد..

قالت: انتبه.

فستانها المتكوِّر عند خصرها، ووجهـه القريـب مـن صـدرها، انـشغاله بيـده وذلك المُتفلّتُ منها لصِغَره، رطوبة اللحم، دفـؤه، دهـشة الاكتـشاف، الترقّـب والرَّهبة، كلّها لم تمنعه أن يسأل فجأة: بتحبِّيني؟!!

قالت: لا، شو ها السؤال؟! عيب عليك تسأل هيك أسئلة!

عندها ، تذكّر العصفور.

التفت إليه، فاجأته عيناه الباردتان. كان ميتًا.

طَوال الوقت كانت تضغط عليه كلّما أحسّت بخطر.

ارتبك الصغير: رفع بنطاله، هرب.

تبعه خليل، طلب منه أن يتوقّف، لم يتوقّف. أن يخبره عمّا حدث في الـداخل، لم يخبره.

واكتشفت سميرة برودة جسد العصفور قبل أن تنظر إليه. لحقـتْهما، نـادت: خليل.

توقّف خليـل، وواصـل الـصغير سـيره دون أن يلتفـت. قالـت: العـصفور بينازع!!

وناولته إياه، اجتثَّ رأسه. لم تقلْ إن الدم لم ينزل. لم تقـلْ إنـه لم يتحـرّك بعـد ذبحه. أخذته، دسَّته في جيبها، وكذلك الرَّأس، ومضت!

30

سأله مديرُ المدرسة عن مكان الألم، فأشار إلى صدره.

كانوا يركضون خلف الكُرة الكبيرة، الكرة الحقيقية، التي كانوا يركِلونها بغُلٍّ أكثر مما يلعبونِ بها، وكان يسبقهم ، يركض كما لو أنه يريد إخراج عصفور من الفخّ، لكنّه تعثّر، فسقطوا كلّهم، صفٌّ كامل من التلاميذ انهارَ عليه.

- ربما انكسر واحد من أضلاع قفصه الصَّدريّ.

قال المدير، وهو يتفقّد صدرَه وآثار نزيف داخلي على جلده.

سأل الصغير: أيّ قفص؟

- قفصُكَ الصَّدريّ. ردَّ المدير.

- هل لديّ قفص في الداخل؟!

- نعم.

هنا بكى الصغير.

- ألهذا لا أستطيع أن أطير؟!

وحاول المدير تهدئته، المدير الذي أحبه لحظتها. أمسكه من يده وقال: هيا معي. وحين لم يستطع السَّير دون أن يتألم، حَمَلَهُ.

- سنصل الطبيب.

الصّغير يبكي، يتفلتُ، يتحسَّسُ صدره برُعب، والمدير يطمئنه: لا عليك، سيُصلح الطبيب كلّ شيء ويُعيده إلى ما كان.

والصغير يصرخ: أريد أن يبقى القفص مكسورًا، لا أريد أن أظلَّ هنا. ويشير إلى صدره: أريد أن أخرُج!

تفلَّتَ من بين يدي المدير، وتفلَّت من بين ضلوعه، بحث عن فُسحة يخرج منها، بحث عن الضلع المكسور، وحينما وجده حاول أن يعبُر من هناك، لم يستطع، كان رأسه أكبر بكثير من فسحة ضيّقة بين ضلعين يحرسان ضلعًا مكسورًا.

***

- عليك أن تهدأ. عليك أن تُطيعَني حتى أُخلِّصك من الألم. قال الطبيب.

- يتالّم لأن هناك قفصًا في صدره! همَس المدير.

- لم أضعِ قفصًا هنا! صرخ الصغير.

- في كلِّ إنسان قفص، وهذا ضروري لحماية القلب والرئتين. قال الطبيب.

- مَنْ وضعه هنا؟ صرخَ الصغير.

- الله.

- الله، لماذا يضع الله القفص هنا؟

- لأنه يحبّنا ويريد أن يحمينا. أجاب المدير.

- لا يستطيع أحد أن يحمينا ونحن في القفص، لا نستطيع أن نحمي أنفسنا!

ورأى الصغير عشرات القطط تتسلّق جسده ، تمدُّ مخالبها عبر الفسحات الضيِّقة، وقلبه يلهث.

***

على باب الدار توقَّفَت السيارةُ، هبَّتْ عائشة ورغوة الصابون تتطاير من بين أصابعها. نزل خليل من سيارة الوكالة البيضاء "الرِّينو"، فرِحًا كان، لأول مرّة يركب التاكسي الخصوصي! ناسيًا ما حدث للصغير، فخورًا بنظرات الحسد التي يُمطره بها الأولاد الآخرون.

***

ليال طويلة قاسية مرّتْ. لم تهدأ حركة الصغير، تفلّتَ من بين أضلاعه، دون جدوى. مرَّت حنّون، ناداها، مدَّت يدها، مدّ يده، لكن يدها في اللحظة الأخيرة ابتعدت جانبًا إلى قطعة لحم صغيرة مشويَّة، تناولتْها، طحنتْها بين أسنانها. صرخ.

استيقظ وجد نفسه وحيدًا، عاد لتحسُّسِ صدره، ولأوّل مرة في حياته استطاع أن يتلَّمس قضبانَ قفصه، وبكى، بكى كثيرًا لأنه هناك.. في الدَّاخل.

29

فتح الصغير عينيه ، وجدها هناك على الحائط، صورة الفتاة الجميلة ذات العينين الدّامعتين، لم يُصدّق، كانت أكثر جمالًا في ذلك الإطار والورق الترابيّ اللاصق الذي أحاط بها.

أمّه كانت صرخت: قرفْتَني عيشتي.

كان لا يكف عن إخراج الكتاب والنَّظر إلى الصورة، ولم يكن سمِعَها تقول هذه الجملة إلا عندما وجدت الفئرانَ الصغيرة في الصّندوق الخشبيّ بجانب النَّمليَّة. ولدت الفأرةُ هناك. فقالت وهي تُلقي بها للقطط في الخارج: قرفتيني عيشتي.

لكن أباه اكتشف في الصورة شيئًا جميلًا، انتزع الغلاف، وكان الصغير قد قلَّل من إسرافه بعد جملة أمّه، فلم يعد يخرج الكتاب كثيرًا.

هناك وجدت الصورة مكانها، وهناك، تحت الجدار المقابل كان بإمكان الصغير أن يجلس ساعات دون أن تسأله أمّه لماذا لم تعد تخرُج؟! أمّه التي ارتاحت من خوفها عليه، أمه التي أضيف إلى غرفتها برواز آخر، وكان الأول قد رافقهم في أكثر من مكان، أكثر من مغارة، وإن لم يُعلِّقوه أحيانًا، البرواز الذي كتبه خاله بالخط الفارسيّ، وأهداهم إياه (هذا من فضل ربّي)!

***

بخمسة فخاخ تلمع..

وعينين متَّقدتين..

متخفِّفًا من ثيابه، وشادًّا حزامًا جلديًّا على خصره، حزامًا لم يكن له، أحدثَ فيه ما شاء من ثقوب جديدة، وزرَّره بإحكام. رأسه للأعلى، كأنه ابتدأ بمراقبة الطيور فور خروجه من الغرفة.

هكذا كان الصغير، وهو يهبط التلّ نحو السَّهل.

تأخّر خليل، فلم ينتظره: سيلحقني. لن يُضيِّعني في هذا السهل.

السّهل المنبسط تحت الصخرة البيضاء ومكبّ النفايات، السهل الذي يحدُّه سياج "مستشفى الأشرفيَّة" وشارع وادي "الرِّمَم" النحَّيل المليء بالحفر وغبار الكسّارات.

لم يكن بحاجة إلى تذكُّر أيّ شيء؛ كلُّ شيء فيه. نصب فخاخه في أكثر المناطق ملاءمة للعصافير.

اصطاد الدُّفعة الأولى، أدهشه أنها تقع بهذه السُّهولة في الفخاخ، لعلَّها جديدة، لم يكن بحاجة لشهادة من أحد أنه اصطاد وأنه أطْلَقها.

يُحضِّرُ الفخَّ الذي ينطبق ويعلو غباره، ويندفع باتجاه الثاني. كم كانت العصافير كثيرة ذلك الصّباح، كم كانت قابلة للوقوع في الفخاخ.

***

لم يهبط خليل وحده ليناديه.

عشرات الأطفال هبطوا.

وكانوا ينادون بكل ما في حناجرهم من قوّة. كان بإمكانه أن يسمعهم. بعضهم توقّف عند الصَّخرة البيضاء، بعضهم تجاوز مكبَّ النّفايات، بعضهم أدرك أنه سيعود فتوقَّف حيث تعب، وظلَّ خليل يركض.

شيء غريب أحسَّه الصغير، خطر ما، يدفع كل هؤلاء للرَّكض باتجاهه.

حين وصله خليل، حين قال له فزِعًا وهو يرتجف: الحكومة أخذتْ أباك. لم يُصدّق ، فأبوه الآن يعمل، أبوه لا يأتي إلّا ليلًا، وإن كانت الحكومة ستأخذه ، فعليها أن تأتي وهو موجود. ثم لماذا تأخذه؟! وما الذي فعله؟!

– إنهم يُفتِّشون البيت! قال خليل.

دبّ فيه الفزع، شدّه خليل، ركض معه، وهو يُدرك أن هذا قد يكون واحدًا من أكبر المقالب التي يتعرَّض لها. ركض، وركض خليل خلْفه. تجاوز الصِّغار،

الصِّغار الذين لم يضحكوا، الصِّغار الذين لم يهتفوا: (خيرها بغيرهـا!). الـصّغار الذين كانوا خائفين، ونظرات الرُّعب تتساقط من أعينهم.

وصلَ، ولم يكن قد تبقّى له ما يراه.

فتَّش الصغير بعينيه عن أبيه؛ كلُّ ما يحدث كـان يـشير أنـه الآن في صـندوق السيارة، لكنه لم يره. هل هو هناك حقًّا؟!

لم يحسم ذلك سوى بكاء أمّه، تفلّتِها باتجاه الأزرق الرَّماديّ لـسيارة الجيـب. دفعها الشّرطيّ بعيدًا، مدير المخفر، ورجال لا يرتدون الـزِّيَّ العـسكريّ ، عـلى خصورهم مسدسات، وفي نظراتهم غضب. لكن عائـشة لم تتراجـع، لم يتراجـع الصغير، ولم يتراجع إخوته، من كان يحبو، ومن كان قد وجد خطاه..

هبط ثلاثة من العربة، شدّ أحدهم عائشة من شعرها، شدّوا الصغير، دفعـوا الجميع إلى الحوش، ثم إلى الغرفة وطبقوا البـاب. أشرعتـه عائـشة. حانـت مـن أحدهم التفاتة إلى الأرض، رأى شاكوشًا، بحث عـن مـسامير، وجـدها، وبـدأ بتثبيت الباب بها. يَطْرُق، والعتمة تزداد في الداخل. لكن عائشة فتحـتِ النافـذة على الشارع، أحسّوا، استداروا إلى النافـذة وأخـذت المـسامير تخـترق الخـشب وتستقرّ في عتمته قاسية.

لم يعد هناك سوى الصَّوت، صراخ عائـشة وصـغارها، الـصراخ الـذي لـن تستطيع مسامير الدنيا أن تنغرس فيه وتكتمه.

وكانت الحارة ترتجف.

والخبر يطير إلى كل أنحاء المخيم: لقد وجدوا بندقيّة في بيتهم.

***

ليل مبكرٌ نزل على الأرض من أعاليه، احتلّ الغرفةَ، ليل ثقيـل انهـار علـيهم في زواياهم، قبـل أن تبحـث عائـشة عـن صـغارها وتتحسَّـسهم، لتتأكـد مـن وجودهم هناك.

كانت سيارة الجيب قد ابتعدت من زمن، وتلاشت الأصوات.

طَرَقَت عائشةُ الباب، طرقت النافـذة، وهياكـل الخـوف مُنتـصِبة عـلى بُعـد خطوتين. الزّمن يمرّ ليليًّا، كالحا، لا يكسره سوى صرخاتها وصـمت صـغارها المريب. ولم يتقدَّم أحد..

من يقدِر على الحكومة؟! من يعصي أوامرها؟ أشجع الشّجعان لا يستطيع سماع صوت "جمال عبد الناصر" إلّا تحت اللحاف، قابضًا على المذياع كما لو أنه جمرة، من يستطيع أن يتكلَّم في السياسة؟ أوَ ليس للحيطان أذان تسمع بها وتُراقب؟ كم مرَّة قالت له أمّه ذلك، وكم مرّة أعاد عليه خليل قصة أستاذهم الذي صرخ: لا أريد كلامًا في السياسة هنا، وكان أحد الصغار قد سأله: إلى متى سنبقى هنا، في المخيم؟!

***

وصلها الخبر.

جاءت تجرُّ نفسها، عبرتْ من بينهم ، لم يتحرَّك أحد، وحين انحنتْ لتلتقط الشّاكوش قالوا في أنفسهم: الآن نستطيع القوْل إنها مجنونة. كانت أمّ ثريا. بدأت تعمل على فتح الشّباك، قبل أن تستدير إلى الباب وهي تردّد: يا عيبكوا!

وحين أشرعت النافذة وسقط الضوء فجأة وغمر الغرفة، وانبثقت في الشُّعاع جملة (هذا من فضل ربي!) وصورة الصغيرة الباكية، رأتهم هناك كلّهم.

دفعتْ بابَ الحوش، فاندفعت التماثيل وجِلَة خلْفها. ولكن قبل أن تصل للباب، كانت أكثر من يد قد امتدّت لتأخذ الشاكوش من يدها.

عندها، جلست أمّ ثريا وبكتْ، ومن بين دموعها قالت: هاتوا لي الصغير. الصغير الذي اختفى في حضنها، قبل أن ينتفض فجأة ويصرخ: آآآآه. انفلتَ، راح يركض، وركض خليل خلفه، والحارة واجمة، هل جنَّ الولد ليلحق بالسيارة؟ لكنه لم يذهب في اتجاه المدارس وساحة الباصات ثم المخفر، اندفع باتجاه السهل.

ومن بعيد كانوا يراقبونه ، ويتذكَّرون ذلك الحصان الذي جَمَحَ وانطلق مجنونًا من طرف المخيّم صاعدًا جبال (القُويْسْمَة)، الحصان الذي أطلقوا النار عليه أخيرًا لكي يتوقّف.

كان الصغير يتضاءل في السهل، ولهاثه يعلو.

ثم جاءت صرخته الأولى..

والثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة..

وصرخته الكبرى، وانهدامه على حجر..

خمسة عصافير ميّتة..

كانت هناك..

باردة في الفِخاخ.

***

وجاء ليل..

ليلٌ طويل..

أطلّوا من رأس الشارع، عرفهم. أطلّوا من شبّاك البيت، سدّوا الباب بقاماتهم، أطلَّ واحد من طوب الحائط، ومن خلف الزِّير، من تحت النّمْليَّة، وامتدَّتْ أكثر من يد إليه، انتزعته من فراشه، طوَّحتْ به في فضاء الغرفة مرَّات قبل أن تقذف به عبر الباب ليجد نفسه هناك وسط الحوْش.

وكان ضجيج.

رأت أذناه عصافير كثيرة قبل عينيه، عينيه اللتين أشرعهما على وسْعِهما دون جدوى.

وانفجر ضوء ساطع، حيث كانت هناك عصافيره المشدودة إلى رقاب بعضها البعض بخيط سميك، عصافيره المفضوحة بأذيالها المنتوفة.

- افتح فمك. أَمَرَهُ أحدهم.

وأغلق الصغير فمه.

- افتح فمك.

وفتحه ليصرخ، ليقول: لا.

أمسكه واحدٌ من كتفيه، رفعه عن الأرض تأرجَح كهاوية، قدماه في الهواء، والهواء أسود.

وامتدَّت يدان خشنتان كبيرتان إلى فمه، أشرعتاه بقوة مجنونة.

تفلَّتَ، بكى. صرخ. لكن رجلًا أخر أمسك بواحد من العصافير وراح يزُجُّ به حيًّا في فم الصغير.

- كُلْ.

دفعَ العصفور خارجًا بلسانه، والتقتْ أعينهما في اللحظة الأخيرة، الصغير والعصفور، كانا يبكيان. وضغطت اليدُ أكثر وظلّت تنزلق إلى أن أوصلته هناك، إلى المعِدة.

تناول عصفورًا أخر وراح يدفعه، وكان يلهث: سيُظلُّ الصباح قبل أن ننتهي.

أوثقوه، وراحوا يزجّون عصافيره داخله، عبر أذنيه، عينيه، فمه.

وفجأة، أفلتَ واحد من عصافيره وطار. تركوا الصغير حيث هو، وراحوا يركضون خلف العصفور وهم يصرخون: قلْ له أن يعود وإلّا ستموت، إن لم يعُد قتلناكَ، فاهم؟

وظلَّ العصفور يبتعد، وهم يبتعدون...

28

لم تتحقق أمنية أم يوسف- أم مريم وعائشة- أمنيتها الوحيدة التي سمعها أولادها صِغارًا، وسمعوها كِبارًا، وستسكن آذانهم ما عاشوا:

- اللهم لا تُـمِتْني إلّا قبْلَه.

وتشير إلى زوجها.

لم تكن تجرؤ على تصوّر الدنيا دونه، سيّد قلبها وروحها ذلك الذي انتصب فوق التلّ سارية، ثلاثة أيام بلياليها، حين رآها تحمل جرَّتها عائدة من النبع.

سيّد قلبها الذي ظلّ واقفًا إلى أن تنبّهت لوجوده كائنات الله كلّها، وخرَّ حصانُه مُتعبًا قربه، وتحلّقت حوْله الطيور دون خوف.

سيّد قلبها الذي هبَّت القرية لتُلبّي طلبه.

- لك ما تريد أيها الغريب، لك الحياة كلّها هنا، أما الموت فلأعدائك!

فأشار إليها.

- هيَ لك.

وكان عُرسًا، لم يكن قبله عرس ولا بعده.. ورجلًا أدركوا سر وفاء حصانه له، وسرَّ طيور جبالهم التي ألفته.

كان يذرع المخيَّم كما يذرع غرفة ضيّقة، كما يذرع زنزانة. يمرُّ بالرجال في المقهى الوحيد يدعونه فلا يجيب. ويعود للبيت: الغربة سجن يا أمّ يوسف، الغربة سجن! ويغيب أياما ويعود: شبابيك بيوتنا مضاءة هناك، كأننا لم نزل فيها. يا أم يوسف اسمعيني. وسمعته، خبّأت أمنية حياتها الوحيدة التي ردَّدتها طويلًا.

- لا أريد أن أموت هنا، فاهمة، أريد أن أموت هناك، لا أريد أن أُبعَث يوم القيامة في أيِّ منفى، لأنني سأكون مضطرًا أن أسير طويلًا إلى وطني، ومن يعرف كيف ستكون أحوال الدّنيا أيامها -ويضحك بحزن- ساعديني في اختصار الطّريق وقولي: الله يُسَهِّل عليك.

لم تبك أم يوسف لحظتها، لملمت روحها، غالبت انكسارها..

- إذا أردتَ أن تعود، لتمـ..، ولم تستطع نطق الكلمة، اذهب، ولكن اختر يومًا أكون قد نسيت فيه أنك تنوي العودة إلى هناك!

ولم تكن نسيتْ حين خرج ذلك الصباح كعادته وراح يذرع المخيم، ورأى الشمس تمعن في سمائها غربًا، فراح يَتْبعها.

***

بكت أم يوسف أمنيتَها التي لم تتحقّق، بكت حالها، وفكّرت طويلًا قبل أن ترفع أمنيتها الثانية للسماء: اللهم لا تُمتني إلاّ وغبار الطّريق على قدميَّ.

سِالكةً طرُق الله كلّها كانت، فلم يَطُل عمرُ الأمنية. كانت أم يوسف عائدة من عند عائشة، فرشت سجادة صلاتِها وراحت تُصلي، وحين أكملت صلاتها لم تنهض أبدًا.

***

تغيّر طعم الغياب.

خالية أصبحت الدّار من الغائب الذي كان غائبًا.

وامتلأ الحوْش بخيمة مريم.

الخيمة التي أصبح لها الآن معنى أكبر، الخيمة التي يمكن أن تُصَدَّقَ، وأن يأوي إليها كثيرون كانوا يرون فيها قلّة عقل.

الخيمة العنوان، التي ستتّسع، لتضمّ مريم والصغير، الصغير الهارب من جدران الغرفة وآذانها، من نافذتها، وتضمه إليها وتقول له: كان يمكن أن تكون ابني، كان يمكن أن تكون! وستكمل العبارة دون أن يسمعها الصغير، دون أن يسمعها المطر المتقافز المُنحدِر فوق الشّادر الأخضر: ولكنني كنت عمياء!

خالته مريم التي فكّتْ حروفًا كثيرة، وقرأت عناوين صحف ورسائل، هنالك في البلد، ويوسف يحتجّ: ما هذه القراءة؟ وينهره أبوه: إنها تقرأ أفضل منك، اسمع ولا تتكلَّم!

مريم التي رأت في جيش الإنقاذ فرسانا يجيئون من بعيد، ويعبرون سهول القرية على صهوات خيول بيضاء.

مريم التي خافت عندما انتشرت المذابح، وبدأ اليهود بذبح قرى، وانتفضت رُعبًا وحُمّى حين سمِعتْ بمذبحة "ديْر ياسين"، مريم التي مازحها أبوها: ربّما كان من حقِّ الجميع أن يخافوا، لكن أنت لا!

وتسأله: لماذا؟

ويردّ: سيعتقدون أنك إنجليزية، وأننا اختطفناك.

فتردّ: أوَلَم يذبحوا الإنجليز أيضًا، أولم ينسِفوا فندق الملك داود؟

ويصمت أبوها.

- سيذبحونني قبلكم. تضيف.

مريم التي اتّسعتْ عيناها، ظلّت ترى كلَّ يوم أكثر، كأنّ بيوت المخيّم كانت القاع وخيمتها القمَّة.

***

كثيرون كانوا يعرفون عن مريم وخيمتها.

كثيرون مرّوا من هناك عبر حوشهم.

- يا مريم، أتنامين بعيدة عنّا، ونحن في الغرف، كغريبة؟

- البعيد كل من ليس له بلد. كلّنا بعيدون!

طائر أخضر عاد ليرف، ليسكن قلوب كثيرين؛ وكان البحث عن جرعة الماء لقمة الخبز، ساعة الدفء أو نصفها قد أنساهم.

مريم هزَّتهم بخيمتها، أعادتهم إلى أيام هِجْرَتِهم الأولى.

- الباب الذي لا يحميك لن يحمي صغارك، الباب الذي يُحطَّم بهذه السهولة ليس له غرفة، خذيني يا عائشة وضمِّيني، يُفزعني أن خيمتي كانت دائمًا على صواب إلى هذه الدَّرجة.

***

قال يوسف الذي بقيَ في البيت وحده: سأبيع الدار.

قالت مريم: بيعها من شأن الله.

ثم صمتت: ولكن ما يحزنني أن من يشتريها سيكون واحدًا من أولئك الذين خسِروا فلسطينَهم، اهدمْها يا يوسف!

- نحتاج ثمنها الآن، سأشتري تذكرة وأذهب للعمل في الخليج، وأترك الباقي لك ولعائشة.

- وتبتعد أكثر؟! على الأقل هنا تستطيع أن تشتَمَّ رائحة بلادك عند المساء.

- سأشمّها حيثما كنت، لا تخافي عليّ.

وغاب يوسف، يوسف الذي شدَّ على كتف الصغير وقال له: كن رجل البيت في غياب أبيك.

فارتبك، ارتبك الصغير: وما الذي كان يفعله أبي؟ أأغيب عن البيت منذ الفجر حتى منتصف الليل؟!

***

اندفعت عائشة تبحث عن زوجها.

عن رماد أزرق لسيارة توقّفت في شارع ترابي، واختفت، كأن لم تتوقّف أمام الباب، كأن لم تسدّ الشارع، كأن لم تبتلع زوجها. عائشة التي ستهوي لقاع نفسها كلّما لمحت سيارة برماد أزرق.

عائشة التي ستقترب وتنظر داخلها.

عائشة التي ستطوف حول المخفر أيامًا وليالي طويلة، إلى أن يهمس لها أحد العارفين. هنا لا يضعون الذين يُمسكون معهم أسلحة!

عائشة التي سينفجر في وجهها مدير المخفر: قلتُ لك مليون مرَّة إنه ليس هنا. عائشة التي ستُسِرُّ لنفسها: وجه مدير المخفر هذا ليس علي بغريب والله: وستسِر لمريم: وحياة أولادي، هذا الوجه مرَّ عليّ من قبل، لكن أين؟!

وستتنهد مريم: كلّ الوقت معنا لنتذكَّر، لكن علينا الآن أن نعرف.

مريم التي ستأخذ الصغير من يده وتطرُق أبواب الدائرة الأكثر سطْوة لتسال: أريد أن أعرف مكانه.

- نحن لا نعرف. ماذا فعل؟

- أنتم تعرفون ماذا فعل، أنتم المخابرات!

- ما صلتُكِ به أنتِ؟

- إنه، وستلتفتُ للصغير، ثم تُطلق جملتَها، إنه زوْجي، ولن يدهش الصغير.

- ليس هنا، قلنا لك، ليس هنا.

وستبتعد..

وسيسمعها الحارس: الأرض لم تنشَق وتبتلعه.

وسيهمس الصغير: كان يمكن أن يكون زوجك، أعرف، خالتي. كان يمكن أن أكون ابنك.

وستبكي مريم وتسأل نفسها: ولكن يا ربي لماذا أبكي؟! (مصير الحيّ يتلاقى.) طمأنت نفسَها.

***

- عليّ، أشهد أنكَ رجل ولا كلِّ الرجال!

قال له مساعد المحقِّق الكبير.

- اسمعْ. همسَ في أذنه بعد أن اطمأنَّ لعدم وجود أحد: لقد صمدتَ طويلًا، وكنت رجلًا، اسمعني جيّدًا، بقي لك يومان لا أكثر، اصمدْ خلالهما، وبعدها سينتهي كلّ شيء، سيرسلونك بعدها للسِّجن، "للجَفْر"، وهناك لا تعذيب ولا انتزاع اعترافات، يومان فقط، أعِدك.

قوّة جديدة انبثقت في جسد عليٍّ المهدّم، أحسّ بأن الدّنيا لن تُغلق بابها في وجهه، لن تُغلق بابها أبدًا.

وسيذكُر المساعد، سيذكُره، سيذكُر عينيه اللتين تتوسّلان إليه أن يصمدَ من وراء ظهر المحقق الكبير، عينيه اللتين ستبتسمان كلما انتهت وجبة تعذيب دون أن تنال من عليّ شيئًا.

***

طويلة وقاسية كانت الأيام الأولى، الأيام التي تلت اعتقاله، انفضّ الناس من حوْلهم، ابتعدوا، حتى لكأن بيوتهم ابتعدت مُخلّفةً بيت عائشة وحده في العراء.

رعب سكن الجميع. ولو سُئل الجيران لأنكروا معرفتهم بأصحاب هذا البيت، البيت الذي يأتي بخراب البيوت، ووجع الرؤوس، وطُرُق الحكومة التي لا تنتهي.

- هناك من يُراقبونهم ليل نهار، انتبهوا. همستْ جارة لأولادها وأضافت: لا تلعبوا مع أولادهم!

حتى أمّ خليل زجرتْ حنّون التي قالت: هيا نزورهم.

- هذا ليس وقت زيارات، نزورهم بعدين، حين تهدأ الأمور!

وتسلّلت حنّون.

جاءت، رآها، فاختفى، ولم يكن هنالك مكان يختفي فيه، ضاع في الشوارع، في الأزقة التي لا تعرفه، واستند إلى جدران غريبة في حارات أخرى.

وعاد..

سمع ضحكتَها، وضحكة خالته قادمتَين من عُمق الخيمة التي رُدَّ نصفُ بابها، وارتمى النّصف الآخر كشال على جنبها.

- ماذا تقول حنّون لخالته؟ تساءل. وكيف تضحكان والمُصيبة فوق رؤوس أهل البيت.

- كمان بتضحكِن؟!!

صرخ، وقد أزاح الطَّرف المُسْدل من باب الخيمة، فالتقتْ عيناه بعيني حنّون، عينيها اللامعتين بضوء عذب. تسمَّر مكانه.

دعته خالته للدخول، مرَّة، اثنتين. تنبّه لكلماتها. استدار.. قلبًا مرتجفًا وخطوات مُرتبكة، وراح يركض.

27

.. وارتفعت الأسوار أكثر، ارتفعت غرف جديدة، ما يشبه المطابخ، ارتفعت حمّامات من طوب، استُبدِلت براميلها الكبيرة بحُفَر، حفر تتّصل والحمّامات بأنابيب إسمنتية. وارتفعت الغرف القديمة حين أعلوا جدرانها بصفّين من الطّوب أو ثلاثة، وانتقل السّقف معها. ثمة كميات أكبر من الهواء الآن في الدّاخل، وعزلة أكثر حيث النّوافذ ترتفع عن عيون المارّة.

وتمتدُّ سطوح جديدة من الإسمنت، قويّة، غير عابئة بحرِّ الصَّيف أو ارتطام حبات المطر الثقيلة بها.

وفي الأزقة انتشر خوف.

وازدادت حدَّة السَّمْع لدى الحيطان.

أن تتحدَّث في أيِّ شيء فهذا سياسة.

وأن يكون لك أحدٌ في السِّجن، فهذا سياسة.

عاشت عائشة ومريم والصِّغار على ما يرسله يوسف، يوسف الذي لم يكن له عنوان، وتأتي رسائله كلَّ مرّة من بلد صحراويٍّ غير ذاك الذي أتتْ منه في مرَّة سابقة.

- لو أنني أعرف أين هو الآن.

- يوسف؟ قالت مريم.

- لا، عليّ.

- في السِّجن، وين يعني؟!! قال الصغير.

همست: وطّيْ صوتك، للحيطان آذان.

فلم يعد ينام إلّا في خيمة مريم.

لم يعد يتحدَّث إلّا هناك!

مريم التي قالت له: الشيء الذي علينا أن نفعله هو أن نُعلِّي صوتنا، لا أن نخفضه، الحيطان الصَّماء تسمع صمتَنا، ولا تسمع كلامَنا.

ولم يفهم.

لكنّه أحسّ.

***

- أين أُذنكَ أيها الحائط؟ سأل الصغير.

وهوى بالشّاكوش على الطّوب. فتناثر.

- أين أذنك أيها الحائط؟ سأل الحائط الآخر.

وهوى بالشّاكوش عليه، فتناثر.

- أين أذنك أيها الحائط؟

وهوى على الطّوب فانفتحتْ فجوة إلى بيت الجيران، وهبَّت الجارةُ صارخة..

- أين أذنك أيها الحائط؟

انتبهت مريم وعائشة للضَّجة، مريم وعائشة الجالستان في الخيمة، هبَّتا فزِعتين.

- أين أذنك أيها الحائط؟!

- جُنَّ الولد! صرخت الجارة.

- ارحمني يا رب. قالت عائشة.

واندفعت مريم نحو يد الصغير وانتزعت الشّاكوش.

- أين أذنك أيها الحائط؟

ضرب بقبضته.

حاولوا إمساكه، تفلَّتَ.

- أين أذنك أيها الحائط؟

وضرب بقبضتيه.

أمسكنه، وكان يضرب الأرض، مُنهكًا، بيدين مُتورِّمتين زرقاوين.

- لن تسمعَنا الحيطان بعد اليوم، خزقتُ آذانها، لن تسمعَنا أبدًا!

وفهمت الجارة. فهمت مريم. فهمت عائشة.
وصرخ الصغير: أريد أبي الآن. ولم يكن خائفًا.

26

كل تلك العصافير في قفص واحد؟

كل تلك العصافير الملوّنة.

مزهوًّا كان الفتى. في يده قفص طويل، عشرات الحساسين وطيورُ الخُضَّر تتخبَّط بين الأسلاك.

تبِعَه الصغير من شارع "مأْدَبَا" حتى بيته شرقيّ المخيم. اقترب من البيت، تعالى الغناء، عصافير البيت ترد على عصافير القفص، من يُغمض عينيه سيظنّ بأنها الغابة.

توارى العالم بأسراره معه.

عاد الصغير مُسرعًا، طرَقَ باب خليل، شدّه من يده وظلَّ يركض به، دون توقُّف، دون كلام، حتى وصلا إلى ذلك البيت.

- حساسين؟ قال خليل.

- حساسين. أجاب الصغير.

- حساسين كثيرة!

- كثيرة جدًا!

يعرف الصغير، ويعرف خليل، أن الحساسين لا تسقط في الفِخاخ.

- يصيدها بالشَّبكة. قال الصغير. الشَّبكة لا تؤذيها، خيطان تقع عليها، لا يسيل دمها، لا تختنق، ليس مثل الفِخاخ.

- سعود الشّراني يصيد العصافير الآن بمصائد الفئران! قال خليل.

- بتلك التي تشبه القفص؟ سألَ الصغير، وتدارك: هذا صعب. تستطيع اصطياد "الدُّوْري" أما اللّامي فمستحيل.

- يصطادها بتلك التي تُشبه الفخّ، التي حافتها السُّفلى كالمنشار. أولاد الحارة يقولون: إن رأس العصفور ينفصل عن جسده. ويقولون: إنه يأكله، رغم أن المصيدة هي نفسها التي يصيد بها الفئران ليلًا في بيته!

عاد صوت الغابة، غابة الغناء الفوضوي يملأ المكان ثانية، يملأ أذنيهما.

- ما الذي يفعله ولد بكل هذه العصافير؟!

- يبيعها.

- ليأكلها الناس؟

- لا، ليربّوها.

***

أقفاصه تضجُّ دائمًا بالحساسين.

راقباه طويلًا.

يذهب في الصباح قبل شروق الشمس. توصّلا لذلك بعد تعب. فكلّما نهضا مبكرين وانتصبا هناك في أخر الشارع لمراقبته، اكتشفا أنه صحا قبلهما. أيام طويلة مرّت قبل أن يُدركا صحْوته، أوشكا أن يفقدا الأمل تمامًا. هذا الولد يسبقهما دائمًا. وأحيانا يخرج ظهرًا، ليعود بعد المغيب.

انشغلا به، ملك الصّيد هذا، الذي يمرُّ بينهما دون أن يلتفت.

- سنشتري حسّونا. قال الصغير.

- معك نقود؟ سأل خليل.

- لا.

- لم لا نبيع الكتاب، ذاك الذي اشتريناه، ما دامت صورة البنت قد أصبحت مُعلَّقة في بيتكم داخل "برواز". قال خليل.

- ومن يشتري كتابا ليس عليه صورتها؟ سأل الصغير.

- لا عليك، هذه مهمّتي!

***

بأضعاف السِّعر الذيْ دفعاه ثمنًا له، باع خليل الكتاب.

وضع له غلافًا جديدًا، صورة انتزعها من واحدة من تلك المجلات التي يلُفّون بأوراقها البضائع لزبائن الدّكان، تلك التي يقايضونها بحبّتي سكاكِر غالبًا. ألصق الصورة بقليل من العجين، وفكّر. مغرية!!

لو رأى الصغير الكتاب الآن لاشتراه دون أن يعرف أن الكتاب هو ذلك الكتاب الذي فكّا رموزه ولم يستطيعا لفظ عنوانه أو اسم مؤلفه بصورة صحيحة أبدًا.

جاء للصغير وقال: لا عليك، انحلَّت المشكلة، خذ. وناوله عشرة قروش.

فرح الصغير، قفز في الهواء، أنتَ عبقري. مَن ذلك المجنون الذي اشتراه؟

- واحد لا تعرفه، لا أعرفه، صادفته في السّوق.

لكن الفضيحة كانت تتبعه.

***

جاء فؤاد غاضبًا.

اندفع بشجاعة لم تسكنه يومًا باتجاه الصغير.

- ضحكتم عليّ!

ارتبك الصغير: ضحِكنا عليك، بماذا؟

- بالكتاب.

- أيّ كتاب؟!

استمع الصغير صامتًا، وفصول الحكاية تتَّضح.

***

تقمّص خليل هيئة الخائف، نادي (فؤاد)، همس في أذنه كلامًا أوقدَ الدَّم في خذيه، وجعله يتلفت يُمنةً ويُسْرةً، تهزّه المفاجأة وتُسَيِّلُ لعابه.

- كلّ شيء في هذا الكتاب، كل شيء تتمنّى أن تعرفه، عن النساء عن النّكاح، كله "سِكس".

- أعرني إيّاه. رجاه فؤاد.

- هذا كتاب لا يُعار يا شاطر!

- إذن بعني إيّاه.

- لا يمكن، هذا الكتاب لا يمكن الحصول على نسخة أخرى منه بسهولة.

- سأعطيك ما تريد.

- دينار إذن.

- دينار، أنت مجنون.

- لا أنت المجنون. قال خليل. لأنك لا تُقَدِّر ما في هذا الكتاب من كنوز.

وهز لفؤاد حاجبيه وابتعد.

تبعه: انتظِرْ!

ناوله الدينار كاملًا، دسَّ الكتاب تحت حزامه، وانطلق وجِلًا كلصٍّ يتعثَّر بخطوات سرقته الأولى.

***

فؤاد الذي ابتعد فَرِحًا بكنـزه..

فَرحًا بسرِّه الجميل الذي لا يستطيع إعلانه..

فرحًا بقوة غامضة جعلت رأسه أكثر ارتفاعًا..

وإحساس مُسْكر بأنه يعرف أكثر من الجميع..

ضَربَ على رأسه حين اقترب من البيت: ولكن كيف سأقرأه؟!

عاد راكضا بسُمنته ذات الخطى البطيئة، أدرك (خليل) في الزّقاق المُفضي إلى دكان أبيه، ناداه، توقَّف.

استلّ الكلمات من بين ارتجافات لهاثه:

- ومن سيقرأ لي الكتاب، كيف سأعرف ما فيه؟

والتمعتْ عينا خليل، تلك الالتماعة التي لا يمكن إخفاؤها، حين تتشابك كل الخيوط، ويبدو كل شيء ملائما للصّيد، حتى انه تساءل.

- كيف فاتتني هذه؟ كيف؟ لكنّه عَبَسَ.

- ليست مشكلتي، أنا بعتُك الكتاب وانتهى كلُّ شيء!

- بعتني الكتاب وستقرأه لي.

- لا أستطيع، سأنفضِح!

- من شان الله.

صمت خليل طويلًا. فؤاد يترقَّب الإجابة.

- خمسة قروش عن كلِّ صفحة!

- نعم!!

- خمسة قروش.

- لو دفعتُ خمسة قروش عن كلِّ صفحة لكنت مجنونًا، بهذا السِّعر أستطيع شراء كتب كثيرة مثله.

- أنت حرّ! وابتعد خليل. بإمكانك أن تجد ولدًا يقرأ لك الكتاب بقرش ربّما، حاول، ولكنك ستنفضِح.

- تعال!

***

انطلقا في الزِّقاق إلى آخره عائدَين. بحثًا عن مكان لا يراهما فيه أحد، ولا يعرفهما.

أوقدت أجواء الحرص جسد فؤاد السَّمين. انحدرا باتجاه المقبرة، استندا إلى سورها.

كانت أقرب مكان آمن يمكن الوصول إليه دون أن يبتعدا كثيرًا.

شنَّف فؤاد أذنيه كما لم يشنفْهما يومًا لأستاذ، وراح يستمع:

- (دخل عليها البيت وكانت تَجْلي، وأفخاذها مكشوفة، وكانت (أُموره) منتصبة!

جفاف حلْق فؤاد لم يمنعْهُ من أن يسأل: مُنتصبة؟!

- آه، مُنتصبة. أجاب خليل. يعني (مونتِرة). لا تقاطعني، (سحبَها من يديها، ونيَّمها على الأرض، ونام فوقها، فقالت أخ، أخ، أخ، وشلّحها ثوبها وكُلْسَوْنها، فقالت له: انتبه. كانت امرأة هلويَة!)

- بتقربله؟ سأله فؤاد.

- يا أخي ما الذي يهمّك أنت إن كانت قريبته أم لا؟

- أريد أن أعرف فقط.

- تريد أن تعرف آه؟ سأله خليل. ها أنت شغلتني، لقد انتهت الصَّفحة دون أن أنتبه. هات شلن.

- لا يمكن، كيف تنتهي الصفحة بهذه السرعة؟ في الصّف نظلُّ نقرأ في الصفحة طَوال الدَّرس!

- هنا غير الصَّف.

بصعوبة وجد فؤاد القروش الخمسة: اقرأ لي الصفحة الثانية.

- هل بقي معك نقود؟

- لا، اعتبرها دَيْنًا.

- في هذه المسائل لا يوجد دَيْن.

- طيب، ما الذي حدث بعد ذلك؟

- أقول لك غدًا حين تُحضر الأجرة.

تركه وانطلق.

سار فؤاد خلْفه يتساءل: متى يجيء الغد. وهو يعرف أن النتيجة معروفة ما دامت نامت على الأرض وشلحت كُلْسَونها. وأموره مونترة، يعني مُنتصبة!

لكن (خليل) سيقلِبُ كلَّ توقّعاته، ويجعله أسيرَهُ إلى خمسات قروش لا تحصى، وسيظلّ فؤاد يسأله: أولم تقرأ هذه الصفحة لي من قبل؟!

***

- أريد إعادة الكتاب، أريد الدينار، أريد (الشّلون) التي أخذها مني. قال فؤاد ذلك وبكى أمام الصغير.

ولم تكن نباهته هي التي فتَّحتْ عينيه على الفِخاخ التي وقَعَ فيها.

سقط الكتاب من تحت حِزامه، تدارك فؤاد الوضْع، وأسقط كُتبًا أخرى، ولم يعرف هو نفسه كيف جاءته هذه الفِطنة، انحنى ليتناول الكتب كلَّها، لكن مُربِّي الصَّف شاهد الصّورة فصرخ في وجهه: ما هذا؟! تعال هنا.

وحين قلَّبَ المعلمُ الكتاب: ضحك. (العَبَرَات) للمنفلوطي. وعاد يضحك والدّم يتجمّد في عروق فؤاد، فؤاد الذي سمعها بأذنيه الخائفتين (العبَّارات) وهو يعرف أن الولد الذي يشتم الآخر يقول له: يا عبّارة (...) أمك عبّارة.

لكن الأستاذ لم يغضب إلى ذلك الحدّ الذي يمكن أن تفجره هذه الكلمة، شدَّه من أذنه: بدل أن تقرأ الرّوايات، وأنت بالتأكيد لا تستطيع، انتبه لدروسك، وضربه بالكتاب على رأسه، وغادر الصَّف.

***

- أريد الدِّينار. عاد يُردد.

- أوَلم تحب القصة؟ سأله الصغير؟

- لكنها غير موجودة في الكتاب.

- لكنك أحببتها.

- نعم.

- احمد الله أن القصَّة لم تكن في الكتاب، هل تعرف ما كان يمكن أن يحدُث لك لو كانت القصَّة فيه؟!

- لا أعرف. أعرف! أعرف!

- إذًا احمد الله أنه نجَّاك، ربّما لأنه يحبك غيّرَ الكلام!

- هل تعتقد ذلك؟

- طبعًا، لكن إياك أن تُخبر الأولاد بما حدث، لأنهم سيعتبرونك هبيلة.

- لا لن أخبر أحدًا.

- وحتى أضمن أنك لن تخبرهم أعطني الكتاب.

فكّر فؤاد قليلا: والدينار؟

- هل سنعود للحديث في ذلك من جديد؟

وناوله الكتاب بغلافه الجديد، الكتاب الذي سيحتفظ به الصغير بعيدًا، كما لو أنه يخبئ حسْرَة.

حزنٌ ما سيسكن الصغير طويلًا.

.. وحسٌّ عميق بالذَّنب سيُفرِّخ في قلب خليل، كلّما نظر للصغير ووجده حزينًا، كلما ألحَّ عليه أن يبوح بما في قلبه، كلّما ردَّ الصغير: غيمة، وتمرُّ! مُعيدًا بذلك عبارة أمّه التي تُطلقها بين حين وآخر، وإذا ما نسيتها، ردَّدتها خالته مريم.

وسيعرف خليل أن الصغير يعرف، وستبقى الحكاية مُعَلّقة بخيوطها متأرجحة بينهما كلّما التقيا.

***

طرقا باب الفتى الصَّياد. خرج إليهما رجل بلحية بيضاء.

- نريد الولد الصّياد. قال الصغير.

- "حامد"؟

- آه، حامد.

دخل الرجل، مال خليل على الصغير وقال: اسمه حامد.

أطلّ حامد، ارتبكا كما لو أن مربّي الصَّف ضبطهما يرتكبان فضيحة صغيرة ما في الشارع.

- ماذا تريدان؟

- نريد حسّونًا. قالا معًا.

- حسّون لتربيته؟

- لم نفكر بعد. قال خليل.

- فكِّرا وعودا إليّ. وأدار ظهره.

- لتربيته. قالا معًا.

- اذهبا وأحضرا قفصكما إذن.

- سنُمسكه بيدينا حتى نصِل.

- أين تسكنان.

- قرب المدارس.

- لا يمكنكما حَمْل حسّون باليد كلّ هذه المسافة دون أن تُتعباه! ودخل.

***

حائرين وقفا طويلًا أمام باب حامد، لا يستطيعان الذهاب، لا يستطيعان طرْقَه من جديد، خائفين ألّا يبيعهما أي حسّون.

وحين دقّا عليه الباب ثانية وخرج، حين قالا. ها هو القفص، لقد أحضرناه. قال: هذا القفص غير صالح للحساسين.

قفص من الشبك المعدني المستخدم لتسوير أقنّة الدَّجاج والحمَام، كان هنالك بين أرجلهما، مصنوع بطريقة سيئة أيضًا.

- لن نربيه في هذا القفص، سننقله إلى قفص آخر، قفص حقيقي.

صمت حامد لحظة، فكّر كرجل كبير، دخل الدّار دون أن يتكلَّم، وعاد بقفص طويل، بغابة كاملة من الغناء محشورة بين قضبان ناعمة: أي هذه العصافير تريدان؟

أشارا إلى حسّون ذي وجه أحمر قان.

- هذا ليس للبيع، هذا لي، وضعتُه هنا بين العصافير لأنه مُعتاد على القفص، هكذا تهدأ بقيّة العصافير، وتبدأ بالتَّحرك مثلـه دون فـوضى، دون أن تتجـرّح أو تتكسَّر أجنـحتُها.

- أريد هذا إذن. قال الصغير.

- هل قلتما إنكما ستربّيان الحسّون؟

- نعم، أجاب خليل.

وللحظة رآهما حامد مضحكين وهما يردّان بالتَّناوب، أو يتعثَّر الواحد مـنهما بالآخر، وهما يجيبان.

- هذا الحسّون لا ينفعكما، هذه أنثى، سأعطيكما فرخًا ذَكَرًا.

امتدَّت يده، أخرج عصفورًا بعد مطاردة رشيقة من زاوية لزاوية.

- ما ثمنه؟

- عشرة قروش.

- الحسّون الذَّكر الكبير بعشرة قروش، الصغير بشلن! قال الصغير.

- هات الشِّلن. قال حامد.

أمسك الصغير العصفور، تفحَّصه، أحبّه، ناعمًا كان، صـغيرًا. زغـبٌ نابـت على حواف منقاره ووجهه. وفكّر للحظات. من أين لنا بقفـص حقيقـي يليـقُ به؟ أحبّه كما لو أنه العـصفور الأول في حياتـه، وكـان سيـضحك فرِحًـا، لكنـه ابتسم، وأشرق وجهه. راح الحسّون ينقـر يـده نقـرات خفيفـة، لا تـشبه عـضة "اللّامي" أو "الطرُّد"، نقرة من نوع آخر، لا يشبهها شيء، وللحظة أحـسَّ أن الحسّون يحدّثه، يرجوه، يلاطفه كصديق، فأحبّـه أكثـر. ولم يـدُم ذلـك طـويلًا، تغيّرت ملامح الصغير فجأة، اسودّتْ بحزن عميق لفحته ذكرى بعيـدة فـصحا مندهشًا، فزِعًا: ما لك؟ سأله حامد.

لكن الصغير لم يُجِب.

أبعد الخنصر، ثم البنصر، ثم الوسطى. صرخ خليل: سيطير.

وقال حامد: انتبه.

وطار الحسّون.

هل كان رفيف أجنحته غير رفيف الأجنحة الأخرى؟ هل كان أقرب رفيف أجنحة عصفور إليه؟

- أريد واحدًا آخر.

- أنت مجنون، ماذا تستفيد؟! سأله حامد. وقد بدأ يرتبك بإعادة ترتيب أدوار مبهمة.

- أريد واحدًا آخر.

لم يدر حامد ما الذي عليه فعله. امتدّتْ يده إلى داخل القفص، ودون أن يُحدّد أيَّ عصفور، تحرّكتْ يده كما لو أنها ستسحب ورقة يانصيب، ناوله حسّونًا آخر، أمسكه الصغير، ناوله لخليل.

- دوْرُك.

عضَّ الحسّون أصابع خليل بنعومة.

قال له: الآن.

فتح يده. صرخ الصغير انتظر، ولم تكن البرهة كافية لانطلاق الحسّون، الحسّون الذي أمسكه الصغير ونتفَ عدة ريشات من ذيله، مُبقيا على ريشتين. وسأل حامد: هل تستطيع اصطياد الحسّون مرتين؟

- ذلك صعب، كيف؟

- كيف؟! هذا سِرٌّ.

- أنا أصطاد الحسّون مرتين. قال حامد، متحدِّيًا.

أمسك خليل العصفور ثانية، تاركًا أصابعه تتفتّح. وحلَّق الحسّون.

قال الصغير: نذهب معك لنرى، وإن لم تصطده تعلِّمنا الصيد بالشبكة.

***

- لو لم أحبّه، أكنتُ سأفكّر بتربيته في ذلك القفص؟

سأل الصغير صاحبه في طريق عودتهما.

- من؟

- الحسّون، لو لم أحبّه أكنت سأضعه في قفص؟

- لم أفهم. ردّ خليل.

- لو كرهنا العصفور أكنّا سنربّيه في قفص ونضعه في بيوتنا؟!

- لا. أجاب خليل.

- لماذا إذن نحبسُ الشيء الذي نُحبّه ونترك الشيء الذي لا نُحبّه؟!

- لا أعرف. قال خليل.

هل نجح الصغير في امتحان الحبّ هذا؟! وماذا لو وقع في حبّ حسّون آخر بصورة أقوى؟!

كان يسير، وكل امتحاناته الصعبة أمامه.

لم يناما تلك الليلة من حزيران، في الصباح انسلَّ كل منهما من فراشه دون أن يلحظ ذلك أحد، خائفين أن يكون حامد قد خدعهما، وذهب.

وجداه هناك قرب بابه ينتظر. انطلقوا.

لم يصطد حامد أيّ حسّون منتوف الذَّيل.

وتعلَّما الصيدَ بالشّبك قبل أن يعلّمهما.

25

توقَّف الصغير على باب دكّان "أبي بَلَحَةْ" طلب ستّ حبّات من "التُّوفة"[11]، وتنبّه صاحبه إلى أنها المرّة الأولى التي يفعلها الصغير ولا يشتري من دكان أبيه. أصرّ خليل أن يدفع الثمن، وفوق ذلك طلب زجاجتيْ "ببسي" دون أن يرف له جفن!

- من أين لك النقود؟!

- عمِّي زارنا وأعطاني إيّاها.

بعد ساعات سيشتري شيئًا آخر من أموال عمِّه ذاتها! وفي اليوم التالي من أموال خاله، خالته، من بقايا "بريزة"[12] وجدها في الطَّريق. مدّ الصغير يده لخليل بحبات "التُّوفَة" مُبقيا حبّتين في يده. قال: سنصطاد بالتُّوفَة هذه المرة، سنضعها في الفخاخ بدل الدّود!

سأله خليل: وكيف؟!

لم يُجبْ. أخرج الصغير مصيدة الفئران المعدنيّة من عبّه، انحدر باتجاه السَّهل يتبعه خليل، جلسا على الصخرة البيضاء المطلّة على مكبّ النّفايات.

من بعيد، رأيا سعود الشّرّاني يجمع رؤوس العصافير، ينحني، يتناولها يُقشِّرها كقرون الموْز ويأكلها.

- سنصطاد (سعود)! قال الصغير.

- بمصيدة الفئران؟ لكنها ستقطع أصابعه.

- اطمئن، لقد أرخيتُ الزُّنبرك.

---

[11] - نوع من السَّكاكر.

[12] - قطعة عشرة قروش.

تسلّلا حتى وصلا إلى تلك الزاوية، زاوية السِّياج المعدني الجنوبية لمستشفى الأشرفيَّة، وما إن راح يختفي في الوادي خلف الحجارة الكبيرة، حتى كانا قد انتهيا من تجهيز المصيدة.

- ربما لن يمرّ من هنا. قال خليل.

- سنجرّه للمصيدة. قال الصغير.

صاعدًا انحدارَ السهل، وعلى جانبيه عصافيره الميتة، أقبلَ. وكانا يجلسان إلى جانب السياج، حيث لا بدّ أن يصل الزَّاوية لينعطف باتجاههما، باتجاه المصيدة.

كانا قد دفناها بشكل جيد وربطا حبَّة "التُّوفة" بها. لامعةً بورقها الذَّهبي ساطعة، اعترضتْ طريق سعود، ولم يكن له إلّا أن يراها.

- سنُعلِّمه الصَّيد بالمصيدة. همس الصغير. وقلب خليل ينبض كفضيحة.

إنها المرّة الأولى التي يصطادان فيها بشرًا.

خالته مريم قالت له: كنا نصطاد الثعالب بالفخاخ، وعندما جاء الصهاينة استخدمنا الفخاخ لاصطيادهم، كانوا يزرعون الألغام ويقتلوننا، ولم يكن لنا إلّا أن نستخدم كلّ ما لدينا، فاستخدمنا فخاخ الثعالب أيضًا.

رآها تبرق من بعيد: لعلَّها قطعة ذهب. همس لنفسه. مصحفٌ ذهبيٌّ، من تلك التي تُعلّقها النساء في أعناقهنّ. طار قلبه فرحًا.

فكَّر، لن ينحني ليرفعه إذا ما تأكد له أن الصغيرين سيشاهدانه، وإلا، سيعود لأخذه فيما بعد. لكنهما كانا ينظران بعيدًا، ما أن اقترب، ما أن انحنى، ما أن أمسك حبة "التُّوفة" وشدّها، وقبل أن يُدرك أنها مثبتة بالأرض راح يصيح.

اندفع الصغيران باتجاهه. كان يبكي والدَّم ينساب من أصابعه. سقطت مصيدته، تبعثرت عصافيره ذات الرؤوس المقطوعة حوله، باردة وشامتة. راح يقفز، يبكي وهو يرى دمه. حاول أن يفتح فكَّيها، لم يستطع، توسّل للصغيرين أن يُحرِّراه من ألمه ومنها. وعندما اقترب منه الصغير، عندما حرره، كانت يده مثل باذنجانة.

صرخ: أنتما فعلتما ذلك!

- كان علينا أن نتركك تصرخ.

وفاجأه الصغير: هل هذه المصيدة لك؟!

- لا، ردَّ سعود.

- إذن سنأخذها وابتعدا.

***

لم يستطع فؤاد الصُّمود أمام الفكرة التي حمَلها خليل.

- فرصتي لاستعادة ما فقدتُ. فكَّر فؤاد.

- فرصة أخرى لا يُمكن أن أدعها تضيع. فكّر خليل.

- إذا ربحتُ سأعطيه النصفَ تمامًا هذه المرّة!

حمل فكرته للصغير، الصغير الذي لم يعد مطمئنًا لشيء، لم يفرح، خائفًا أن يُلدغ من الجُحْر نفسه مرَّتين.

***

- أراهنك، أننا إذا وضعنا عشرة قروش في طريق سعود فإنه لن يلمسها. قال لفؤاد.

- عشرة قروش ولا يلمسها!

- أراهنك. أعاد خليل. عشرة عصافير منا مقابل دينار منك!

- وكيف لي أن أحصل على دينار!!

كان هذا جوابه الجاهز عن أية نقود تُطلب منه.

- مثل المرّة الأولى. قال خليل.

- التي ضحكتَ فيها عليَّ!

لم يُجب خليل.

- نأخذه منك على دفعات.

وفكّر فؤاد ثانية: من المجنون الذي يرى عشرة قروش في الشارع ولا يأخذها.

***

ذهب الصغير وصاحبه إلى بيت سعود، حفرا أمام البوابة، وضعا المصيدة هناك، طرقا الباب وفرّا، خرج سعود، لم ير أحدًا، ورأى "تعريفَة"[13].

---

[13] - نصف قرش.

كانا قد موَّها المصيدة، نثرا التراب حولها، ترابا جافًا لا يشبه ذلك الخارج من حفرة، ترابًا بلون التراب المُصفر الذي لونته خُطى الناس.

انحنى سعود ليتناولها بيده المصابة، تذكَّر أنها مصابة، وأنها لم تزل ملفوفة بقطعة القماش الكالحة تلك التي صادفتها أمه حين رأته نازفًا فلفَّته بها. تناول التعريفة بيده السليمة، وصرخ، صرخ قبل انطباق المصيدة، وكأنه اكتشف المفاجأة التي أُعدّت له، وتلوّت يده، جسده، صراخه العالي، خرجت النساء، وتجمّع الأولاد، وفرَّ الصغيران، ابتعدا..

وفجأة قال خليل: ألا تلاحظ أننا خسرنا المصيدة هذه المرّة؟

ردّ الصغير: ألاحظ.

***

كمن الثلاثة في ظلِّ الزِّقاق المُطلِّ على شارع سعود وبيته.

فؤاد، الصغير، وصاحبه.

انسلّ خليل رشيقًا، وضع قطعة القروش العشرة أمام الباب، دون مصيدة هذه المرّة، طرَق الباب، عاد إلى مكمنه قاطعًا الأمتار القليلة باتجاه المخبأ طائرًا.

وفكّر: ماذا لو خرج واحد آخر ولم يخرج سعود؟

لكنه كان مطمئنًا. سعود مَهمَّته فتح الباب ما دام موجودًا، أمّه محظور عليها ذلك، وأخواته، ولم يكن له إخوة. لا يفتح الباب سوى رجل البيت، وسعود ذلك الرجل في ظلٍّ غياب أبيه عن الدار.

خرج سعود، ولم يزل الغبار مُتعلِّقًا بحبال الهواء، الغبار الذي أثارته قدما خليل.

لمحها هناك، شمسا فضية كاملة لا تحتاج لشرح، انحنى ليتناولها، لكنّه تجمّد في منتصف المسافة، اعتدل، دخل إلى البيت..

اندفع خليل، تناول القطعة النقدية، وسحابة الغبار الكثيفة تلاحقه، عائدًا. تجمّدت ملامحُ فؤاد: مع مثل هؤلاء لن أربح.

- (اللي أوله شرط آخره رِضا). قال خليل.

وأطل سعود بعصا مكنسة، حدّق في المكان، لم يكن ثمّ شيء هناك. خرج الصغار من مكمنهم، مرّوا أمامه، فؤاد أكثرهم خوفًا.

سأله الصغير: لا تستطيع كنس الأرض بيدين مُصابتين. ألـيس كـذلك؟ لم يُجب سعود.

وذهبوا في الشارع إلى نهايته دون أن يلتفتوا، ودون أن يُفارق هو الباب.

24

خطوات الشتاء على أبواب المخيّم، خطواته فوق سطوحه، عبر شوارعه الواسعة وأزقته الطويلة الرمادية، أطلقت (الحِمْرِيّات) في ضواحيه.

اقترب الأستاذ خالد، مُربِّي الصَّف، من الصغير وقال. أريدك بعد الحصّة الأخيرة!

نظر التلاميذ في وجوه بعضهم، أدركوا: الصغير في ورطة. لم يغادروا ساحة المدرسة عند انتهاء الدّوام، في انتظار النتائج.

- سمعتُ أنكَ الأشطرُ في الصيد. قال الأستاذ خالد.

هزَّ الصغير رأسه موافقًا، لكنه لم يكن مطمئنًا حتى الآن.

- أصطادُها وأُطيِّرها. قال بوجل.

- لماذا تصطادها ما دمت تُطيِّرها؟

- لأُعلّمها الحذر.

- تُعلّمها ماذا؟!

- الحذر، حتى تصبح (حِذْرِيَّة).

لم يفهم الأستاذ ما قاله التلميذ، تذكَّر أولاد الصّف الاثنين والخمسين.

- لماذا لا تساعدني في تعليم الأولاد ما دمت قادرًا على تعليم العصافير؟!

- هذه مسألة أخرى. قال الصغير.

- كيف؟

- لأن العصافير أشطر.

- أشطر من الأولاد؟

- كثيرًا.

- وكيف عرفت؟!

- العصفور يتعلَّم من انطباق الفخّ على رقبته من المرّة الأولى، أو الثانية، لكن الأولاد لا يتعلَّمون بعد الضرب بالخيزران على أيديهم وأرجلهم، ولا يتعلّمون من الضَّرب على رقابهم ووجوههم.

- والعصافير؟!

- العصافير تتعلّم أستاذ!

***

راكضًا بين أشجار حرْش مستشفى الأشرفيَّة، مُحاذرًا أن يراه الحارس، اندفع الصغير يرد، "الحِمْريَّات" باتجاه فخاخه المنصوبة.

وهناك، ترك خلْفه عدّة فتحات أحدَثها في الأسلاك الشَّائكة، هي بوّابات نجاته إذ يفر وخلْفه "أبو فارس"، الحارس الذي لا يحبّونه، ولا يحبه الصغير بشكل خاص.

كان بإمكان الحارس أن يفاجئ الصغير اليوم، أن يُطبق عليه بقبضته القاسية وعبوسه الدّائم، وأن يرفعه إلى الأعلى ويطرقه بالأرض. كان بإمكانه أن يفاجئه، وكان بودِّ الصغير أن يعود إلى الأستاذ خالد، وأن يقول له: أستاذ لم استطع اصطياد أي (حِمْريَّة) اليوم.

ولكنه اصطاد حِمريَّة.

والصغير يعرف ضعفها، أضعف من اللامي والكُحْلي والبُرَّق، أضعف عشرات المرّات من الطُّرِّد ذي المنقار الحادّ، أضعف منها كلها، وأقوى من "الفِسيْبِي".

***

الحمْريَّة بين يدَي الصغير، فكّر باصطياد واحدة أخرى قبل الذهاب إلى بيت الأستاذ، لكنه عدَل عن ذلك، لم يكن يعرف أيّ مصير ذاك الذي ينتظر عصفوره.

متراقصة على جنبيه كانت الفخاخ، مُدلّاة من حزامه الجلديِّ الذي لم يكن يومًا لصغير، انسلَّ من إحدى بوابات الطوارئ في (الشِّيك) مُدركًا أن الحارس سيمرّ عند المساء، يتفقّد الأسلاك، ويُغلِقُ كل ما يجده من فتحاتٍ فيها.

***

لم يدر الصغير حين طرق باب الأستاذ خالد، أن الحِمْريَّة لم تعد في يده.

- هل اصطدتَ؟ فاجأه الأستاذ، طويلًا أمامه، أعلى من الباب.

- حمْريَّة واحدة. قال الصغير.

- أينها؟ سأل الأستاذ.

نظر الصغير إلى يده فوجدها خالية.

- طارت!

صرَّ الأستاذ خالد على أسنانه: حِمار!

هذه الكلمة لم يسمعها تُوجّه إليه في الصَّف، أيسمعها توجَّه إليه في الشارع هنا أمام بيت الأستاذ؟ أغلق الصغير أذنيه.

اندفعتْ طفلةٌ صغيرة من وراء الأستاذ تحبو، في السادسة من عمرها أو أقل. أدرك الصغير أنها "كسيْحَة". سألتْ بجذل: وين العصفور؟!

انتفض قلب الصغير، أحس بقضبان قفصه تضيق: كنتَ ستُفرحها. منذ زمن طويل تريد عصفورًا.

- حَزَّنِّي. قال الصغير لخليل. ونسيَ أنه قال له (حمار). وبكت الصغيرة: أريد عصفورًا.

وقال لخليل: لقد وعدتُها بعصفورين غدًا، فابتسمتْ.

- ولكنّها. ستأكلها. قال خليل وكأنه يُذكِّره.

- لا تُذكّرني، أعرف أنها ستأكلها، لكن البنت مسكينة تجرّ رجليها خلْفها مثل "الشَّريطة" وهي حلوة!

***

ثلاثة عصافير مبتلّة بعرق الأيدي وبأجنحتها المُنكسِرة، كانت هناك، بين الأصابع الصغيرة، لم يكن لها الكثير من المدى لتتأمل ما ستُسفر عنه اللحظة التالية. أمام بوابة دار الأستاذ خالد كلّ الكائنات كانت تنبض.

طرقا الباب، خرج الأستاذ بين يديه ابنته، رأسها على كتفه، بنت نظيفة حلوة، لها ذنبة فرس مضيئة، رأت العصافير، حاولت القفز من بين يدي أبيها، كانت تريد أن تمشي، وحتى أن تطير.

بخجل ناول الصغيرُ العصفورَ للأستاذ، وغضَّ طَرَفه خجلًا بعد النَّظرة الأولى لابنته: هذا عيب. قال في نفسه، لا يجوز أن أنظر إليها، إنها ابنة الأستاذ.

ارتجفت يد الصغيرة، وهي تقترب من الحِمْريَّة الأولى، وعندما وجدت الشجاعة الكافية لتمسكها، نظرتْ في عيني الحمرية: عيناها صغيرتان، العصفورة. قالت.

هزّ الصغير رأسه، وخليل على بعد خطوتين يحدّق في العصفورين الآخرين القابعين في يده.

سألت: تطير؟

- تطير. أجاب الصغير.

وهز الأستاذ رأسه بانفعال دامع وهو يرى فرح ابنته بما في يدها.

حين همَّ الصغير بإعطائها العصفور الثاني قالت: أريد واحدة فقط. عصفور في يدها، عصفور في يد الصغير، عصفور في يد خليل. لم يتكلّم الأستاذ.

لم يكن الأستاذ نفسه الذي يدور في شرفات المدرسة المكشوفة بين الصفوف متجهِّمًا.

- هل تعرفين كيف تطير العصافير؟ سأل الصغير.

- أعرف. أجابتْ. لا، لا أعرف. استدركت.

رفع العصفور إليها، كان لا بدَّ من أن يرى وجهها ثانية، لكنّه لم يخجل هذه المرّة، أرخى خنصره، بنصره، ثم الوسطى والسّبابة. لم تُدرك الحِمْريَّة أنها طليقة.

- إنها لا تطير. قالت الصغيرة بانفعال.

هزّ الصغير يده، تحركت الحِمْريَّة، طارت، خفق جناحاها الصغيران في الغروب البرتقاليّ، طارت، وطار قلب الصغيرة، نسيتْ نفسها، ضحكتْ، فتحتْ يدها أطلقت الحِمريَّةَ، حمريَّتَها، تبعت الأولى في طيران مُرتبك. ناولها خليل الحمريَّة الثالثة، أمسكتْها سألت برقّة: أُطيّرها؟

- أنت حرّة. قال الصغير.

- أنت حرة. قال الأستاذ.

- زي ما بدّك. قال خليل.

- سأبقيها. قالت.

- هي لك. قال الصغير.

نظرت إلى الغروب، لم يكن ثمة أثر للحِمريَّتين في الأفق.

- هذه سأُبقيها.

وابتعد الصغيران قبل أن يريا دمعة الأستاذ، وراقبتهما الصغيرة بعينين عسليّتين، كعصفورين يبتعدان.

هل كان العصفور الذي مرَّ من فوق رأسيهما هو العصفور الثالث؟ لم يسألا، ولم يكونا راغبين بإدارة رأسيهما للتأكد مما جرى.

23

تجدَّدت تلك العملية ذلك الصباح، مثلما كان يحدث منذ دخوله المدرسة، انتشر مربّو الصّفوف بين تلاميذهم باحثين عن الأظافر الطويلة، المناديل النّظيفة، الأيدي الناصعة..

مرتجفين هلعًا اصطفَّ الطلاب. تقدير طول الأظافر عائد للأستاذ. حاول أكثر من طفل قضم أظافره على عَجَل. حاول آخرون إخفاءها بمناديلهم المُلقاة على ظهور أيديهم - ذلك لا ينفع إلّا نادرًا. ربما حين يكون الأستاذ بردان أيضًا.

الغيوم مُنخفضة، الهواء يتسلّل بين الضلوع، أحسَّ الصغير بذلك، تذكّر قفصه الصَّدريَّ، أحسَّ بقدرة الهواء العجيبة على اختراق جسمه والمرور منه باتجاه الجانب الآخر. في منتصف الطابور الطويل كان، الطابور المكوَّن من صفَّين مُتقابلين. ستة وعشرون طالبًا في كلِّ جانب. حين وصل إليه الأستاذ خالد، ارتجف للمرَّة الأولى، لم يكن يخشاه، ارتجف خَجَلًا، ربّما لأنه يعرفه.

ولكن الصغير يعرف أيضًا أن مُربِّي الصف الثالث "ب"، يضرب أحيانًا قريبه الشَّاطر، لا لشيء إلا ليُثبت لبقية الطلاب أنهم سواء أمام خيزرانته.

المحْرَمَة على ظهر يدي الصغير، مَحْرَمَة كبيرة، لا يستطيع الحصول عليها إلّا مَن هم في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، اشترتها أمه وكأنها تقول له: اكْبر.

كانت تتذكّر غياب عليّ وتبحث عن حضور يملأ البيت، حضور رجل. هو نفسه فوجئ بالمحْرمة ذات الأرضيَّة الزرقاء التي تتقاطع على أطرافها خطوط كحليَّة حادَّة. وتتقاطع في وسطها خطوط كحليَّة مطفأة بِرِقَّتها.

الصغير نفسه، أحسَّ بالمسؤوليات الجديدة التي يُلقيها عليه امتلاكه لمحرمة مثلها، فانتصبَ في قامته زهوُ رجلٍ يعرف قدْر نفسه.

***

حاول أن يستحضرَ صورة أبيه. لم يستطع.

ربّما يشبه أمّي. قال. لكن أمّه كانت أصغر منه ذلك النهار الغائم، أمّه التي فاجأته حين دسّت في يده المال وقالت: عليك أن تدفع للبائع.

وقالت: عليك أن تبتاع محرمة. هي التي زجرتْه أكثر من مرّة وهو يتأفّف من قِطَعِ القماش المربَّعة التي كانت تنتقيها من ظهر قميص مهترئ عادة، وتخيط منها مناديله الصّالحة لإطلاق نكات الأولاد.

كانت عائشة تسير إلى جانبه، يعتصرها حسٌّ طاغ بأنها تخسر صغيرها لتكسب رجلًا قبل الأوان، يُحزنها أنها لن تستطيع مناكفته بعد اليوم. تغيّرتْ بعد اعتقال عليّ، غيَّرتها جهامة الحزن والصمت في البداية، غيَّرتها لسعة الذَّنب التي تذهب بعيدا في الرُّوح كلّما وجدوا أنفسهم يضحكون.

توقّفا أمام بائع، وظلّ صامتًا.

لكزته أمّه: قال أريد محرمة.

كانت المرّة الأولى، بعد الكتاب، التي يشتري فيها شيئًا بهذه الأهمية. امتدَّتْ يد البائع الخبيرة بها في محلّه وتناولت صندوقًا أبيض، حين نظر الصغير داخله ارتجف قلبه، وحين نظرت عائشة قالت: نريد محارم رجَّاليَّة. أعاد الرجل الصّندوق إلى مكانه، وقاس الصغير بنظرة خاطفة وهو يتناول صندوقًا آخر. فَرَدَ المحارم أمامه، ولم يكن الصغير بحاجة للكثير من الوقت كي تمتدَّ يده وتشير إلى المحرمة الزَّرقاء المُتقاطعة خيوطها الكُحْليَّة على الجانبين.

لكزته عائشة ثانية، وفهم، وسط غابة ارتباكه ومسؤوليات المحرمة الجديدة أن عليه أن يتصرف فورًا، فسأل متلعثمًا:

- كم ثمنها؟

ودفع.

لم تُناقش عائشة البائع كعادتها في السِّعْر، ثمة أشياء لا يجوز التّفاوض حولها، وسارا.

***

قالت له: كان أبوك يقطع السَّهل فوق فرس بيضاء، على جانبه سيف، طفلًا يمتطي فرسًا في أرض خضراء، خضراء كثوب النَّبي، أولاد البلد يتطلّعون إليه بحسد، تربكه نظراتهم أكثر مما يُربكه امتطاء الفرس والسَّيف المتأرجِح عند خاصرته والسّهل الأخضر الذي لا ينتهي.

كان يرى أن تلك أجمل لحظة في حياته. يومها قال: فجأة أحسستُ أنني أصبحت رجلًا.

ولم يسأل الصغير: متى يستطيع الإنسان أن يحسّ برجولته أكثر، حين يمتطي فرسًا وعلى جانبه سيف، أم حين يشتري محرمة كبيرة، من تلك التي لا يضعها سوى الكبار في جيوبهم؟!

وصعدا الحافلة الصاعدة إلى "الوِحْدَات" ودفع للكنترول.

***

حين وصل الأستاذ خالد إليه كان غائبًا، تجاوزه، في الوقت الذي كان الصغار يخبئون محارمهم في جيوبهم ويُنزلون أيديهم ليرفعوا حقائبهم التي حُشرتْ هناك بين أفخاذهم خشية وصولها إلى الطين. في عالم آخر سبح الصغير، حتى لكزه فؤاد الكسول من الطابور المجاور لهم، فؤاد الذي لا ينجح إلّا هنا.

***

الصباح بارد وكأنّ العالم لم ير الشمس من سنين. أمام الطوابير اصطفّتْ مجموعة من الطلبة ذوي الأظافر الطويلة، أو أولئك الذين نسوا محارمهم في البيوت، أو الذين لا يملكون محارم، أو أولئك الذين جفّ ريقهم فجأة فلم تساعدهم كمية البُصاق على تنظيف أيديهم بصورة كاملة.

كانوا يعرفون.

الفصل الثاني من المسرحية يبدأ بعد قليل، يأتي المدير من مشاغله الصباحيَّة وبيده الخيزرانة.

فؤاد قال للصغير: إنّه لم يعاقب مرّة بسبب أظافره أو لعدم وجود محرمة معه، دائما كانت المحارم تملأ جيوبه، وكان بإمكانه أن يُهَرِّب محرمةً إلى أيّ طفل قريب منه نسيَ محرمته ليُنقذه من فصل العذاب.

فؤاد طيّب، الصغير يعرف ذلك، لا يحبّ الخيزران لا على يديه ولا على أيدي الآخرين. وهناك دائما ألف سبب آخر لتذوّقه المرّ للسَعات العصيّ.

أشرع الصغار أيديهم ذوات الأظافر الطويلة، وكان المدير يعمل بكلّ نشاطه الصَّباحي، كأنه يُعاقب الأيدي ولا يعاقب الصِّغار!

والضحايا جاهزون دائما.

التّفتيش الفجائيّ المسبوق بصوت المدرّس المُناوب عبر مكبِّر الصوت، واصطفاف التلاميذ.

***

لكلِّ مدرسة اسمها..

الاسم الذي انتقتْه وكالةُ الغوث، الاسم المحايد الذي لا يُشير لماض أو مستقبل، الاسم البارد كمعادلة رياضية: مدرسة مخيم عمّان الابتدائية الأولى. مدرسة مخيم عمّان الابتدائية الثانية. إناث مخيم عمّان الإعدادية الثانية. الأولى، الثالثة، الرابعة.

الاسم الذي ينساه الطلاّب ويُطلقون عليها بدله اسم مدير المدرسة.

مدرسة (عبد الجابر تيم).

مدرسة (أبو بشّار).

مدرسة (...)

والمدير سُلطان المدرسة، لا تهبط كلماته الأرض، يخشاه الأهل كما يخشاه التلاميذ، ومغادرة الصّفوف الابتدائية إلى الصّفوف الإعدادية كان بالنسبة للتلميذ كالانتقال من سجن "المَحَطَّة" إلى سجن "الجَفْر"، غامضًا كالدّخول في عهد سياسيٍّ جديد، تحت وطأة قوّة غير مرئية يسمع عنها الطالب كثيرًا قبل أن يراها.

القضايا الكبيرة يتولّاها المدير.

ولم تكن هناك قضية غير كبيرة، بدءًا من نسيان المحرمة في البيت، إلى التغيّب عن المدرسة خوفًا من مُدرِّس الدِّين الذي أرسله الله لعقاب من لا يحفظون كلام الله!

***

أشرع المدير باب غرفة الصّف، انتصب أمام المعلّم والتلاميذ، أرتبك المعلم، ارتجف التلاميذ هلعًا، وعندما استعادوا أنفسهم من المفاجأة، رأوا (فؤاد) وقد أطبقتْ يد المدير على عنقه من الخلْف.

- من اليوم سيداوم هذا في صفِّكم! قال المدير ذلك، وخرج.

احتار الأستاذ خالد، بحث بعينيه عن مكان بين الصغار، مكتظة كانت المقاعد، ثلاثة تلاميذ في كلِّ مقعد، وبعضها أربعة. أعاد ترتيبهم، انتقى الأكثر نحافة وزجَّهُ بينهم بقرف واضح، نظر الصغار للقادم الجديد بعين السُّخرية، حتى أولئك الذين كانوا أكثر غباء منه.

تبادل الصغير وفؤاد نظرات سريعة، متقاربَين كانا، يفصلُهما ممرٌّ صغير. أمره الأستاذ أن يُتبِّع في كتاب جاره. درْسٌ جديد. انتهى. بدأ بفؤاد: اقرأ. قال له. وقرأ فؤاد.

- ألا يكفيني ما لديَّ من أغبياء حتى يُحضروا غبيًا آخر؟

صفَعَه، اتّقدَتْ يقظةُ الصِّغار وهم يستمعون للأستاذ يقرأ الدَّرس ثانية.

وحمدوا الله أن جرس انتهاء الحصّة انطلق. تنفَّسوا..

- حصّتنا لم تنته. صرخ الأستاذ.

فاتقد رعبُهم.

22

كل محاولات خليل لنسيان صورة حنّون فشلتْ، شيء ما تحـرَّك فيـه. وظـلّ يشده إليها.

- هي حبيبة صاحبي. لكنه لا يراها، لا تراه، لم لا تكون حبيبتي؟! سأراها.

فكَّر بسرقة صورة الفتاة الجميلة من بيت الـصَّغير. تـذكَّر شـهقته حـين رأى حنّون: ولك هذي أحلى بكثير من الصورة.

- الصغير سيفتقد الصورة، لكنّه لن يفتقد حنّون!

تسلّل إلى طرف المخيّم على رؤوس أصابعه.

ماذا لو أمسكه الصغير هناك، قرب بيت حنّون؟ حاول البحثَ عـن أعـذار، لتكون جاهزة..

شدّة انفعاله بما يمكن أن يحدث، أربكه أكثر.

***

في الحارة وجدَها تتقافز، تلعب "الحَجْلَة". رأته، جاءت راكـضة، ارتبـك، احمرَّ، اتَّقدتْ أذناه. وصلتْ، فقد لسانه، بحثَ عنه، بحث عمّا يدلُّ على وجوده: حرف، حرفان، كلمة واحدة، فكَّر أن يهرب، أن يبتعد من أمامها، وألّا يعيـدها. ليتحرَّر لسانه، لينطفئ الجمر فيه.

- خليل، شايفتك لحالك؟!

ارتبك، هي تسأل عنه، عنه فقط.

استدار ليبتعد.

شدَّته من كتفه.

تجمَّد.

تغيَّرتْ حنّون.

رأى الصغير ذلك.

العمل في مصنع النَّسيج قلَبَ كيانها، أطلق لسانها، وحتى جسدها، جسدها أيضًا. وإن كان انتشى يومًا فرِحًا بجسده الذي اندفع فجأة فتجاوزها، إلّا أنها عادت لتنتصر عليه ثانية.

- الآن ستنساني، وقبل أن تفعلها، سأنساها. قال لصاحبه! وكانا يراقبانها عن بُعد، وخليل يتوارى بنحول صاحبه عبثًا. تتقافز بين الفتيات الكبيرات، الفتيات الفتيات، اللواتي يمتلكن نهودًا عالية تحدِّق فيها، تحدِّق فيه كجبال خضراء تغمرها العصافير، وتدرُج على سفوحها القُبّرات والحَجَل.

باهتة، تجربته مع سميرة، أحسّ ذلك وهو يرى سربًا كاملًا من الصبايا يتهادى على رصيف شارع "مأْدَبَا"، حرًّا بجدائله التي تتقافز على الأكتاف، وقد أُرخيتْ مناديلهن بشغب.

وكانت هناك.

حنّون التي لا يمكن إلّا أن تراها العين، خطواتها الواضحة بين الخطوات، ضحكتها المُتسلِّلة من بين همسات الصبايا وكلماتهن الجريئة عن الحبّ.

تغيّرت حنّون، كبرتْ. وأخذتْه العصافيرُ، جريُه المتواصِل عبر التّلال والسهول. خليل عرف ذلك، لكنّه لم يكن يتوقّع سؤالها عن صاحبه، لم يعرف أنه سيحمرُّ، وأن خبراته كلّها حول الفتيات ستنهار ويتدلّى لسانه بَلَهًا.

***

- لم يعد يُتقن شيئًا غير الصّيد. قال لها خليل. العصافير سرقتْ عقلَه. وصمت.

- أقول لكِ سرًّا، لقد بدأتُ بأكْلِ العصافير، سنة، اثنتان، يكفي. ثم إنّ العصفور لذيذ، وعندما أكون معه وأُطلق واحدًا فإن أمعائي تتمزّق!!

- لقد غضب مني كثيرًا حين أكلتُ العصفور. قالت حنّون.

- لأنه أهبل!

- لا، لا تقل عنه هكذا. صرختْ في وجهه.

أدرك أنه تجاوز الحدود.

- الأهبل يحبُّ الحمير، وليس العصافير! أضافت.

- هو أحبّ أصدقائي، صديقي الوحيد. قال.

- الآن أحبّك حين تقول مثل هذا الكلام!

وارتجف قلب خليل لكلمة (أحبّك).

كانا يسيران بعيدًا عن الحارة، يتلفّتان حولهما خائفين، ذهبا في شارع النّادي إلى آخره، وحين أبصرت حنّون إحدى جاراتهم ابتعدتْ، على الطرف الآخر من الشارع أصبحتْ، قبل أن ينتبه، تسير كما لو أنها وحدها. لم ترها الجارة، ورآها تعود.

- لو رأتني جارتنا لأخبرتْ أمي!

عاد قلب خليل لخفقانه وهي تُطلق حذرها.

***

في الطريق، هبط الليل..

أظلَمت البيوت، النّوافذ الصغيرة، الأزقّة..

- لماذا لا تأتين للدّكان، وتشترين ما تريدين؟

- الدكّان بعيدة. قالت حنّون.

- ليس كثيرًا. قال خليل. وابتلع ريقه الجاف.

- سأحاول.

أبي يذهب للجامع عند صلاة العصر، وأبقى وحدي.

لم تُجب حنّون.

مضت مبتعدة، لكنّها قبل أن تختفي. قالت بجذل واضح: لا تنس تسَلِّم.

أحسَّ بعبثية محاولته، الكلمات تطارده، وصوت خطواته يدوِّي في أذنيه: لا تنس تسلِّم.

كيف يجرؤ على حَمْل هذا السّلام؟

***

- بتسلِّم عليك.

ارتجف قلب الصغير.

- أمّك قالت لي كلَّ شيء، عنك، وعنها.

احمرَّ وجهه، استدار ليبتعد.

- تعال. أمرتْه خالته مريم.

توقّف، لكنه لم يستدر.

الصُّورة لن تنفعك، الصّورة للميتين، ما دام الإنسان موجودًا، فلماذا نُعَلِّقُ صورته؟ صمتت. ثم إنها ليست صورتها، صورة لا تنفعك ولا تشبهها. تعال.

استدار.

حزينًا كان.

- ولكنّها أكلت العصفور.

ضحكتْ خالته.

- عصفورة أكلتْ عصفورًا! فلماذا تغضب أنت؟ انتبه، حتى لا يأكلها غراب. تعال.

اقترب خطوتين، وجهها مضيء، ولم تكن هناك شمس كبيرة.

- البنت تحاول أن تُصالحك، افترض أنها غلطت، عليك أن تنسى غلطتها، كلّ ما نفعله من أشياء جيدة للنّاس الذين نحبهم لا ليحبّونا فقط بل لينسوا أننا أخطأنا حين نخطئ. تعال. اجلس هنا. لا أريدك أن تتكلّم، لا تقل شيئًا، اجلس هنا واصمت، اصمت مع خالتك.

21

جَمَعَ ثمن الشَّبكة، لم يستطع جَمْعَ ثمن قفص الحسّون "المُنَادي". ذلك لا بـدَّ منه، وحده يستطيع دعوة الحساسين الطائرة للنِّزول، ما إن يبدأ تغريده.

- لا بدّ من حسّون ذكَر.

حاول تقليد غناء الحسّون، النتيجة طيبـة، لكـن الأجنحـة الطـائرة لا تعـيره اهتمامًا، لا تُصدّق. الخدعة مكشوفة كفخّ عرَّتْه الرّيح.

: علينا التّفتيش عن منطقة يمكن الصَّيد فيها دون "المنادي". قال لخليل.

أن تُلقي الشَّبكة في السهل وتضع الماء في صينية الألمنيوم المسروقة مـن البيـت لا يكفي، حتى لو كنت تملك "الحَرِّيْك".[14]

فَقَدَ الصغير الأمل في صيـد سهلٍ، بعد أيام طويلة قضاها تحت الـشمس، في عراء السهول، بين الشّوك الذي تهبطُ الحساسين عليـه وتأكـل بـذوره: الطيـور ترانا. قال لخليل.

اقتلع أوتاد الشبكة، نَصَبَها من جديد بجانب المقـبرة الإسـلامية، مـدَّ الحبْـل واختفى بين القبور ووراءه صاحبه.

---

[14]- الحرِّيك: هو الحسُّون الذي يقوم بدوْر دودة الفـخ للـشبكة، حـين تمـرُّ العـصافير في السماء يسحب الصياد خيطًا في يده موصولا بعود صغير مثبّت في الأرض مـن نهايتـه المقابلـة للصياد، ومثبّت من وسطه بخيط يمتد على جانبيه، حين يسحب الخيط يصبح على شـكل Λ فيرف العصفور المربوط من خلف جناحيه وتحت بطنه بنهاية العود، وحـين تـراه العـصافير، وتسمع "المنادي" تعتقد أن صوت المنادي هو صوت الحرِّيك الحر بأجنـحته فتهبط إلى جانبه في مدى الشبكة، وما إن يشد الصياد حبْلها حتى يكون الحرِّيك والعصافير التي هبطتْ تحتها!

الماء وحده لم يكن كافيًا لإنزال الحساسين، لا بدّ من غواية، من تضليل، من خدعة تُوْقِع الرَّف. أحد الحساسين هبط قريبًا من الشبكة، اقترب كثيرًا من الماء، كاد يقف فوق غصون الشّوك، لكنه طار. كان بإمكانه أن يقترب أكثر، وأن يشرب، أن يقف على الحجارة المبعثرة وسط الماء في الصّينية، لكنّه ابتعد.

- لو اقترب لما اصطدته. قال الصغير.

- نعم. ردّ خليل. (قُصْر ذيل يا أزعر)!!

***

اندفعتْ حنّون بين الصبايا شبه طائرة، راقبت الصغيرَ عن بُعد، تلمَّستْ في صدرها رمانا يرفعها عاليًا عن قدميها، استطالتْ، تجاوزت كلَّ الأولاد، لكنّها لم تستطع أن تحسم أنها أطول منه. تخلّفتْ عن السّرب، السرب الذي يتحرَّك متراصًّا ليحمي كل من فيه، أفلتتْ منه، تسللتْ من حديث الصبايا وضحكاتهن المكتومة التي ترتدي الخجل. أكثر اكتمالًا بدت، وأطول.

اقتربتْ منه. أوشك أن يفرَّ.

- ما لك؟! سألته.

- لا شيء. أجاب.

- لا شيء، كيف؟ طَوال النهار تنتظر، تلحقني، ولا تقول كلمة.

- أنا لا أنتظرك.

- تنتظر مَن إذن؟ غضبتْ. ألا تريد أن تكبر؟ فاجأه صوتها النّاعم القويّ، خصلات شعرها المضيئة، فاجأه جسدها الممتلئ.

- أنا كبير. قالها متلعثمًا.

- طيّب، تُحبّني أم تحبّ العصافير؟

- أحبّك وأحبّ العصافير.

- أنا أو العصافير، عليك أن تختار!

قهره هذا الحزم في نبرتها، في الخيار الذي تلقيه عليه.

- أنا أو العصافير ردّدتْ.

- العصافير. أجاب.

انفلتت غاضبة: يلعن العصافير، يلعن الفخاخ، يلعن السهل، يلعن الجبل، يلعن الشَّجر، يلعن الحيطان، يلعن الملاعق، يلعن الطناجر، يلعن إبر البابور، ومضت تلعن كلّ ما يخطر ببالها حتى لم يعد هناك ما تتذكّره. فقالت: ويلعنّي!

***

فجأة وصلت الدّكان بعد عصرّ الجمعة. ارتبك خليل، انعقد لسانه.

- ما لك، إنتَ الثاني؟

فعرف من هو الأوَّل دون أن يسألها.

حدَّق في الشارع حوله، هادئًا كان، مدت يدها بنصف قرش: أعطني "ملبَّس"، وقبل أن تصل يده إلى قطعة النقود سألته: شُفْتُه؟

- لا، من يومين.

- أظن أنني أغضبته. قالت.

- لا عليكِ، تعالي. أمسك بيدها جرَّها للدّاخل.

صرختْ: ما لك؟ اترك إيدي!

ارتبك، جفّ ريقه.

- لا شيء، أريد أن أقول لكِ سرًّا.

- عنه؟ سألت.

تركها في الدّاخل، خطا باتجاه الباب، أغلقه، أعتمت فجأة.

- افتح الباب. أمرَتْهُ.

- لا تخافي.

تسرَّب الضوء من الشّقوق، أنار المكان.

تمالكتْ نفسَها: قلْ بسرعة.

- أنا من زمان!

- من زمان، إيش؟

مدّ يده إلى شعرها: من زمان بحبك.

قالت: وأنا بحبّك، بس مش هيك.

اقترب منها، دفعتْهُ.

- كنتُ أعتقد أنكَ صاحبه ولا تخونه!

- أنا صاحبه، بس بحبّك.

انتفضتْ.. أشرعتْ باب الدكان، انطلقتْ خارجةً. دفع يده إلى تنكة الحلاوة البيضاء، اقتلع جزءًا كبيرًا، وضعه في ورقة وتبِعَها.

- خذي. قال.

- ما هذا؟

- حلاوة.

- كُلْها لحالك.

- لن أعيدها.

- تعدني؟

- أعِدُك.

تناولت الحلاوة ومضت تأكلها، ومن بين شفتيها الصَّغيرتين الملطّختين قالت: سَلِّم.

وكان تبليغ السَّلام الثاني أصعب من الأول.

***

لم تعد للدّكان ثانية.

حذِرةً أصبحت حنّون ومستنفرة، ولم يعجبه ذلك.

بحث عن مدخل آخر يوصله إليها، عاد للماضي، بحث في دفاتره، وصرخ

- وجدتها وركض.

ركض كما لم يركض في أيّ يوم من الأيام، ركض ليقول لحنّون إن الفخَّ أمامها، وعليها أن تكون حذِرة، ولم يعرف من أين يدخل الكلام، ارتبك.

- شايفتك لحالك!

سألت سؤالها الذي لا تبدأ الحديث إلاّ به. ولم يُجب خليل.

وفجأة أحضر الماضي الميت كلَّه وبسطه على دقائق ذلك اللّقاء.

- سميرة أخذتْ عقله!!

- سميرة مين؟ سألتْ حنّون. وقد هزَّتها المفاجأة.

- سميرة، سميرة، ابنة حارتنا. إنه صاحبها.

- صاحبها؟ يراها؟ يمشي معها، يتحدَّث؟

- ويذهب معها للحمّام!

كلّ شيء أتى هكذا دفعة واحدة، وبأسهل مما كان يعتقد.

انطلقت تلعن كلَّ شيء أمامها، كلَّ شيء في رأسها.

يلعن الشارع، يلعن الحمّام، يلعن الشَّرايط، يلعـن الببـسي، يلعـن التنكـات، يلعن الجرَّافة، يلعن الزُّقة، يلعن السطح، يلعن الأبواب، يلعـن الغـراب، يلعـن البوم، يلعن البِساس، يلعن الكلاب.

واختفت.. كما لو أن لعناتها شربتْها.

***

التقى الصغيران أخيرًا.

كأن عمرًا طويلًا انقضى قبل أن يبلغا هذا اللقاء.

- لم تعد تظهر. قال الصغير. هل علي أن أُرسـل لـك الرسـائل بالبريـد أم في برنامج الإذاعة "وسلامي لكم"؟

- أبي يجبرني على الجلوس في الدكّان.

- على الأقل تأكل حلاوة!!

ارتجف خليل لذِكر الحـلاوة، لكنـه بعـد لحظـات أدرك أن لـيس لهـا علاقـة بحلاوة حنّون.

***

وهدأت حنّون..

فجأة ابتسمتْ..

- يذهب للحمَّام، يعني كِبِر.

وراحت تقفز، كبر، كبر، كبر!!

وتسألها أمها: مَن؟

- لن أغضبه، لن أسأله عنها، كبر.

ولن تسأله، حتى قدوم ذلك اليوم، الذي ستنفجر فيه وتخـرج باحثـة عنـه في الشوارع لطحن عظامه، بعد أن يكون خليل قد أسرّ لها بالحكاية الأخطر!

20

دخل الخريف.

ازداد فضاء المخيّم حلكة، خريف ضرب الشّوارع والدَّوالي، الدَّوالي التي تحمل زارعيها إلى دواليهم الأولى، تَعرَّى التّوت، ثار غبار اقتحم شقوق النوافذ والأبواب، تراكم في العيون، فوق الأواني والصُّور.

- قُمْ، واستلم المؤن. قالت عائشة.

فقام.

بين أن يقول لها: لا. هو الذي استلم المؤن عشرات المرّات، أو أن يقول: نعم، اكتفى بصمته. حمل حقيبة القماش بما فيها من "خرايط"[15] صغيرة وراح يخبّ في العتمة، العتمة التي تغمر الأشياء حوله، وتغمره.

في المبنى المنخفض، المبنى الموزيٍّ، طويلًا كان الطابور، نساء، رجال، فتيات من كلِّ الأعمار، طابور طويل من الانتظار المُتطلِّع للطَّحين وزيت الصُّويا والعدس والصّابون كريه الرائحة.

للرجال طابور.

وللنساء آخر.

وللصغار حرية الاندساس في الطابور الذي يعجبهم؛ وطابور النساء كان أقصر.

---

[15] - أكياس صغيرة من القماش.

أمامه كانت، اكتشفها متأخرًا، امرأة لها رائحة خاصة، كانت تلعن العيشة، تلعن الطَّحين والصَّابون، وضجيج تنكات الزَّيت التي تتصادم في أيدي الناس، وتعاتب الله لأن الشّمس لم تشرق بعد.

أعجبته..

- حنّون كبيرة. قال.

وكانت تصطدم به. كلّما تحركتْ..

كلّما ماج الطابور بدفعة من الأمام أو الخلْف..

واستيقظ.

استيقظ ذلك الشيء الصغير دُفعةً واحدة، وأصبح من الصَّعب إعادته للنّوم، فضيحةٌ بريئة يعلنها رأسُه المتفلِّت من تحت البنطال!

وفي لحظة مفاجئة التفتتْ المرأة إليه، أذهله بريق عينيها، أنزلتْ نظرَها إلى أسفل خصره. تدفَّق عرَق غزير، عرق بارد جعله يرتجف، أوشك أن يسقط مغشيًا عليه.

ابتسمتْ..

وخلسةً، امتدتْ يدُها إلى الرأس الملتهب النّابت كزنبوع بصل، قرصتْه بلطف.

ومالت عليه

- ولك شو هذا يا مقصوف؟!

انفلتَ من الطّابور.

راح يركض مُحلّقًا وراءه كيس الطّحين الفارغ، علبة السمنة، "خرايط" القماش المعدّة للسُّكّر والأرز.

دار في الشوارع.

في ساحة صيدلية "يارد".

في ساحة الباصات.

وفجأة توقّف.

ما الذي يمكن أن يقوله لأمّه؟

عاد.

الطابور على حاله، تسلل متلكئًا على الحائط، متجاوزًا أرسنة الحمير، رقابها، وصياح أحد الحَمّاريْن: هذا المكان للحمير يا حمار!

جلس في الطّرف المقابل للساحة حيث الدّكاكين الصغيرة، وأصحابها الذين يبتاعون المؤن من اللاجئين الذين يُفضلون الجوع من أجل الحصول على القروش اللازمة لهم أكثر من الخبز، وأولئك الذين لم يعد طحين الوكالة مناسبًا لمقاماتهم.

لـمَحَـتْهُ.

لم يتغيّر شيء، الطابور على حاله، وهي هناك، لا أحد يراه سواها، كلّ شيء على ما هو عليه. عيناها تتطلّعان باتجاهه، ويدها تشير إليه: أن اقتربْ. وابتسامتها تلمع صافية مع أوّل خيوط الشمس.

طويلًا ظلَّ هناك. إلى أن رآها مُقبِلَة.

فكّر بالفرار مثل عصفور أدرك وجود الفخ، عصفور يُتقن الحذر، لكن شيئًا ما سمّره بالأرض: وقوعكَ في الفخ، أحيانًا، هو الطيران!

ساكنًا، مستسلما لوْقع خطاها في أذنيه، الخطى التي لم يبق في الساحة سوى تهاديها.

ومستسلِمًا لالتماع عينيها الحرّ مثل السماء.

أمسكته من يده: خُفْتَ؟! سألته.

وسار خلفها، يدها تحتضن يده كعصفور، متعثّرًا بما في طريقه من أشياء، متعثّرًا بما ليس له وجود.

- ابن أختي. قالت للعجوز التي تقف خلْفها، العجوز التي كانت تقف خلْفه، ولم يكن يراها.

- تعب من وقفته. فجلس هناك يستريح. أضافت.

ولم تكن العجوز مهتمّة بأيّ تفسير، كانت تقف في طابور طويل لا أكثر ولا أقل.

دفعتْه أمامها.

وبصدرها اليابس الطّريّ العالي أحاطت رأسه، فاندفع كلُّ شيء فيه أكثر.

تحرّك الطابور، ثارت زوبعة الصَّفيح، اشتدّ التصاقها به، تراصّت الأجسادُ، صرخ أكثر من واحد: دوْرنا. وقد أصبحوا خارج الطابور. ويدها تحيطه، تشدّه من صدره إلى حرير بطنها.

وصرخت امرأة في وجه رجل في الطابور المقابل، وانفلتت كنمرة: واحد قليل حيا، ما بتستحي.

وانشغل الطابوران به، وانهالت عليه بتنكة سمْنة. لم يتدخل أحد. كل يخشى ضياع دوْره.

وأطلَّ عامل الإغاثة من خلف الشّبك الحديديِّ الأسود ونظرة احتقار تملأ عينيه

- عمركم ما بتصيروا أوادم!!

وانـزلقتْ يدُها

إلى خصره

انـزلقت

أكثر

يدها الدافئة

يدها الملتهبة

يدها الجمرة

وعامل الإغاثة يتقدَّم، فيتزاحم البشر، يعلو الضَّجيج.

عامل الإغاثة يفتح الباب، والصغير يرتجف، أبواب جسده تُشرَع كلّها دفعة واحدة، خلاياه تُسابق بعضها بعضًا في انفلاتها صوب التّلاشي الكامل.

يتحسّس اندفاعة دافئة بين فخذيه.

يلتفت إليها ويهمس بخجل، وقد تحوّلت فجأة إلى سيّدة أسراره: شخيت ع حالي!!

انـحنتْ في حركة متوارية وقبَّلَتْ رأسه.

- ولك هذا مش شخاخة!!

***

من يستطيع النوم بعد اليوم؟!

من يعرف الطرق التي سلَكَها؟

***

ساهِمًا في الشارع، ساهِمًا في البيت، في الأحاديث السَّريعة، ساهمًا في باحة المدرسة، في المقعد، في مسائل الحساب ودروس الدِّين.

ساهمًا في الطيور التي أحبّ.

نسيَ الصيد.

وسيستعيد المشهد الصباحيّ ذاك، المشهد الذي سيهترئ من فرط استعادته له، سيستعيد يدها، ويكتفي في النهاية بيده.

سيبحث عن أجنحة، ذلك الذي لم يعد قادرًا على المشي من فرط ما أنهك نفسه! وأنهك عصفوره الصغير! عصفوره الذي تسلّخ لإفراطه في استحلابه، عصفوره الذي سينزٌ دمًا في النهاية.

وسيخاف.

وسينسى أنه يخاف.

يدٌ سرّية تُشكّل العالم كلّه، تدحوه، العالم الذي كان هناك طَوال الوقت.

حين كان يصطاد.

حين كان يجري.

العالم الذي تركه وراءه دائما، وعاد إليه صدْفة ذلك الصباح، خارجًا كصرخة من أعماق ليل، من اندفاعه المتواصل في عادات الطيور، حذِرها، انقيادها الدّائم نحو فكّي المعدن الدَّقيقين.

جمرته الصغيرة لم تعد تهدأ، جمرته تشعل باطن فخذيه، يضغط عليها أكثر وأكثر، يُمسكها فتنفعل، تنفلتُ دفعة واحدة، يرتجف هو، وكل ما حوله.

وابتعد التلميذ الذي بجانبه.

ابتعد قليلًا، حين اكتشف أن فخذ جاره ما تفتأ تحتكُّ به في حركة مشبوهة! حركة لا تُحال للمصادفة أبدًا.

- سأقول للأستاذ. قال جاره.

- ماذا ستقول للأستاذ؟ سأله الصغير.

الصغير الذي لم يكن في الصف.

- سأقول للأستاذ. كرَّر الجار!

- قل للأستاذ. ردّ الصغير.

ورفع الجار يده، ورآه الأستاذ. قال له. تكلَّم. ولم يجد الكلمات المناسبة، وقف طويلًا، ثم همس والعرق يتصبَّب من جبينه: بيلزْ عليّ!

ولم يكن الصغير هناك.

الصغير الذي سمع الأستاذ أخيرًا يأمره: يا ولد إبعد عنه!

فابتعد إلى أن أصبح نصفُ مؤخرته خارج المقعد.

ولم يسأل: لماذا؟

***

- يا أهبل. صرخ خليل.

خليل الذي لم يعد قادرًا على إغلاق فمه الذي أشرعته الدّهشة.

خليل الذي حاول أن يشرح له:

العمر الذي يمضي بالأولاد إلى الفتيات.

الملامسات التي يمكن أن تتمّ.

انفتاح العالم على أسرار لم يكن نفسه جرَّبها.

خليل الذي عاد ليلعب فجأة دور الأستاذ.

- سأبحث عنها. قال الصغير.

- سأرافقك. قال خليل.

خليل الذي بدأ يحلم بفرصة قد تسنح، ويلعب دور الصغير الملعوب عليه!

في الشوارع راحا يبحثان، في سوق (الخُضَار)؟ في الطُّرق المؤدية للمخيّم، الخارجة منه.

- قد تكون من سكان "جبل المَرّيخ"، "الأشْرَفِيَّة"، "النَّظَيْف".

فقدا الأمل.

- ألم ترَ إلى أين اتّجهت؟

- استأجرتُ حمارًا وكنتُ لم أزل أجرُّ كيس الطَّحين الذي كان ثقيلًا أكثر من أي يوم مضى، ولم أكن قادرًا على تركه تحت أرجل الناس، في الممرّ. كان عليّ أنْ أسحبه، وحين خرجتُ كانت قد ابتعدتْ.

- لِمَ لَمْ تسألها أين تسكن؟! أنَّبه خليل.

- وهل كان لي لسان؟

- لا، كان لك "حمامة"!، هأ، هأ، هأ، هأ.

- أن تستلم المؤن من المخيّم فهذا يعني أنها قريبة من هنا.

***

وبحثا..

أيام الشهر انهمرت.. عبرت حضور اللحظة الكبيرة، تركتْها ذكرى، أكلتْ حوافَّها، لونَ صباحها ذاك، أكلت الفوضى العالية للطابور، وجهَ عامل المؤن، أكلتْ يدها.

ولم يجد أقرب من يده إلى جسده، فداعبه ثانية وثالثة، تعِب. عصفور من بلاستيك، وعصفور من طيران، والمسافة بينهما يد غائبة، يد أشبه ما تكون بأجنحة السّنونو. السنونو، ذلك الطائر الوحيد الذي يتمنّى أن يصطاده، قال لخليل: السّاحر نفسه لا يستطيع اصطياد السّنونو.

- لا بد من طريقة. ردّ خليل.

- لو كان الله يحبّني لخلقني طائر سنونو. قال.

- لماذا؟

- إنّه الطيران. وصمتَ.

- إنه لا يهبط إلّا على أسلاك الكهرباء العالية، ويشرب الماء ويأكل دون أن تلامس قدماه الأرض. هل رأيت سنونو ميتًا في أي يوم من الأيام؟

- لا، رد خليل.

- لأن السنونو حين يقترب موته، يبدأ بالصعود إلى أعلى، يظل يصعد، ويصعد، ويصعد في الفضاء، إلى أن يصل نقطة لا يعود بإمكانه بعدها السقوط، فوق الغيم بكثير، أبعد، وهناك، يفرد جناحيه ويموت.

- ألا يسقط؟ سأل خليل.

- لا، مَن يرتفع مثلما يرتفع السنونو لا يسقط أبدًا. وصمتَ.

- أتعرف، السنونو هو طائري، السنونو أجمل من الشمس والقمر، أجمل من السماء الزّرقاء، أجمل من الحسّون. وصمتَ. أجمل من حنّون التي تخيّرني دائما بينها وبين العصافير.

وصمتَ.

- وهل هو أجمل من امرأة المؤن؟ سأل خليل.

ولم يُجب الصّغير.

***

السنونو.. تلك أسطورة الصغير، أسطورته الأولى، خارج دروس الحساب والإنشاء والعربي.

خارج دروس الدين.

أعجبته فظلّ يردّدها.

وأوشك خليل أن يسأله عن الأسطورة الثانية، أسطورة امرأة المؤن، وهل نبتتْ هناك في الطابور، أم في رأسه؟

لكنه لم يسأله.. خليل الذي ادَّخرها أخيرًا ليوم أبيض يجمعه بحنّون.

19

- نذهب للصَّيد فننسى.

قال خليل.

وذهبا.

لم يكن هو، كان خطواتٍ ثقيلةً لا أكثر.

نصبا الفخاخ، انطلقا في البرّ يردّانِ الطيور باتجاه حـذرها، ثمّـة شيء تغـيّر في داخله، أدرك الصغير ذلك.

انطبق الفخّ، انطلق خليل، ركضَ خلفه لحظة، أحس بإنهاك شـديد، جلـس على حـجر. وحين عاد خليـل بعـصفور مقطـوع الـرأس، لم ينـتفض انتفاضـته الكبيرة أمام موت الجناح.

-لم أستطع الوصول في الوقت المناسب، كان يُنازِع، كان لا بدّ من ذبحه.

قال خليلٍ كما لو أنه يعتذر، كما لو أنه يكذب.

صامتًا ظلَّ الصغير.

لكنّه لم يكن قد فقد الأمل.

ردَّ "الكُحْلي" باتجاه فخه، "الكحلي" الذي لم يكن بحاجة لأن يـردَّه باتجـاه الفخ، الفخ الذي انطبق وأثار زوبعة الغبار الصغيرة، ركـض، وركـض خليـل. ارتمى في منتصف الطريق، وصل خليل إلى الفخ في الوقت المناسب.

كان الكُحْلي، بعينيه الصغيرتين الممتلئتين رعبًا يتخبَّط، أمسكه حيًّـا، التفـتَ خلفه وجـد الـصغير بعيـدًا، اجتـثَّ رأس العـصفور، وعـاد والـدّم يقطـر مـن أصابعه، دم حار، يعرف الصغير متى ينبثق.

***

- فِكْرَك خشّيرْنا؟! سأل الصغير.

- نعم؟! ردّ خليل ساهمًا.

وكان المخيّم أمامهما يلمع تحت شمس غاربة.

- ربّما لأننا لم نعد نذهب للصيد كل يوم. قال خليل.

- ولكنّني سمعتُ أنك تذهب للصّيد مع سعود الشرّاني.

- كذِب، أبدًا، هذا كذب. قال خليل منفعلًا.

- هكذا سنكون أعداء العصافير لا أصدقاءها. ثم قال لخليل: أين العصفوران؟

أخرجهما من جيبه، تأمّلهما، مسّد على ريشهما، استلّ بعض ريش الذّنبين.

وفجأة.

طوّح بهما للسماء.

هويا مثل حجرين.

- العصفور الميت ليس له أجنحة. العصفور الذي ليس له أجنحة عصفور ميت.

***

سرق بيض الدَّجاجة البيضاء.

وضعه تحت الحمامة.

سرق بيض الحمامة الزرقاء.

وضعه تحت الدجاجة.

وانتظر.

كسَرَت الفِراخُ البيض، خرجت تصوْصو.

ونادت أمّه: تعالي يا مريم، شوفي!

نظرت مريم، ولم تفهم.

- معقول؟

- هذا ما يحدث.

راقبها الصغير، وراقب الفراخ.

- غلطة، لا أكثر، قالت مريم.

لكن الدجاجة أطعمتْ فراخ الحمام.

والحمام أطعم فراخ الدجاجة.

- هل سيطير فرخ الحمام؟ هل سيطير فرخ الدجاجة؟!

مرّت الحمامة أمام فراخها الحقيقية لم تنتبه. تطلّعت الدّجاجة إلى فراخها ولم تنتبه.

طارت الحمامةُ.

لم تتبعها فراخ الدجاجة.

حدّقتْ فيهما.

قالت: هؤلاء ليسوا أولادي.

حدّقت الدجاجةُ في فرخي الحمامة اللذين تحتضن، كانا أكثر شغبًا، ولهما أجنحة تطول.

سألت: كيف حدث ذلك؟

ولم يُصَدِّق الدِّيك!

طار الفرخان عاليًا.

فقالت الدجاجة: أخيرًا رزقني الله ولدين عبقريين أستطيع أن أُباهي بهما الحمَام، دائما كنت أقول: لم تُخلق أجنحتي عبثًا!

وقالت الحمامة: ما الذي فعلتُه يا ربّ لأُرْزَق بهذين الولدين الغبيَّين اللذين يسقطان دائما من الأعلى، فتُعيدهما صاحبة الدار.

ولم يدم ذلك طويلًا.

أنـزلتْ صاحبةُ الدّار فرخي الدّجاجة وأعادتهما إلى أمّهما.

فقالت الدجاجة: لا أريد هذين الغبيين، أعيدوهما لأمّهما الحمامة.

لكن الدّجاجة بدأت تقلق لغياب ولديها فرخي الحمام، فأخذت تؤنّبهما كلما عادا، وتنقرهما من كل مكان، حتى ينـزل الدّم. تسألهما: أين تذهبان؟ فلا يجيبان.
وفي يوم من الأيام قررت أن تتبعهما، صعدتْ السور أوّلًا، وحين طارا طارت خلْفهما، لكنّها وقعت، وأدركت أنها لن تستطيع الطيران، لذا تبعتهما ماشية، وعاد الطائران، لكن الدجاجة لم تعد.

- وماذا عن الحمامة؟

- الحمامة؟ وضعت بيضتين جديدتين، وصار لها أربعة أولاد.

- وهل عاد إليها الأوّلان.

- لا، لكنّها عرفتهما من أجنحتهما، وعرفت فرخيها المزيفين من تعثُّرهما الدائم وعدم قدرتهما على اعتلاء السور.

- ماذا تقصد؟ سأله خليل.

- لا شيء، ليس كلّ من قال إن له جناحًا يطير.

- أتعرف، لِمَ أنت صديقي؟

- لا. أجاب خليل. واستدرك: لأننا أصحاب!!

- لا. أجاب الصغير. واستدرك: لأنني لا أعرف سِواك!

***

أخيرًا عاد.

صرختْ أمّه، انفجرت في وجهه: أين كنتَ منذ الظُّهر؟

لم يُجب.

دخل الحمّام، الحمّام المقابل لخيمة مريم، أوشك أن يصرخ حين لمس "حمامته"، وصرخ: أين يدها؟

اندس بين إخوته، رأسه على المخدّة المحشوّة بأكثر الألبسة اهتراء في الدنيا، الألبسة التي فاقت خروقها المساحات السليمة فيها، الألبسة التي تحوّلت إلى ما يُشبه الشَّبكة، النتوءات الحادّة تزداد ضراوة، لعلها أزرار نسيتْ أمّه انتزاعها.

لم ينم.

صرخ: أين صدرها؟

وانسلّ باكرًا إلى السوق.

كلّ النساء يحضرن للسوق أخيرًا.

انتظر عند مدخل الجهة المقابلة لساحة النّادي، فقد الأمل، تحوّل إلى الجهة المحاذية للمسجد، فقد الأمل. تحوّل إلى الجهة المقابلة لمحلات القصَّابين، فقد الأمل.

وحين أدرك كم من الوقت ضاع، كانت الشمس في منتصف السماء، وكان يبدو تمامًا كولد شارد من مدرسته.

ولأنه لم يغب مرَّة فقد أرسل الأستاذ خالد من يسأل عنه خلال "الفرصة".

***

- اجلسي هنا، لا أريد أن تتدخَّلي، قالت مريم لعائشة، أنا من سيربّيه.

انفلتتْ تبحث عنه في الشوارع، في الأزقّة، في سوق الخُضار؛ لكن، من يجده في كومة القش تلك؟

عادت وجلست على العتبة. البحث أطفأ جمرة غضبها.

- ما هكذا تُربِّين ابنك يا مريم؟

انتبهت لجُملتها: بكتْ.

- أَما كان من الطبيعيِّ أن يكون ابني لو تزوجتُ...؟!

- هذا زوج أُختك.

- نظرنا دائما للبعيد، وانتظرنا.

- كان علينا أن ننظر حوْلنا.

- لو لم يحتلوا البلد، من يدري، ربّما كان لي ولد بعمره من "سلْمان". ربّما يكون قد خجل مني، ما الذي يمكن أن يقوله لي؟ كيف كان يمكن أن يُعاشرني ليكون لنا أولاد. عائشة على حق: لقد تزوّجَ هزيمته ورحل.

وانتظرت، لم تكن تنتظر، كانت تبكي.

واستدارت، رأت خيمتها.

منتصبة هناك كشاهدة قبر: قبر مَن هذا يا مريم؟

عادت بنظرها للشارع فرأته أمامها.

فوجئت: شَرَّفْت؟

- لماذا تبكين خالتي؟!

لم يسألها أحد مثل هذا السؤال بمثل هذه الرقّة، هدأتْ.

- تعال. أقعد.

قعد.

- لن أسالكَ أين كنت، لن أسألكَ، لكن اسمعني جيّدا، فَتِّحْ أُذنيك، حتى الدّار من الممكن أن تغيب عنها، أن تغيب طويلًا، سامعني؟ لكن المكان الذي لن أسمح لك بأن تغيب عنه هو المدرسة. سامعني. هذا من أجل أبيك أولًا،

ومن أجلي، نحن أناس لا نملك شيئا الآن، وقلبي يقول لي دائما، في كل هذه الغربة هناك شيء واحد يشبه بلادنا، هو المدرسة. لا تغب أنتَ الآخر، لا أريد أن أخسر البلد أكثر من مرّة، إن خسرناها مرَّتين، خسرناها للأبد. تَرْتِحْ بكتابك، وإيّاك أن يسقط من يدك، لم يبقَ لنا شيء الآن غير أولادنا الذين يذهبون للمدارس. سامعني؟!

هزّ الصغير رأسه.

- عليك أن تَعِدَني أنكَ لن تغيب عن المدرسة ثانية؟

وقبل أن يجيب الصغير، قاطَعَتْهُ.

- لا تَعدني إن كنتَ ستكذب عليَّ. إسمع. إسمع. ربما كان من الأفضل أن تعاهدَ نفسكَ. وصمتت.

- اذهب واغسلْ وجهَك.

***

قرع جرس الحصة الثالثة اندفع التلاميذ نحو الساحة في استراحة الدقائق العشر. ابتاعوا الحلاوة وكرابيج الحلب وشعر البنات، ابتاعوا الهرايس، التّرمس والفول، وساندويشات الفلافل.

وانطلق الصغير بعيدًا.

كالسَّهم انطلق باتجاه السّوق، دار دورتين. ما أكثر الوجوه، الملامح مختلفة رغم وحدتها إلى حدّ لا يُصدّق.

ألأنها لم تكن هناك؟

لم يكن يعرف منطقة واحدة كالسوق فيها كل هؤلاء البشر.

عاد إلى المدرسة كحصان أكمل العَدْو في حلبة سباق.

لاهثًا.

***

ظهرًا

قال لخليل: هيا نبحث عنها.

- هل أنت متأكد أنك لم تر تلك المرأة في الحلم! سأله صاحبه.

استدار غاضبًا وابتعد.

***

لم يعد في السّوق أحد.

لم تعد الشمس تعبر الخروق الكبيرة لمظلّات البائعين، لم يعد هناك من الخضروات سوى التالف، التالف الذي يتسلّل إليه أناس آخرون ويشترونه في صفقات سريعة. لم يعد هناك أثر لأية حبة بندورة، أو خيار، أو بطاطا، ولم يكن هناك شيء يُلقى إلى الزبّالين أبدًا. ثمة أناس بحاجة لعجين الخُضار الذي يتطلّع عبره الدّود للبشر باستغراب شديد، ولم تعد هناك عظام عند القصّابين، أو دهون.

***

ناولها عصفورًا.

أمسكته خائفة، دسّته بسرعة في جيب فستانها، ويدها تسدُّ طريق خروجه.

سألته: اصطدْته؟

هز رأسه.

- وحدك؟

لعنَ اليومَ الذي جاء فيه الصغير إلى هذا العالم، ولعنَ العالمَ أيضًا. هزَّته من كتفه: سألتكَ: وحدك؟

هزَّ رأسه: أجل.

- أنت لا تذهب معه للصيد؟

- لا.

- لماذا؟

- لأنَّه لا يذهب للصيد الآن؟

- لماذا؟

- لأنَّه يُحِب.

- يُحبني؟!

- لا، يحب امرأة رآها في المؤن!

- امرأة، امرأة؟!!

- آه.

- كذّاب.

- يحب واحدة غيرك، والله.

- كذّاب.

- أنا الذي يحبّك، هو لا يحبّك.

- كذّاب.

وقذفت العصفور في وجهه فطار.

ولكنها صَدَّقَتْ.

***

انفلتتْ من خطاها، من مدى لعناتها الكسيحة.

أطلقت سؤالها: لماذا لا يكون أهبل إلّا معي؟!

أدرك خليل أنها ستذهب لبيت الصغير.

صرخ: لن تجديه هناك.

عادت إليه نَمِرة، هزَّته.

- أين أجده؟ قلْ.

ارتبك، وهزّه أكثرَ إحساسُه المُطلق بضعفه أمامها.

- في السوق، في سوق الخُضَار، يبحث عن حبيبته هناك.

ابتعدتْ.

وقبل أن تختفي صرختْ: كذّاب!

***

فتَّشتْ..

لم تره، لكنّه رآها، فاختبأ خلف امرأة كبيرة كانت تناقش البائع في سعر عـدّة رؤوس من الملفوف.

لم تكن عيناها اللتان تبحثان.

كان غضبها.

***

عرفت مريمُ الفتاةَ التي اندسَّتْ في خيمتها، عرفتهـا قبـل أن تـرى وجههـا، اندفعتْ من بوّابة الحوش وبصمْت انسلّت إلى الخيمة..

كانت تبكي.

- حنّون؟!

واحتضنتها.

قالت لها: إنّه يحب واحدة اسمها سميرة وواحدة رآها في المؤن. ولم تستطع أن تقول أكثر.

وقالت: لماذا لا يكون (أهبل) إلّا معي؟

ولم تكُن مريم تملك الجواب، مريم التي كانت تغلي، ولأوّل مرّة تكتشف في نفسها الرغبة بتكسير عظامه.

- سيعود، اطمئني.

وسألت نفسها: تُطَمْئنين مَنْ يا مريم؟!

ساعتها غضبتْ أكثر.

بكتْ.

- كلّه بسببي. قالت حنّون.

- لا، ليس بسببك. ردّت مريم.

وانسلّت حنّون من الخيمة. مغموسة بالنَّدم.

***

عائدًا يجرُّ رجليه، وخلفه شمس مكسورة غاربة. رأته.

اندفعت إليه، ولم تكن تحتاج الكثير لتبطحه أرضًا وتنشب أظافرها في رقبته، لتعضّه وتعفّره بالتراب، وتضربه بما تصل إليه يدها من أشياء.

وسيمضي وقت طويل قبل أن يُدرك ما يحدث، سيصرخ في البداية، وحين يكتشف أن مَن فوقه حنّون سيصمت، وسيكتفي بدفعها بيديه، سيكتفي باتّقاء الضَّربات. وستتركه وتبتعد دون أن تلتفت وراءها. لكنها للحظة ستتوقّف! وتعود إليه، وتقبض على عنقه ثانية وتصرخ: لماذا لا تكون (أهبل) إلاّ معي؟ آه، وصاحبك، صاحبك الذي يريد أن يضحك عليَّ ويطعمني حلاوة من الدّكان، آه!!

***

وسيجد نفسه ثانية متمرِّغًا في التراب، وخالته مريم فوق صدره. سيصرخ هذه المرّة، لأن الضربات أكثر قوّة، ولن تتدخّل عائشة، لن تتدخّل سهى، ولا إخوته، لن يتدخل أحد.

وستضربه، ويتّقي ضرباتها.

- من شان ألله يا خالتي.

- تعرف الله؟ أنت تعرف الله؟!!

وستُمسكه من أذنه وتجرّه للخيمة وتعيد عليه ما قالته حنّون.

لكن مريم لن تعرف أن ضرباتها لن تحلَّ المشكلة. وستفهم حنّون أيضًا، حين يحمل انتقامه ويدقُّ شبّاكها بعد شهور!

***

لم يكن الصغير بحاجة لأن يُفكِّر طويلًا، ليعرف الفضيحة التي نشرت أسراره، الفضيحة التي سيطويها كما طوى فضيحة الكتاب، دون أن يدرك السبب الذي يدفعه لذلك.

لكنّه سيكون أكثر حزنًا.

***

على أعمدة الضّوء ارتفع السّوق.

آلاف الحزم الضوئية تتسلّل عبرَ البطانيات والشّوادر البالية. تتقاطع، تفترقُ وستمضي حنّون، تخبّ، بين مسحورة وضائعة، حنّون التي أصبحت كلّ طُرقها تمرّ بالسوق.

روائح الخضار المختلطة، أرضيّة السّوق المحفَّرة، القدمان اللتان تغوصان في الكُتل الليّنة.

تمرّ بالصغير دون أن تراه، وتعرف أنه هنا، تمرّ وكأنها. تعتذر، تمرّ وتسأل في كلّ مرّة: ما الذي سأفعله إذا التقيته ثانية وجهًا لوجه؟!

وتتمنَّى ألّا تراه.

وتعود للسّوق ثانية.

***

- قلت لها ذلك لأجعلها تَغار! أقسم لك. لأجعلها تحبّك! ردّد خليل.

- وحكاية الدّكان والحلاوة، أنا الذي أعطيتها الحلاوة أم أنت؟

صرخ خليل: حنّون مثل أختي!

وسارا صامتين.

- لماذا لا تأتي أنت وحنّون إلى الدُّكان؟

- وماذا نفعل؟

غمزه خليل بعينه، وابتسم ابتسامته الخبيثة تلك، فأوشك الصّغير أن يُصدّق أمام هذا العرْض أنه لم يقل كلمة واحدة لحنّون عن سميرة، عن امرأة المؤن، وأن قصّة الحلاوة من اختراعها!

18

بصورة اعتيادية تمامًا كان يسير، حين انتبه أن ثمّة شيئًا ما يبرز من باطن يده اليُمنى، وضعَ راحتيه إلى جانب بعضهما البعض، قارن بينهما. الفرق واضح، نادى حنّون، جاءت: انظري، انظري ليدي. نظرتْ وضحِكتْ كثيرًا.

- راح يجيك ولد، مبروك؟!

قال لأمه: أريد جبنة بيضاء!

التفتتْ إليه ضاحكة: شو، حضرتك بتتوحَّم؟!

خليل أخذ المسألة بجدية أكثر قال: أضربك على إيدك بنزل الولد وبترتاح؟

الأستاذ قال: منذ زمن لم نرك.

فعرف قصده، أنه لم ير العصافير.

- إفتحْ إيدك، قال له.

واستلّ العصا الغليظة من دُرْج الطاولة، لكن الأستاذ خالد ارتبك حين رأى اليد: مين عامل فيك هيك؟ لازم تروح ع الدكتور!

صرخ الصغير: دخيلك يا أستاذ، كلّه ولا الدكتور!

وكان الأستاذ يسأل نفسه ويسأله: دُمّل هذا واللا جَنِيْن؟

هرب الصغير من الأستاذ ومن حنّون، من أمّه وخليل، وكان يلتفت خلفه ليتأكّد أنهم لا يتبعونه، حين اصطدم بخالته.

- أحضرتُ لكَ الدَّاية. قالت له.

لكنها لم تتحرَّك، ظلَّت واقفة. ودخل البيت، بينهم كان البيت، ولم يكن هو.

امرأة غريبة جلستْ هناك، تدفع الحطبَ المشتعل تحت سخّان ضخم للمياه.

- تعال. أشارتْ إليه.

- أنا هنا لأساعدك، تعال.

اقتربَ منها، الماء يغلي، ولا تكفّ عن وضع حطب جديد.

- سأساعدك! اطمئن. وجسّتْ يدَه.

- مين حكالِكْ عن إيدي؟!

- ولو!!

هزَّت رأسها وغمزتْه بخبث شديد، وامتدتْ يدها إلى ما تحت خصره. ارتبك. ابتعد خطوتين. وقفتْ، سارت إليه، فبدتْ عملاقة إلى حدٍّ لا يصدَّق. رفعته إلى وجهها بإصبعين فقط، ومن بين أسنانها قالت: ستفعل كلَّ ما آمرك به، مفهوم؟

وفعل كل ما أمرته به، لكنّه لم يقل: مفهوم!

- بعد قليل سترتاح من كل هذا، وتلِد.

- كيف ألِد، أنا وَلَد.

وعمَّ صمت.

قال: إيدي بتوجِّعني.

- تشجَّع. قالت له آمرة.

صرخ: ما بقدر أتحمَّل.

حملتْ يدَه، وضعتْها داخل المياه التي تغلي، أخرجتها.

- الآن، إدفعْ.

دفع، وطوى صراخه حين سمع صراخ طفل صغير جدًا بحجم عصفور، عارٍ ووردي.

- خُذْ الولَد، واذهب لبيتك.

- هذا بيتي. قال لها.

- لا، هذه داري. قالت.

- بيتي.

- داري.

- بيتي.

- داري.

وفجأة اختفتْ.

فتّش الهواء، ناسيًا صراخ الولد الصغير بجانبه. وهزَّته أمه: إهدأ.

***

وقال أستاذ الدين: (ناكح يده يأتي بها إلى الله حُبْلى يوم القيامة!).

***

متيبّستين رآهما، حطبتين جافتين رآهما: رِجْليه.

***

نظر إلى السهل المنبسط الغارق في احمراره البُني، كم أصبح بعيدًا.

شيء ما يربطه بابنة الأستاذ خالد.

- هل سيعطيني خليل عصفورًا لأُطيّره، خليل الذي لم يعد يصطاد عصافير بأجنحة؟

وحاول الرَّكض ليبعث أسطورة السنونو التي اخترعها، تسارعت خطواته، تسارعت.

قطعَ السهل.. خلْفَهُ غبار كسول. كل العصافير التي وقعت في فخه كانت بلا أجنحة.

دخل بيت الأستاذ خالد، أمسك بيد ابنته، شدّها، لم يقل الأستاذ شيئًا، وصلا البوابة الواطئة المطلّة على الساحة الترابية.

- نتسابق؟ سألها.

ضحكت: اعطني رجليك أولًا.

- لن تنفعاك.

غالبتْ ضحكتَها، شلَلَها، ذبول رجليها المقيم على أطراف روحها: هيا. قالت له.

ركضا، اندفع بكل قوته، العصافير الميتة تنظرُ إليه ساخرة من فوق أسلاك الكهرباء وسطوح البيوت، العصافير الميتة التي اصطفت على طول خط السباق.

وصلا نهاية الساحة الترابية، عادا متّجهين إلى بوابة البيت، حيث الأستاذ يصفق مجنونًا، فرِحًا بابنته. وامرأته على الباب نصف عارية غير عابئة بنظرات الناس. والصغيرة مندفعة تُنَقّل رجليها برشاقة "قُبَّرة" في سفح نظيف،

الصغيرة تكركر. الـصغير يتبعهـا. تـصل قبلـه، الـصغيرة تفـوز. تتوقّـف عـلى قدميها، تعود لتلاقيه.

تقفز فرحة: فُزت، فزت، ربحتُ قدمين.

وتشير إلى رجليها: ربحتُ قدمين جديدتين.

ولا يجد رجليه!

17

فقد الصغير الأمل باصطياد عصافير ذات أجنحة، وشجَّعه خليل على أن يفقد الأمل أكثر، فعاد إليه الأمل!

فقد فؤاد الأمل بالنجاح؛ على مشارف الشارع أصبح، لا يحميه من الطَّرد سوى ثروة أبيه، أبيه الذي أتى وصفعه أمام كلّ الطلاب صارخًا: فضحتني.

كان قد رفع يده، أشار إلى الأستاذ أن يسمح له بالخروج إلى المرحاض، ورأى الأستاذ في ذلك محاولة للإفلات من قراءة جزء من (سورة البقرة) قبل وصول الدَّوْر إليه.

هكذا يفعل التلاميذ، ويفهم المعلِّمون، يفهمونه قبل أن يكونوا معلِّمين. تضايق، أحسّ بأسفل بطنه ينفجر. أخيرًا، هو الذي لم يهتد لحلٍّ أية مسألة في حياته وجدَ حلًا: أخرج أحد الدفاتر الخُضر التي تُوزِّعها وكالة الغوث، استلَّ صفحتين متلاصقتين من وسطه، صنَع قُمْعا، أنزل القمع تحت المقعد، أخرج حمامته، وبال.

استراح.

ولم يعرف كيف سيحلُّ مشكلة القُمْع الورقيِّ المليء بالبول.

فكر بأن يطلب من الأستاذ أن يسمح له بإلقائه خارجًا.

- أستاذ كنت مضطرًّا، أترى؟

خاف، عاد يفكر بحل جديد، وكانت الحلول قد ابتعدت، ابتعدت كلّها، تلاشتْ مع ذوبان الورق وبدء تسرُّب البول، البول المندفع الذي لا يوقفه شيء، البول الذي انحدر خيطًا دقيقًا، مجموعة من النقاط، النقاط التي تجمَّعتْ وبدأتْ

بدفْع بعضها البعض باتجاه طاولة الأستاذ، تعرّجتْ، نشرتْ فضيحة رائحتها، مرَّت من بين أقدام التلاميذ، حدَّق كلٌّ منهم في وجه جاره متأفِّفًا.

وانفجر القُمْع مُطلِقًا كل ما فيه. ولم يخطئ أنفُ الأستاذ، أنفه الذي قاده، رغمًا عنه ليحدِّق بين رجليه.

ضجَّت غرفة الصَّف، تناثر التلاميذ مبتعدين عن المجرى، كأنَّ نهرًا يحاول اختطافهم، كأن أفعى انفلتتْ تحت أقدامهم.

لكن البول الذي خفَّف حسَّ فؤاد بالانفجار، ضاعف ثقله عشرات المرّات، فؤاد الذي تسمَّر، في يده القمع الذائب، والأمر لا يحتاج إلى تفسير.

- وتبول في هذه الحصة المباركة يا كافر؟!

وصفعه.

لم يبكِ فؤاد، حتى جاء أبوه وصفعه على مرأى الطلبة كلّهم، والمدير إلى جانبه، المدير الذي أمره أن يعود إلى مكانه. وألّا يعيدها!

***

- يجب أن نتعلّم كل شيء من جديد، أنا وأنتَ، أتذكر كيف كنت زمان؟

- أذكر.

- عليك أن تركض معي.

وركض خليل ليُواري خطاياه، ليدفعها بعيدًا، كي لا يراها الصغير، الصغير الذي ازدادت طلباته فجأة.

ركضا.

وكان سنونو هناك، يصعد ويموت، وكان سنونو هناك يطير.

- هل يؤكل السنونو؟! سأله خليل.

لم يُجبْ الصغير. وأبتلع خليل سؤاله.

الصغير الذي لم يعد يلمس نفسه، ليس خوفًا من اليد الحبلى، خوفًا من مصير يتربَّصه، يقوده إلى قَدَمي ابنة الأستاذ خالد.

وقال خليل: الذي لا يستمْني يساعده الله على أن يستحْلِم.

واستحْلَم..

صحا مبلّلا، لم يتأفّف، وأوشك أن يُحبَّ النوم أكثر من أي شيء آخر..

متكئًا على هواءٍ صاف وسماء زرقاء، تمايل السنونو وهوى في الزِّقاق، مضى إلى أخره، ارتفع، حلَّق، أغار باتِّجاههما خاطفًا.

وكانا يركضان متلاصقين.

السّنونو يقترب، يوشك أن يرتطم بهما، يتفرَّقان فزِعيْن، السّنونو ينعطف صاعدًا بسرعة مذهلة.

توقّفا..

نظرا إليه يبتعد، وأحسّا أنه يسخر منهما.

- خوَّفني! قال خليل.

***

- هذه العصافير لا تستحقُّ أن نُعلِّمها شيئًا.

- كلام جديد. علّق الصغير.

- لماذا لا تكون هذه العصافير إذًا كالسّنونو؟

- لأنني لستُ أنت!

***

اندفع الصغير عبر البرّيّة الحمراء، سحابة غبار تشبَّثتْ بكعبيه، ركض، تمنّى لو ينفلت الآن من التراب ليرتقي السّماء، كما يصعد سلّم المدرسة.

ولأول مرّة ينتبه إلى احتكاك بنطاله بحمامته. العصافير أمامه، ويفرد يديه، يركض، وحمامته تشتعل، والعصافير أمامه، يركض أكثر، العصافير ترتفع، ويرتفع وراءها، يرتفع، ويرتفع، هو الذي توقَّف، هو الذي ارتمى على ظهره، السَّماء تحته، وبللٌ سحريٌّ ينساب ناعمًا بين ساقيه.

ويداه أجنحة.

***

حدَّق في المدى المقصوص لجناح السَّهل الصغير، كان وحده، انتفض.

- كأن الصغار كبروا كلّهم.

حدّقَ. ولم يكن غيره هناك.

- تُعَلِّم العصافير أن تَحْذَرَ مَنْ؟

ولا صيادين.

***

واختفى الأستاذ خالد.

كما اختفى أبوه.

وأحبّه الطلاب أكثر من كلِّ المعلِّمين.

هل يكون الحائط بلَّغ عنه، هو الذي وقف وسط الصَّف ورمى العصا بعيدًا؟

هو الذي قال: افهموا جيّدًا.. للإنسان بيت واحد هو بيته، ووطن واحد هو وطنه، ورسم خارطة فلسطين كما لم يرسمْها معلِّم من قبل على سبورة، وحين لم تتَّسع السبورة واصل الرَّسم على الحائط وبالطباشير الحمراء. وقال: انظروا كم هي طويلة وجميلة، واعتذرَ لكلٍّ من ضربَهم.

الأستاذ خالد الذي كان يترفَّعُ معهم كلَّما انتقلوا إلى صفٍّ جديد.

***

وسأل الصغير خالته: مدير التعليم حكومة؟!

- حكومة طبعًا.

***

اصطفَّ التلاميذ في ساحة المدرسة، انتظروا نصف ساعة، وكانوا يعرفون أن مدير التعليم قادم.

المدير قال لهم بالسّماعة قبل ذلك بيوم: البِسوا أحسن ثيابكم، غدًا، سيزورنا مدير التعليم، وربّما الوزير!

ولم يُغيِّر أحد من الطلاب ملابسه، لأنها كانت دائمًا الملابس المخصَّصة للمدرسة، لأنها الأفضل.

وحين أنشدوا يُرحِّبون بالضيف، لم يكونوا أكثر فوضى من ذلك في أيّ يوم مضى.

***

قال الصغير لخالته: أخبرتُ الأولاد في الصفِّ أن مدير التعليم حكومة، وخرْبطنا النَّشيد!

16

قـصَّة الثعبـان الـذي دسَّـه سـعود الـشرّاني في دُرْج أسـتاذ الـدِّين أودتْ بـه كطالب. خيوطها انكشفت بعد دقيقتين، ووجد الجميع فرصة مواتية للـتخلُّص منه نهائيًّا، الأساتذة، الطلاب، مدير المدرسة، لكن مديرة مدرسة البنات سـتُعاني طويلًا بسبب طرْدِه.

كأنهم استدرجوه للفخِّ، هوَّلوا بطولته، ذكاءه، عـضلاته التـي سـيجدها إن جدَّ الجدّ، وحمدوا الله أن الثّعبان لم يكن وسيلة إفزاعِهم.

سعود أكد: انتزعتُ أنيابه، أمسكْتُه من رقبته قرب الرأس، ضربْته على أنفـه بقطعة كاوتشوك، فـتح فمـه مُحـاولًا أن يـنهش يـدي، وعنـدها، ألقمتـه قطعـة الكاوتشوك، شدَّ عليها، شدّ، وبسرعة البرق سحبتها من فمـه فخرجـتْ أنيابـه معها. انظروا، وراح يلامس بأصابعه فم الثعبان، الثعبان الذي لم يكـن يـستطيع أن يفعل شيئا أكثر من أن يتلوَّى.

وأستاذ الدِّين.. أستاذ الدِّين الذي أرعبهم بيوم القيامة، أسـتاذ الـدِّين الـذي تفَّهَ كلَّ ما يمكن أن يراه الإنسان من مصاعب الدنيا ويكابده: {وَتَرَى الْمُجْـرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفادِ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهم النَـارُ} أسـتاذ الدِّين لم يصمد أمام اختبار الثعبان.

***

يومان كاملان وأبو سعود على باب المدرسة. لم يترك وسيلة إلّا واتَّبعهـا، ولا طريقًا إلاّ وَسلَكَه لإرجاع ابنه إلى المدرسة.

ذهب إلى أبي فؤاد فقال له: حمدًا لله أن ابني لم يزل بعد في المدرسة حتى اليـوم، ويكفيني سواد الوجه الذي يُسبِّبه لي. وقال له: أنا وإياك في هذه سواء!

زار مربّي الصَّفّ في بيته، وجاء بجاهة من المخاتير والشيوخ، ولم يتزحزح أستاذ الدِّين، ولا المدير.

***

دورانه الطّويل حول مدرسة البنات، تَنَدُّر الطلاب، كان يدفعه إلى مزيد من الجنون: الحُجَّاج يطوفون سبع مرّات حول الكعبة، وسعود يطوف سبعين مرّة حول مدرسة البنات!

واختفى.. أيامًا طويلة هدأت الساحات، وضبطه الصِّغار في حِرْش المستشفى مُتلبِّسًا بحمارة ضالّة يغطي ظهرها دَبَرٌ متقرِّح، ويغمر عينيها ذباب أزرق.

انهدمت عضلاته، لم يعد قادرًا على رفع عينيه في وجه أحد.

ولم تكن المسألة أنهم ألقوا عليه القبض مُتلبِّسًا بحمارة؛ معظمهم طارد البهائم في السَّهل، تقاتلوا على "الكُرَّة" الصغيرة كما يتقاتل الخاطبون على صبيَّة فاتنة! مشكلة سعود أن الجحشة كانت ترزح تحت ثقل الدَّبر الذي يغطي ظهرها، ويكسر ثقله عمودَها الفقري، كما يُبالغ بعضهم، مشكلته أنهم أرادوه فريسة، وكان.

***

واقتنع سعود الشَّراني أخيرًا بكلام أبيه. وهكذا، وجد نفسه في كراج سيارات مقابل مستشفى الهلال.

***

- (الطَّبع غلبَ التَّطبُّع) ردّد الصغار المَثَلَ حتى ظنّوا أنهم كبروا.

والسؤال: كيف استطاع سعود الشّراني أن ينكح السيارة مُستغلًا وجودها في الكراج؟

تلك هي المسألة..

الصغار قالوا: إنه نذل.. استغل ضعفها لكونها خربانة! وضحكوا..

وبعضهم قالوا: لو كان زامورها صالحا لزمَّرت وفَزَّعت الناس.

أما صاحب الكراج فجنَّ من بين خلق الله.

حاجًا تقيًّا كان. لم يقبل بتشغيل سعود إلّا رأفة بأبيه المُعدم. وحين فاجأه بعد استراحة الغداء، طار عقله، صرخ، وصرخ: الكراج مش "كَرَخَانَة" يا قواد. ولكْ والله ما هو كرخانة.

لملم سعود نفسه، حاول أن يُزرِّر بنطاله، الشَّحم المُتراكم على يديه جعل الأزرار تنزلق، وارتباكه أضاع العُرى. اقترب الحاج، تراجع سعود، سعود الذي كبر قبل الجميع، استطال وأصبح حائطًا.

انحنى الحاج على مؤخِّرة السَّيارة، حدَّق في ماسورة العادم، مليئة بالشَّحم كانت. جُنَّ أكثر..

- مِن الأكزوست يا قواد، من الأكزوست!!

وظلَّ ممسكًا بواحدة من أذنيه حتى أدخله المخفر!

سعود يصرخ: من شان الله.

ويردُّ الحاج: الله يوخذك!

مئات المرّات تكرَّر الرجاء.. ومئات المرَّات تكرَّر الردّ.

***

احتار الضابط..

بحث عن حلٍّ لهذه المعضلة. عن عقاب لهذه الجريمة، لم يجد!

التفتَ للحاج: توكَّل على الله، سأعاقبه بشدَّة.

خرج الحاج يتمتم: واحد مفعوص يُدنِّس شرف المحلّ على آخر الزمن!

***

ضابط الشّرطة الذي أرسل في طلب والد سعود تَعِبَ أخيرًا. لم يأت الوالد، وبقي الولد في وجهه.

نادى أحد رجال الشرطة: أيوجد شاي في الإبريق.

- نعم سيدي، لكنه شاي من الأمس.

- لا يهم.. صبّ لي.

وعندما ناوله الكوب، عندما تذوقه، أوشك أن يستفرغ.

- ما هذا؟! صرخ.

وارتبك الشرطي. التفت الضابط إلى سعود، وكأنه وجد الحلّ.

- دعه يغلي على النار أطول مدّة ممكنة.

- لماذا سيدي.

- قلت دعه يغلي.

بعد وقت سأل عن أخبار الشّاي.

- قطران سيدي، أصبح كالقطران، هل أضع السُّكَّر فيه.

- لا.

- صب لهذا المفعوص.

إندفع الشّاي أسود كجناح غراب، كبخت سعود المائـل. أمـرَهُ الـضَّابط أن يشرب.

راح يشرب ببطء.. أمره أن يكرع الشّاي دفعة واحدة.

أطاع.

وعندما انتهى مدَّ يده بالكوب إلى الشّرطي وقال بأدب شديد: ممكن كمان!!

جُنَّ الضابط، بدأ بركْلِه، أخرجَهُ مـن بوابـة المخفـر عـلى أربـع، توعَّـده: إن رأيتكَ ثانية، إن دخلتَ بوابة هذا المخفر ثانية سأسلخ جلدك.

***

سعود سيدخل بوابة المخفر ثانية لسبب آخر.

سعود الـذي لـن يكـون الـشّاي الأسـود عقابـه، عقابـه هنـاك بانتظـاره في الشوارع.

***

- هل صحيح أنهم كانوا سيزوجونك إياها؟! سأله الصغار.

- أبدًا. ردَّ ببله واضح.

- أَصْلُه لم يتغمَّق!! يؤكِّد أحدهم.

سيلًا من التّعليقات انفجر الصغار.

- أيكون المولود دراجة نارية أم هوائية؟! أم سيارة فوكس فاجن خُنفُسة؟

وستمرُّ أشهر طويلة، وكلّما رأوه في الشارع، كلما أبصروا دراجة يـصيحون: سعود، سعود، بنتك!!

فيطاردهم. فيضحكون: والله إنها على دمَّك!

15

لكزته أمه: قوم.

مُرتجفًا نهض: شو؟

- أم ثريا بتنازع.

- بدها تموت؟

- فال الله ولا فالك!

- انتبه لإخوتك، لا تخرج، فاهم؟

هزَّ رأسه. وخرجتْ تتبعُها مريم.

***

- ظلمتُكِ يا عائشة. قالت أم ثريا.

- لا تهتمِّي يا عمَّتي.

- ظلمتكِ، وأنت الأحنُّ من ابنتي عليَّ.

نازعتْ يومين، ولم تأتِ ثريا، وظلَّت تنازع.

التفتتْ وسألت: الآن سأرى أولادي بعيني، ولكن نفسي أن أخبرهم أني قادمة، أليس معك عصفور أرسله إليهم؟!

وفوجئتْ عائشة حين تبين لها أن الكلام ليس موجّهًا إليها، فوجئت، حين التفتتْ وكان الصغير خلْفها.

لكنها لم تقل شيئًا.

وقال: معي عصافير كثيرة، انتظريني حتى أُحضرها. وانتظرته.

***

تاركًا ظلمة الغرفة خلْفه وشحوب الوجه الأصفر، طرق باب خليل، أمسكه من يده وشدّه بقوَّة.

- أمّ ثريا تنازع.

- وماذا أفعل لها؟!

- تريد أن نصيد لها عصافير. تريد أن تخبر أولادها أنها قادمة إليهم.

- كل العصافير التي اصطدناها ماتت. نحن لا نصطاد عصافير حيّة منذ زمن.

- سنصطاد بالشبكة.

ولم تُعجب صاحبَه الفكرة، خليل الذي قلَّبها في رأسه وأحسَّ أن الصغير يسدُّ عليه المنافذ كلّها بهذا الصيد، ويحُوْلُ بين أسنانه والعصافير، لكنّه لم يعد قادرًا على أن يقول لصاحبه: لا.

***

حاول أن يستدرج حامد نحو عتبة الكلام، حامد الصَّامت كشيخ كبير، وسأله أخيرًا.

- كيف يمكن اصطياد عصافير دون "المُنادي" دون "الحَرَّيْك"؟

وضحك حامد ضحكة شيخ كبير، ضحكة طويلة: بعد قليل ستسألني كيف أصطاد بلا شبكة. وعاد إلى ضحكته.

- ألم تقل إنك ستُعلِّمُنا الصَّيد؟

- علَّمتكما.

- ولكن ليس كلَّ الصيد. علَّمتنا أن نصطاد في السّهل فقط.

قال: هكذا أصطاد.

ولم يُصدِّقه الصغير الذي ابتعد، يتبعه صاحبه.

***

لم تكن الشمس قد أشرقت.. مرَّ وصبَّحَ على أمّ ثريا خائفًا.

وحين ردَّتْ تأكدَ له أنها لم تزل بعد على قيد الحياة.

- هل حين نصمت نموت؟ سأل نفسه.

قاطعه دعاء أم ثريا له بالخير، ولأمّه، ثم لعنة أرسلَتْها إلى ابنتها التي لم تأتِ.

- هذه البقرة لا يهمّها سوى الأكل.
- ذاهب لإحضار العصافير، انتظريني.
- لا تتأخّر.

***

نصب الشَّبكة على حوض ماء البئر، مدَّ الحبل بعيدًا.
- هل تأتي العصافير، هكذا، وحدها؟ سأل خليل.
انتظر.
تعالت الزَّقزقات من كل مكان، شدَّ الصغير صاحبه واختبأ معه بعيدًا في بطن شجرة وارفة.
تواردت العصافير. رفرفتْ قرب البئر، تناثرت على أغصان الأشجار والشُّجيرات، على الحجارة البيضاء.
أحدها ارتفع وحطَّ على الحوض.
- اسحب الحبْلَ. قال خليل.
أشار الصغير له أن يصمت.
نزل الحسّون داخل الحوض، حيث وضع الصغير حجارة وسط الماء، تُغري العصافير بالوقوف فوقها حين تشرب.
- سيطير. صاح خليل بحنق.
- انتظر.
تحرَّك عصفورٍ آخر، وآخر نحو الحوض، رفرفت بأجنحتها قبل النزول، نزلتْ، وفجأة اندفعتْ كلُّ العصافير.
عصافير ترفُّ، عصافير تشرب.
- اسحب الحبل.
كل حواسِّ الصغير كانت تخفقُ مع الأجنحة، مع هذا العدد الهائل من الطيور التي سيصطادها دفعة واحدة.
- اسحب الحبل.
نزلت العصافير كلّها، القليل منها غادر الحوض بعد أن شرِب، وفي تلك اللحظة، اللحظة الحاسمة التي لا يُدركها سوى صيّاد ماهر سحَبَ الحبْل،

فانطبقت الشَّبكة، مبتلعةً الحوض وما حوله. ركض الصغير وكان يصرخ: أَحضِر القفص. عشرات العصافير، عشرات الأجنحة تُصارع الخيوط البنيّة. اندسّتْ أيدي الصغيرين تحتها، وبدأ كل منهما يُخرج ما استطاع من عصافير ويزجُّها في القفص بحرص شديد، وقلباهما أكثر ارتعاشًا من أجنحة عصافير الدّنيا كلها.

التقطا أنفاسهما بصعوبة في بحر انفعالهما العاصف، حاولا أن يَعدّا العصافير، لم يستطيعا، العصافير التي كانت تتطاير بفوضى مجنونة بين الأسلاك المعدنية.

لم يكن بإمكاننا اصطياد كل هذه العصافير في أسبوعين. قال خليل.

وقال الصغير: نَعدّها في البيت.

- هل نعود الآن؟ سأله خليل.

- لا، سنحاول مرّة أخرى.

***

حمل الصغير القفص، هيأ له مكانا تحت الشَّجرة، دسّه هناك. فوضى العصافير تخيفُ الأجنحة الطائرة، خلع قميصه وضعه فوق القفص، هدأتْ.

سأل خليل: كيف تعلَّمتَ كلَّ ذلك؟ كيف اكتشفت هذا الكنز؟!

- تبعتُه إلى هنا.

- أهذا المكان له؟ لحامد؟

- هذا المكان لمن يصل أولًا!

***

أكثر حذَرا كانت العصافير حين تجمَّعت ثانية؟ التماع الماء في عينيها أيقظ عطش الليل في حناجرها الصغيرة، ولم تجد بُدًّا من الطيران صوب مصيرها.

وكالمرَّة الأولى. انفلتَ عصفور من بينها، هبط على حافة الحوْض، ثم إلى منتصفه، وتبعتْهُ البقيَّة.

لم يقل خليل للصغير هذه المرَّة: اسحب الحبْل.

وحين سحبه في تلك اللحظة الحاسمة، اندفع الصغير راكضًا، ثم عاد وتوقَّف، كان خليل يمشي ببطء لاحظ الصغير ذلك.

- من الآن يمكنك أن تتباطأ كيفما شئتَ، فلن تجد عصفورًا ميتًا!

ابتلع خليل كلمات الصغير بصمت. وأحسَّ بعريه لاذعًا كفضيحة.

***

دخل الصغير، وكانت تنتظر: جئتَ.

- نعم، أغمضي عينيكِ. قال.

- أريدُ أن أرى. قالت.

- أغمضيهما لحظة.

استجابت، حين وجدت القدرةَ الكافية في جسدها التي تساعدها على إغماض عينيها.

- افتحي عينيكِ.

كانت عشرات الأجنحة تطير في الغرفة.

- أولادي، عصافير الجنَّة!!

كان الصغير قد أبقى على عدد من العصافير في القفص، امتدّت يده، ناولها أحدها. تحسسته، وعينها على العصافير المُحلِّقة، حمَّلَتْه رسالتها وأطلقتْهُ.

- افتح الباب، افتح الباب.

وفتَحه الصغير.

هبَّت العصافير، فاجأت (خليل) الذي كان يتنصَّت خارجًا، اصطدمتْ به، أوقعته المفاجأة.

وابتعدتْ..

وخلْفها أم ثريا تطير، تطير مُبتسمة.

***

- أكانت ستموت لو لم نحضِر لها العصافير؟ سأل الصغير.

وكان يبكي.

***

حطَّتْ ثريا على عتبة الغرفة ناعقة كغراب: وينك يمَّه؟!

المساحة الهائلة من الدّهن واللحم كثَّفت العتمةَ في الدّاخل.

- أمك راحت لأولادها. قال الصغير.

- ماتت؟

- العصافير تموت أيضًا.

انكبَّتْ على جسد أمِّها، وجدت مكانًا لها في الضِّيق الذي يعتصر الغرفة. وحين ابتعد الصغير وصاحبه اللذان كانا يحرسان الباب صاحت: لا تتركوني معها وحدي!

- سأنادي أمِّي.

بَلَهٌ ما كان يستوطن جمجمة ثُريّا، ويمدُّ أرجله الصغيرة العنكبوتية ليغطِّي ملامحها البيضاء.

أحسّت بالجوع.

نهضت تبحث عن طعام، وحين وجدته استراحت.

وأطلَّت عائشة، وثريا ممعنة في المضغ، فمها ممتلئ إلى درجة الانفجار، وبلعومها أيضًا.

لم تعرف ما الذي يمكن أن تفعله في كتلة الطَّعام التي بفمها.

- وتأكلين أيضًا؟

أشارت ثريا برأسها: نعم. وحين ابتلعتْ لقمتَها الكبيرة قالت: كنتُ جائعة.

واحتارت عائشة ومعها مريم في الطَّريقة التي يمكن أن تُبلِغا فيها عن وفاتها، ومن سيدفنها.

- اذهب إلى دار أمّ خليل وأَخبر زوجها، قل له أن يأتينا. ارتجف قلب الصغير.

وقالت عائشة: يا الله، لماذا عليٌّ ليس هنا؟

وقالت ثريا: لو تزوّجني لكنتُ قريبة من أمي، ولرأيتها قبل أن تموت!

وصرخت عائشة في وجه الصغير غاضبة: تحرَّك.

تحرّك، وخلْفه خليل.

- لن أذهب إلى بيتها مهما حدث. قال الصغير.

وقال خليل: سأذهب أنا.

لم يطمئن الصغير لحماس خليل. قال: لا، سأذهب، غيرتُ رأيي!

***

حين وصلا، كانت أم خليل على الباب، وحين أخبرها الصغير، كان يبدو لها ارتباكه واضحًا، وتأثّره، ارتباكه الذي لم يكن سببه موت أمّ ثريا وحده.

كان يتحدَّث معها وعينه على الباب، على النافذة. وحين جاء الصوت من الداخل: شو في يمَّه؟

ذلك الصوت الذي يعرفه تمامًا، وجد نفسه يركض، وهو يقول لامّ خليل التي كانت قد وقفتْ وأخذت تستنزل الرَّحمات لروح أمِّ ثريا: تأخَّرتُ على أمّي. وخلفه سار خليل بطيئًا.

***

نافذتها المُغلقة.. نافذتها التي لم يعد ضوء قنديل الكاز ينفلتُ منها. نافذتها الحزينة. ظلَّت لفترة طويلة محطّ أنظار الصغير. إحساس غريب كان يدفعه لأن يطرقها، لأن ينادي، لكي تُطِل ويعطيها عصفورين، ثلاثة، لترسلها إلى أبنائها.

- هيَ الآن بين أطفالها الملائكة، في الجنة. قالت أمّه.

- كانوا يحفرون في المقبرة، ووجدوا جمجمة ميت. قال خليل.

- كيف تذهب وجسمها في القبر؟ سأل الصغير.

- روحها التي تذهب. قالت أمّه.

- روحها تطير، يعني؟ سأل الصغير.

- روحها تطير طبعًا، وإلّا فكيف تصل؟ قالت أمّه.

- مثل العصافير؟ سأل.

- مثل العصافير. أجابت.

- لروحها أجنحة يعني؟ سأل.

- آه.

- وروحي لها جناح؟

- طبعًا، روحك لها جناح، جناحان.

- ولماذا لا تطير إلاّ عندما أموت؟ سأل.

- حين تفرح تطير، وحين تحزن تحسُّ أنك مكسور.

- وبغير هذا مستحيل؟

- هذا الذي أعرفه. أجابت.

- تمنّى أن يعرف أكثر.

تحسَّس النافذة بخشبها. تحسَّس البردَ المُعشِّش في شقوقها، تحسَّس عتمة الدَّاخل. ولم تَرْوِه الإجابات.

اندسَّ في خيمة خالته، ونامَ في حضنها. في الليل سألها:

- لماذا نموت؟

- حكمة الله. أجابت.

ولم ترْوِهِ الإجابة.

وقالت: كل الأشياء تموت، الإنسان والحيوان والأشجار، كل الأشياء.

- لكن الروح لا تموت.

- نعم، لا تموت.

- لأننا لا نراها؟ سأل.

- لا أدري لكنّها لا تموت. قالت.

- هل تموت الرِّيح؟ سأل.

- الريح لا تموت، الريح تهدأ. أجابت.

يعني: الذي لا نراه وحده الذي لا يموت؟

- ربما. أجابت.

- هل ترينني الآن؟

- لا.

- هذا يعني أنني لن أموت؟

- ولكنّني أستطيعُ أن ألمسَك.

- يعني أن الذي نلمسه يموت أيضًا؟

- نعم.

- وإذا لم تلمسيني هل سأموت؟!

- سيلمسكَ غيري، وسيراك.

خاف من كلّ الناس فجأة.

لكنّه وجد نفسه يلتصقُ أكثر بخالته، ويختبئ في حضنها أعمق وأعمق، كأنها لم تكن من الناس أبدًا.

ثم صمت ثلاث ليالٍ كاملة، إلى أن سألته خالته:

- أينك؟!

- لستُ هنا!

***

وارتبك الصغير.

ارتبكتْ خطاه، جسده المكشوف للناس، في الشارع، في المدرسة.

- لكنني أراهم أيضًا، لِمَ أخاف منهم؟! عليهم أن يخافوا منّي أيضًا.

ولم يخافوا.

- ولماذا أكون جبانًا إلى هذا الحدّ؟!

***

عاد للصيد..

يملأ قفصه، يغافل حارس المقبرة، يقف فوق قبر أمِّ ثريّا، ويرسل عصافيره إليها، إلى ملائكتها الصغار.

لماذا يحبُّها؟ ألأنها ماتت؟

لماذا يدفع وجهها المصفوق بعيدًا وهي تحاول إبقاءه في العتمة؟ لماذا يُرسل العصافير إليها؟

لم يخطر بباله أن ينزع ريش عصفور من تلك العصافير التي يُطْلِقها باسمها، تُراه كان يخشى التقاءها ثانية في السّهل أم تراه كان يعرف أن العصفور الذاهب للجنة يحتاج إلى ريشه كلّه كي يصل؟!

14

ترقَّب غياب أمِّها.

هدوءَ الزِّقاق.

وطرقَ النافذة.

حاولت فتحها، لم تستجب، أطلَّتْ من فوق السّور، فوجئت بفَوضى غريبة صادرة من كيس في يده.

تراجعت حنّون.

أوشكت أن تقع من فوق الصَّفيحة التي أوصلت رأسها إلى نهايات السّور، تماسكت، وأطلَّتْ حذرة.

- تريد أن تخيفني؟ هل وضعتَ قطًّا في الكيس أم حيَّة؟

ولم تكن خائفة، كانت تعاتبه.

كانت تعرف قصَّة الحيَّتين..

***

لم يكن الصّيد سهلًا ذلك اليوم، فقرَّرا أن يصطادا الأفاعي، بحثا في السهل طويلا إلى أن لمحا الأولى، أشعلا قِطعًا كبيرة من الكاوتشوك حول مخبئها، وحين قلَبَا الحجر كانت في حالة إغماء، حملاها ووضعاها في كيس ورقيٍّ، ثم أمسكا بأخرى بالطريقة نفسها. سعر حيّتين يستحقُّ المغامرة!

وصلا، صاعدين إلى مبنى توزيع المؤن، الملاصق لمنطقة الأشرفية، انحدرا باتجاه شارع المدارس، عبراه. الصيدلية على مرمى بصريهما. تحركتْ واحدة منهما، ربما الاثنتان، ألقيا بالكيس وولّيا هاربين. كل أفعى انطلقتْ باتجاه. نجحت الأولى في اجتياز الشارع ودخول أحد المقاهي. تبعثر الرجال هلعًا.

تطايرت كؤوس الشاي، فناجين القهوة. وراحت الأخرى ضحيَّةً تحت العجلات الضّخمة لسيارة قلَّاب. وفرّ الصغير، وخلفه خليل، حيث لم يظهرا في ذلك الشارع لأسابيع طويلة.

***

ردّدت: قط أم حيّة؟

مدّ يده باتجاه الكيس، مدَّت رأسها متابعة بعينيها الواسعتين ما ستُسفر عنه اللحظة. كان ثمة عصفور في يده، حسّون حقيقي بمنقار يميل إلى الصُّفرة الناضجة، محاط بريش أحمر ناريّ. مدّ يده إليها به، مدّت يدها لتتناوله، وقبل أن تلامسه طار..

قال: خسارة!!

- أنتَ طيَّرته!

- أبدًا، خذي هذا.

ومدَّ يده بعصفور آخر.

وقبل أن تلامسَه، طار.

صرخت غاضبة، صرخةَ نَمِرَة قررتْ أن تقاتل.

أوشكت من شدّة انفعالها أن تسقط عن الصَّفيحة، الصَّفيحة التي كان يسمع قرقعتَها تحت قدميها.

تناول عصفورًا آخر، رفعه باتجاهها، ولم تمدَّ يدها هذه المرَّة، اندفعت باتجاه الباب، فتحتْه، أغارت عليه. وفي تلك اللحظة أطلق العصفور الذي في يده وراح يركض. وركضت خلْفه. يمدُّ يده داخل الكيس الورقيّ، يُخرج عصفورًا ويُطلِقه، فترتبك، هل تلحق العصفور الذي طار أم تلاحِقه؟ أحسَّت بقهر شديد وعيون أولاد الحارة وبناتها تتابعها. لم تستطع اللحاق به، يسبقها، يتوقَّف، يستدير بوجهه إليها ضاحكًا، وعندما توشك أن تصله، أن تلامس أصابعها العصفور، يُطلِقه، ثم يجري.

لكنها فجأة وقفت تبكي.

عندها توقَّف تمامًا.

مشى باتجاهها، قال بتأثُّر واضح: خلاص، لا تبكي، انفرجتْ أساريرها بين خطَّي الدَّمع الهابطين من عينيها، اقتربتْ بخطى مُتعبة، وحين وصلتْ، شقَّ الكيس في حركة مفاجئة نصفين فاندفعتْ في وجهها بقية العصافير. جفلتْ، تراجعت للوراء قليلًا، ثم انقضَّتْ عليه في اندفاعة ألقته أرضًا. كانا قد أصبحا خارج الأزقَّة والشوارع الضيِّقة كانا على طرف السهل.

وحين وجدت نفسها فوقه، حين أحسَّ بلحمه بين أسنانها، تغيَّر كلّ شيء فجأة، وأحسَّ بأنه لم يكن يُبعدها عنه بقدر ما كان يضمُّها. أحسَّت أنها لم تكن تضربه بالقدر الذي تشدُّه وتعتصره، لم تكن تعضُّه، كانت تتشمَّمه عن قرب.

ارتعشا..

فأصابهما رعبٌ مفاجئ..

كان ثمة أطفال وبنات صغيرات قد أوشكوا أن يصلوا.

وصلوا..

صاحت البنات: اضربيه.

صاح الأولاد: اضربها.

نهضا، نفضا التراب العالِق بهما، والحلْقة الآدميَّة حولهما كاملة.

سارت خجلة في البداية، ثم فَرحة، كأنَّ كل عصافير الدنيا ترفُّ فيها، كأنها طارَت معها. فَهمَتْه. وهزَّها شوق هائل لتجديد العِراك. وابتعد..

أحسَّ بأن قدميه لا تلامسان الأرض أبدًا، كان ينزلق في الفضاء على ارتفاع ثلاثة أقدام أو أربعة... كان يطير.

***

تأمَّلتْ حنّون جسدها في عتمة الغرفة..

تأمَّلته في شعاع الضوء الذي يتسرَّب من شقوق النافذة..

أحسَّتْ ببراعمها كاملة. ارتدت فستانها خرجتْ للشارع عصرَ ذلك النهار. تذوَّقتْ طعم فضيحة عذبة تُخيِّم في صدرها، نهدانِ صلبان يقودان روحها نحو دنيا جديدة لم تألفْها.

لم ترَ في الناس إلّا عيونهم، عيونهم المتطلِّعة لبرعمين جسورَيْن، دفعتْ كتفيها باتجاه صدرها، وحَنَتْ ظهْرَها، قليلًا، خَجَلًا، وكلما رأت البرعمين يصعدان باتجاه كمال الورد كان حنوُّها عليهما يزداد.

13

للأولاد الشوارع والشَّيطنة.. وللنساء التدبير.. وللرّجال رحلة الشقاء في المصانع والكسَّارات وأشكال العمل القاسية.

هبط "الزَّوبَعَة" باتجاه الكسّارة، الزَّوبعة الذي ظلّ الزَّوبعة، رغم كل محاولاته للإفلات من طوق لقبهِ، رحل اسمه معه برحيل النّاس معه، وسكنَهُ حين سكن الناس قربه، فسلَّم بلقبه، ولم يعد يهمُّه اسمه.

لم تكن الكسَّارات بعيدة، ولا "وادي الرِّمَم" بشارعه المنخور، بسيوله الشتويَّة وبِرَكِهِ التي تختطف كل عام ولدًا أو اثنين.

على جانبيه عشرات المحاجر، عشرات الصرخات التي تدوِّي صاعدةً مُخلِّفَة وراءها فُتات رجال مُعفَّرين بالبياض الصَّخري وملح البارود.

ولم تكن حياة الحرص طويلة هنا..

سيذوب الحذرُ، ويتسلَّل الخدرُ إلى يقظتهم، وينفجر الصَّخر ويأخذهم معه.

والزَّوبعة، الذي لا يضحك منذ أبي خليل، وجد نفسه يضحك، حين سمع أن المجرمين يُعاقبون بالأشغال الشَّاقة، والأشغال الشَّاقة ليست سوى المحاجِر، يهدمونها وتهدمهم. لكنَّه لم يسأل: لماذا حُكِمَ عليه بالأشغال الشّاقة المؤبّدة.

حسٌّ غريب انتابه: بأنه قد (خَرْفَن) وأن وزن عقله نقص إلى تلك الدَّرجة التي لم يعد يتذكَّر معها جريمته التي ارتكبها!

***

صاعدة الطريق الترابي..

صاعدة السهل، وحولها تتناثرُ عصافير الصغير..

صاعدة من الكسارات، وأمامها مستشفى الأشْرَفِيّة، ودم الزَّوبعة يملؤها.

بعض الرجال سبقوها. وصلوا بيت أم خليل، التي بقيت أم خليل، حتى بعد زواجها منه. الزّوبعة الذي ظلّ يزوبعُ دون أن يستطيع منحها طفلًا آخر.

تكون العلاقة جيدة مع جاراتها فيبقي اسمها أم خليل، وفي أقرب شجار تصبح "أم زوبعة". أما هو، فلم يكن بإمكانه معايشة هذه التفاصيل، لم يكن يهمُّه أن يكون الزّوبعة أو "أبا حسين"! ما دام الأمل قد غادره تمامًا، ما دام لم يعد يحلم بأن يُرزق بطفل.

***

باكرا انفجر البارود، قبل صياح الدِّيوك ربّما، قبل شروق الشمس. وصَلوا، وكان الضوء يغمر المخيَّم.

رأت أمُّ خليل الغطاء الذي يحمله الرجال، عادت صورة أبي خليل الذي جمَّعوه في كيس دم.

صرختْ، هجمت على الغطاء. تفرَّق الصِّبْية الذين كانوا يتبعون الرجال، امتدَّت يدها.

صرخت: أهذا كل ما بقي منه؟

بدأت بإهالة التراب على رأسها. وتجمَّعت النساء..

- أبو محمد بخير. قال أحد الرِّجال متلعثمًا.

ولم يكن الرجال ينادونه باسمه أيضًا.

فجأة عاد له اسمه القديم القديم، كأن الدَّم غسل كلَّ ما عَلِقَ به من ألقاب.

- حيّ؟

- حيّ.

- أين؟

في مستشفى الأشرفيَّة.

انطلقتْ راكضة، خلفها حنّون، حنون التي ستظلُّ السَّاق المبتورة تلوح في مخيلتها إلى زمن طويل.

انطلقتا، وانطلق الناس خلْفهما، واحتار الرِّجال بالسَّاق الميتة.

ولم يرتبك أطفال الحارة الذين حملوا الحجارة وركضوا إلى بيت أبي فؤاد، ولم يتركوا لوحًا من الزّجاج سالما، لا في الطبقة الأولى ولا في الثانية. قذفوه بكلِّ ما

طالته أيديهم، علب فارغة، أحذية، زجاجات مُكسَّرة ولعنات. وعادوا للسَّاق. تدافعوا نحوها، يحاولون العبث بالغطاء، مُستغلِّين ذهول الرّجل المنتصب حارسًا لها. تنكشف الأصابع، الدّم المتخثر، تنطلق شهقة عميقة من صدورهم، ينتبه الرّجل، يردّ طرف الغطاء. فتعبث أيدٍ جديدة به ثانية، ويولّي بعضهم خوفًا من دمويَّة المشهد.

***

جنازة سريعة نُظِّمتْ لدفن السَّاق بحضور اثنين من عمَّال الكسَّارات وبعض جيرانه، لم يشارك فيها صاحبها، لكنَّه سيسأل عنها فيما بعد، ويتسلَّل إليها خلسة ليزورها.

- لا يعرف بعد ما حدث. قالت أم خليل.

- كلُّ شيء جرى بسرعة البرق، منشار كونيٌّ انقضَّ على ساقه اليسرى وتركها واقفة للحظات. تدافع الجميع باتجاهه.

- سليمة، الحمد لله. قال لهم.

وكان الغبار ينقشع عنه.

وفجأة.. أفلتَ الجزء المبتور من ساقه، فجأة.. لم يعد الهواء قابلًا لاستيعاب القامة المُنتصِبة؛ سقط، مثل سقف سُحبتْ دعامته الأساس، ولم يعد هناك.

***

ضاقت الغرفة الضيقة على "الزَّوبعة" وضاقت أمُّ خليل بحياتها، وضاقت حنّون بضيق أمِّها، بالمشاجرات التي تُمسك خلالها أم خليل بتلابيب الهواء، الأيام، الغربَة والمخيَّم.

ولحنُّون دائمًا نصيبها من بحر السُّخط.

لكنّه تغير بعد أيام.

- مسخرة. حياتنا مسخرة، لا أكثر. قال.

وسأل: ماذا فعلتم بالسّاق؟

- دفناها.

- وماذا كتبتم على الشاهدة؟

- لم نكتب، لم نكتب شيئًا.

اذهبوا واكتبوا عليها "عيّنة مُستعجلة من جسد العبد الفقير إلى الله، لمعاينتها من قبل ملائكة الموت، والبقيّة تأتي"!

وضحك، وبكى.

- ماذا سيقول عزرائيل لله سبحانه وتعالى حين يسأله: هلِ أحضرتَ روحه؟ سيرتبك المسكين ويقول: ارحمني إلهي، لم أستطع الحصول إلاّ على روح ساقه. وسيزور الزَّوبعة الساق ويزرع ريحانة في غفلة عن عيون الجميع. وحين تتحسَّن الأمور معه، كما لم يكن يتصوَّر أبدًا، سيزرع "جوريَّة" هناك وسيدفع لحارس المقبرة مقابل اعتنائه بها.

***

- يا حنُّون، يا حبيبتي.. كل تعليمك لا يعادل السنتين الدِّراسيتين اللَّتين أمضيتُهما في مدرسة "دير ياسين". يقول لها بزهو.

ويشير إليها أن تقترب، أن تقرأ له من كتاب اللغة العربية. يقاطعها: لو أكملتُ الصفَّ الثالث لربَّما أصبحتُ.. ويصمت: هل تعرفين ماذا كنتُ سأصبح؟

- أستاذ. تردّ حنون.

- لا، لا، لا، كنت سأصبح دكتورًا يا شاطرة.

ويضحك.

***

ولم تكن أمُّ خليل تضحك..

***

مرَّروا عليه ثمن ساقه بعد خروجهِ من المستشفى، وما تبقَّى له من أجرة الأسبوعين. تناول ثمن ساقه من أبي فؤاد حتى قبل أن يُفكِّر في أن ثمن ساق ربَّما يكون أغلى من ذلك!

- الناس تموت مجانًا. دير ياسين ماتت مجانًا. أبو خليل مات مجانًا. ونحن نموت أحياءَ مجّانًا..

لم يتردّد. دسَّ الدّنانير في جيب دشداشته الترابيَّة، لم يخجل. لكنه غضب فجأة وطرد أبا فؤاد حين قال:

لا تؤاخذني فيما سأقول. إن الخسارة التي أصابتني في بيتي، من أولاد الحرام الذين حطموا كلَّ شيء تفوق خسارتك في قدمك؟ عندها، تناول عكّازه وأغار عليه. اندفعت حنّون تمنعه، وأفلتَ أبو فؤاد من ضربة كان يمكن أن تفقده رأسه، أفلتَ مُطلِقًا شتائم مبهمة وواضحة، وتلك التي لا يجوز أن تسمعها نساء.

***

أسابيع طويلة مرَّت، لم يعد لقبه يظهر، حتى أوشك أن يظنَّ أن فقدان السَّاق ضرورة لا بدَّ منها لكي يكسب الإنسان احترام الناس. وحتى، بعد أن تفضَّلتْ وكالة الغوث لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم بتركيب ساق خشبية له، وحتى عندما عاد للشوارع ليمشي بصعوبة. وحتى، عندما رآه الأطفال..

لم يجرؤ أحد على أن يقول للآخر هذا هو الزَّوبعة..

يخشون ساقه المبتورة أكثر مما يخشونه، وهم يعرفون، ويفهمون ما تقوله أمّهاتهم وما قاله أجدادُهم قبل آبائهم: الذي يسخر من شخص يصبح مثله. ولم يكن أحد منهم يريد أن تُدفنَ ساقه قبْلَه.

***

- سبحان الله، فجأة أصبحت خفيف الدّم. قالت أمّ خليل.

- هذا لأنني فقدتُ الكثير من دمي عندما بُتِرَتْ ساقي!! هأ هأ هأ!

أمّ خليل التي بدأت تفرح بنشاطه، أمّ خليل التي أصبحت تتهرّب منه: أتعبتني.

12

عصبيَّة غدت عائشة في غياب عليٍّ، اشتعلتْ توتّرًا من الحياة المُـرَّة التـي لم تـر فيها يومًا واحدًا حلوًا.

لم يعد أيّ شيء قادرًا على ملء هذا العدد الهائل من الأفواه.

خرجتْ لمريم، وكان الليل أكثر ليليّة من ثـوب حـداد. وجـدتْها مـستيقظة، والصغير في فراشها ينام.

- قلبي عليهم، الأولاد، قلبي على عليّ، قلبي على يوسف الذي لم يُرسل شيئًا منذ شهرين. قالت عائشة.

- قلبُنا على من في السِّجن، وقلبُنا على من خارجه، وقلبُنا على مَن في الغربـة. قالت مريم.

- لم يعد لدينا شيء يكفينا. ماذا لو وقعت الحرب؟!

- لا حلَّ سوى أن يعمل الأولاد.

- الأولاد؟!

- آه، الأولاد، يجب أن يعمل أبو العصافير على الأقل!

- الصغير؟! ردّتْ مريم دهِشَةً.

- لا أحد يبقى صغيرًا للأبد يا مريم.

11

مقابل سوق الخُضَار المركزي، اصطفَّت الشَّاحنات.

شاحنات مُبَرَّدَة أمام عنابر كبيرة. دخل الصغير، يجرُّه أحد أبناء جيرانهم الكبار.

أخذه المشهد: فاكهة لم يحلم برؤيتها تنتشر فوق حُصُر القشّ؛ كميَّات تُشبعُ مخيّمًا!

هل يرى المشمش للمرّة الأولى في حياته الآن؟ لا، لكنّه لم يرَ مثل هذا المشمش أبدًا.

العنبر عالٍ، الصّناديق الخشبيَّة تتجمَّع صاعدة، عشرات العمّال يروحون ويجيئون، بعضهم يقتعد الأرض يعبئ الفواكه في الصناديق الصغيرة.

– المسألة بسيطة. قال ابن جيرانهم. تختار حبّات المشمش الكبيرة الجيّدة، وترتبها في الصّندوق، الحبّات الناضجة كثيرًا تضعها هنا.

أخذه المشهد، جلاله، أخذه التَّوق المفاجئ إلى الاختلاء بواحدة من هذه الحبّات وابتلاعها دفعة واحدة، وللحظة رأى أن كلَّ أحلامه بالطيران لا تُعادل حبة مشمش يقضمها بأسنانه الأرنبيَّة كما كانت تسمّيها حنّون!

– آه لو رأت حنّون كلَّ هذه الأكوام!

اقترب صاحب الشركة وقال لابن جيرانهم: ألا ترى الولد؟

– ماذا به؟

– يحدّق في المشمش أكثر مما يعمل.

تنبّه الصغير لكلامهما، بدأت يداه تعملان، وراح يلتهم كل ما حوله بعينيه.

– دعْهُ يأكل. قال صاحب الشركة.

ولم يُصدِّق الصغير.

صاحب الشركة الخبير، صاحب الشركة ذو اللحية البيضاء يُدرك أن أحدًا لن يعمل كما يجب ما دام يشتهي الفاكهة إلى هذا الحدّ. لذا، كان بإمكان أيّ عامل أن يأكل مرَّة واحدة حتى ينفجر، من أيّ صنف، أمّا بعد ذلك، فيُحظر عليه أن يشتهي ثانية.

انقضّ الصغير على حبّات المشمش غير مُصدِّق، أكل، وأكل حتى انفجر بركان مغص في معدته.

- كلّكم هكذا. قال صاحب الشركة. حتى أولئك الأكبر منك، الذين كانت لهم بيّاراتهم وفواكههم الأفضل طعمًا ولونًا ورائحة من هذه، كلّكم هكذا. زمن عاطل!

- سآخذ هذه الحبّات، لا أريد أن آكلها، سآخذها لإخوتي وأخواتي، لأمّي وخالتي مريم، سآخذها لحنّـ..

- غير مسموح أن تخرُجَ من هنا بأية حبَّة، وإلا سيعتبرك سارقًا.

- ولكنّها حصّتي.

- كُلْها إذن هنا!

أكل حبّة، ولم تستطع يده الوصول بالحبّة الثانية إلى فمه.

عندها صاح صاحب الشركة ضاحكًا: الآن إلى العمل يا بطل!

***

ليل، وأزقّة تطول..

ليل شاسع وصمت على أبواب السّاعة الثالثة فجرًا.

تطاير طعم المشمش من فمه، تطاير التماعه الشَّهي من عينيه المُتعبَتين، تطاير من أمعائه تمامًا بعد ذهابه للحمّام ثلاث مرّات متتالية. ولم يبق سوى انهدام الجسد الصغير تَعبًا، وتأرْجحه في مهبّ العتمة. كان عليه أن يركض، أن يصل الفِراش، أن يندسَّ فيه، أن لا يُضيِّع دقيقة واحدة بين أذان الفجر والسابعة صباحًا، تلك الفسحة الزمنية الوحيدة الباقية له، لينام.

كأنّ العنابر مراكز إغاثة، إن تأخروا فإن أولئك الذين تتقاطر إليهم الشّاحنات بما فيها سيموتون جوعًا.

دفع بوّابة الدار، دخل، بين غرفة إخوته وخيمة مريم توقّف، فكّر، ودخل خيمة مريم، مريم التي لم تكن نائمة أبدًا، وفوجئ بأمّه عندها. لم تقولا بأنهما تنتظرانه، وأنهما قلقتا عليه.

ردّ تحيّة المساء، وكان الصباح. وبكامل ثيابه اندسَّ في الفِراش.

- مجرمون هؤلاء الذين يجعلون الناس يعملون إلى هذه الساعة.

قالت إحداهما.

- دعيه يتعلَّم الحياة. قالت الثانية.

ولم يُميِّز الأصوات، كان يغفو، ويرى أن الأمر الأكثر فداحة هو أن يبيع عصافيره لتُذبح ثم يأكل بثمنها.

***

لم يشبع نومًا، كما شبعَ مشمشًا.

طرقتْ يدُ ابن جيرانهم بوابةَ الصفيح.

- انهض. لكزته خالته، وما كانت أمّه هناك.

دسَّ قدميه في حذائه فأصبح جاهزًا. خرج من الخيمة، أمّه على الباب، ناولته قطعة خبز وحبّات زيتون في ورقة راحت تذوب في الطريق.

فجأة تذكر أنه لم يخبرهم بشيء عن ذلك المشمش السِّحري.

أحس بحزن شديد: غدًا أحدِّثهم. قال.

ولم يأت الغد المطلوب.

***

بهجة الدُّرّاق، عذوبة الأجاص، خضرة "الخِيار" ومذاقه، الخيار الذي لا يُشبه ذلك الذي تشتريه أمّه، الخيار الذي لا يشبه هراوات سائقي السرفيس. ذاك الذي كان يزدرده معتقدًا أنه أهم خيار في الدنيا، الخيار الذي يتقاتلون كل يريد الحصول على الخيارة الأكبر، كان خدعة!

أكلَ من الخيار الصغير الطيّب حتى تعب. وانتظر صباح الجمعة الذي أتى أخيرًا، وحدَّث الجميع.

حسدوه في البداية حين تحدّث عن المشمش، حسدوه أكثر وهو يتحدَّث عن هذا الذي يسمى أجاصًا، حسدوه أكثر على الدُّرّاق، وتذوّقوا الطعم الغائب لكل واحدة من هذه الفواكه المُحرَّمة.

لكنّه حين تحدَّث عن الخيار ضحكوا عليه وقالوا: لا تستهبلنا!

وشككوا في كل ما قاله قَبْلًا.

حاول أن يقنعهم، لم ينجح.

سألوا أمّهم: ما هو الأغلى ثمنًا وأطيب، التفاح الصغير أم الكبير؟

- الكبير. قالت.

- وما هو الأفضل، البطيخ الصغير أم الكبير؟

- الكبير، ردَّتْ.

- وما هو الأطيب، البرتقال الصغير أم الكبير؟

- الكبير. الكبير!

وللحظة أحسّ أنهم وضعوه في الزاوية.

لكنّه سأل أمه: ما هو أفضل، لحم الخروف الصغير أم لحم التيس الهرش؟

- الخروف الصغير. ردّت.

التفت إليهم شامتًا وقال: ستظلّون تيوسًا! وخرج.

***

دار حول بيت حنّون ومعه خليل. ولما فقدَ الأمل في أن تُطلَّ من فوق السور، أو تفتح النافذة، مضى بصاحبه بعيدا نحو السّوق، تجوّلا، لأنهما لم يجدا ما يفعلانه أفضل من ذلك.

***

لصباح الجمعة مذاقه الخاص، رائحته، حضوره الفاتن وانسيابه العذب. لكأنّ العالم يولد من جديد، وملامح البشر تتفتّح، مُخَلِّفَةً وراءها إلى غير رجعة شقاء أسبوع مرَّ.

صَبِيَّة طويلة قمحيّة، قامة مشدودة كرمح، وزنّار على الخصر يدفع نهديها لالتهام السوق والدنيا، ذات عينين عسليتين واسعتين، وغمّازتين، انبثقت

أمامها كمعجزة. تبعاها، أدركها الصغير، كانت تساوم البائع حول سعر البندورة. وقف إلى جانبها صامتًا. نظرتْ إليه.

قال له البائع: ما لك؟ أؤمُر!

تلعثم: لا شيء.

شدّه خليل من قميصه، وظلَّ مكانه: يلّلا يا ولد. زجرتْه.

حدَّق الباعة فيه، ولم يكن ذلك الرجل الكبير الذي يتحرّش بامرأة فينهالون عليه بمكايلهم وصحون موازينهم وخُضَارهم التالِفة.

أتكون ابنة مختار هذه، أم ابنة مدير المخيّم؟

لا، ليست ابنة المدير.

الصغير يعرف المخيّم، يعرف أن بنات المدير يقبعن خلفَ أسوار عالية، لبيت إذا ما قيس ببقيّة البيوت يُعتبر قصرًا، يعرف أشجاره، ويعرف تجاوزات الصغار لصيد عصافيره "بالنُّقيفة".

وظلّت الصَّبيَّةُ تسأل الباعة، تتجاوزهم. حتى أدرك أنها واحدة من "المشحّرات" كما تقول أمّه. وأدرك: أن تكون "المِشَحَّرة" فقيرة، لا يعني ألّا تكون جميلة.

- كأنها امرأة المؤن. تنهّد الصغير.

وانتقلت إلى بائع أخر، تساومه حول سعر البندورة أيضًا.

***

أمّه لا تشتري مثل هذه البندورة، لا تجرؤ على الاقتراب لتسأل عن سعرها، والباعة خبيرون، يفرِّقون بين امرأة تسأل عن البندورة لتشتري، وأخرى تسأل لتسأل. ولا يحبّون أولئك النسوة الفضوليّات اللواتي يُقَلِّبن البضاعةَ بين أيديهن ويُتْلِفْنَها أحيانًا عن عمد وهنّ يضغطن عليها ويلعنَّ ارتفاع الأسعار!

يعرف أن أمّه تأتي في نهاية السوق، حيث لا شيء سوى البقايا، حيث لا نساء يرينها ويُعَيِّرْنها بأنها لا تبتاع سوى الزبالة.

يعرف أن أمّه تُمسك طرف غطاء رأسها بفمها حتى تستر وجهَها إذا ما رأت أحدًا تعرفه فجأة. أمه قالت: حدَثَ هذا مع أمّ حنّون.

تصادفتا في السوق، خبأت كلّ منهما وجهها بطرف الغطاء، وكانتا تبتاعان من بسطة خُضار واحدة. أمه قالت إن أم حنّون حاولت أن تُغيّر صوتها حتى لا أعرفها. ثم التفتتا إلى بعضهما البعض وضحكتا، لعنتا العيشة، فصرخ البائع: ألا تعجبكنّ بضاعتي، إحمدن الله، ولا تتكبَّرن على نعمته، ثم إن سعر البضاعة هو البلاش.

واقتسمتا كومَ البطاطا.

- يلعن أبو الفقر. قالت أمّه.

- لكن الفقر مش عيب. قالت أم حنّون.

- مع هيك، يلعن أبوه. ردَّت عائشة.

***

.. خرجتْ من الطرف الآخر للسوق. سارا خلْفها، وصلتْ المخفر، تمهّلا خوفًا من أن تُبَلِّغ عنهما.

سارت في شارع مأْدَبا، باتجاه مستشفى الهِلال، تجاوزت قيادة قوات البادية، انعطفتْ، فعرفا أنها من سكان جبل المرِّيخ، تباطأا حين أحسَّا أنها في شارع بيتها، حيث بدأت تردُّ التحيّة على عدد من النساء بألفة، وتميل باتجاه ولد ما تعبث بشعره وتسأله، وهي تدرك أنه لن يردّ: ولك وين أمّك؟

وتسحبه من يده لتُدخِله إحدى البوّابات.

صعدت درجًا يؤدي إلى طبقة ثانية في أحد البيوت.. بعد قليل كانت تطلُّ من النافذة. رأتْهما. انسحبتْ للدّاخل، وأطلَّ رأس آخر، رأس لا يعود إليها، رأس حليق لرجل بشاربين غليظين. وأطلَّ رأسها يزاحمه على الفسحة. أشارت يدها باتجاههما، ففرَّا هاربَين.

10

أسبوع العسل انتهى، كلّ ما يمكن أن يفعله الآن أن ينظر، أن يستعيد طعم المشمش "الحَمَويّ" دون جدوى.

خانق سقف العنبر العالي، هابط مع كل دقيقة تمرُّ، وضيّقة غدت البوابة، البوابة الكبيرة القادرة على استيعاب مؤخِّرة الشّاحنة المبرّدة.

حبّة الدُّرّاق انفلتت من هرم الدّرّاق، ناضجة، والهرم يُخفي جسمه. سُكَّرها انتشر، مذاقها تسلّل تحت أسنانه، في بدنه، مثل رائحة امرأة تضغط عليه بصدرها.

وصاحب الشَّركة يربض هناك في ركن قصيّ.

- إيّاك أن تفعلها. حذَّره ابن الجيران.

- ما هي التي سأفعلها؟

- أن تأكل حبة الدُّرّاق.

- لماذا؟

- ألم نقل لك منذ البداية؟

- قلتم... ولكنّها..

- ولكنها مُحَرَّمة الآن، إن اقتربت منها أكثر من ذلك فأنت تعرف، ستخرج من هذا الباب، الباب الذي لا يتّسع لجَمَلٍ فقط، بل لشاحنة.

- هذا حرام. قال الصغير.

- احمد الله أنك تذوَّقتَ ما تذوَّقتَ وأكلتَ حتى انفجرتَ قبل أن تموت، وبالحلال، ولا أحد يستطيع مثلك أن يأكلها بالحلال.

- وكيف يأكلها من سيأكلها؟ مَن نعبئها له بالصناديق؟

- يأكلها بأن يدفع ثمنها براميل من النّفط. هذه تذهب للخليج.
- النّفط مقابل الدُّراق، الكاز مقابل المشمش؟!
- نعم.
- هل صاحب الشّركة مجنون؟!!
- لا، ليس مجنونًا.
- خالي يوسف في الخليج ربّما يأكل منها.
- خالك مثلك ومثلي، حيثما ذهب لن يستطيع أكلَ شيء كهذا.
- هل صحيح أن الله طرد آدم من الجنَّة لأنّه أكلَ التفاح؟
سأل الصغير.
- نعم.
- وهل سيطردنا صاحب الشركة من شركته إذا أكلْنا الدُّرّاق؟!
- نعم.
- ولكن الله طرد آدم لأنه أكل التفّاح ولم يطرده لأنه أكل الدُّرّاق!
- صاحب الشركة سيطردك إن أكلت أيّ شيء.
- هل هو قويٌّ إلى هذا الحدّ!!
من بعيد جاء الصوت، صوت صاحب الشركة: وبعدين؟!
تناسى الصغير حبّة الدُّرّاق، لم يعد ينظر إليها، لم تعد تتطلّع إليه، أبقاها حيث هي.
وحين كانا يخرجان آخر الليل، التفتَ فلم يجدها.
في الطريق قال له ابن الجيران: خُذْ.
- الدُّرّاقة؟ صرخ الصغير.
- الدُّرّاقة.
- كُلْها بصمت.
- لكنّهم سيطردونك إن عرفوا.
- اطمئن، لن يعرفوا، خذها، كُلْها الآن.
- سأريها لإخوتي وأخواتي كي يُصدِّقوا.
- يصدِّقوا ماذا؟

- يصدّقوا أن في الدّنيا دُرّاقًا بهذا الحجم.

***

خالية هي الشوارع.

لا أحد، سوى حرَّاس يطوفون بعصيٍّ غليظة وشوارب كثّة.

ولم تكن العصي قادرة على إثبات هيبتها الكاملة، إن لم تكتمل بالشوارب المُقرفصة بجهامة تحت أنوف الحرّاس.

المخاتير يُربّون شواربهم أحيانًا، وقبضايات شارع سينما "الحمراء" على جسر الحمَّام.

الليل هادئ..

انفصلا في تلك النُّقطة التي ينفصلان فيها كلَّ ليلة، اختفتْ خطوات رفيقه، وظلّت خطواته تؤنسه، وتزيده وحشة.

- أنت، ماذا تفعل هناك؟

انفجر صوت في الظّلام، صوت حارس يقِظ. وانفتحتْ عينُ كشّافِهِ.

- إلى أين؟

- إلى بيتنا.

- توقَّفْ. أين كنت؟

- في الشَّركة، أعمل.

- تعمل حتى هذه الساعة؟ هل هناك من يعمل حتى هذه الساعة؟!!

- نعم، أنا، وأنت!

- أنا حارس.

- وأنا أعمل في تعبئة الفواكه.

وكأن حبة الدُّرّاق تحرّكتْ. تُذكِّره بوجودها، هبطتْ يده، أخذتْها راحته برِفق، وتمنّى أن يكون جيبه أعمق.

- ماذا في جيبك؟

- لاشيء.

- لا شيء!!

- لاشيء.

- ما الذي سرقْته؟
- أنا لا أسرق.
- لا تسرق!! أرني ما في جيبك بسرعة، وإلاّ حملتك للمخفر يا حرامي.
- امتدّتْ يده، أخرجتْ حبّة الدّرّاق..
- أنظر، لم أسرق شيئًا.
- ما هذا؟!
وكانت دائرة الضوء قد استقرّتْ على الدّرّاقة واليدّ.
- دُرّاقة. قال الصغير.
- ومن أين لك هذه الدّرّاقة؟
صمتَ الصغير.
- سرقتها، اعترف، لا أحد يملك دُرّاقة كهذه في المخيّم!
- إنها لي، أعطوني إيّاها.
- كذّاب.
نظر الصغير إليها للمرّة الأخيرة في ضوء الكشّاف، في ضوء القمر الأصفر، القمر المريض فوق سطوح المخيّم، في شوارعه، فوق دواليه.
- خذ.
اختطفتها يد الحارس.
ومضى.
مضى الصغير، وخلْفه، كانت هناك دُرّاقة، دُرّاقة تختفي رويدًا في فم الحارس، تحت شاربه الغليظ، دُرّاقة رائحتها تفوح، وتتبعه.
- ربّما كان من الأفضل ألّا يشاهدها إخوتي، ألاّ يتعرّفوا عليها، ألاّ يعرفوا أنهم محرومون إلى هذا الحدّ!
لكنّه حين وصل البيت، كان القهر قد طفح وغطى ملامحه، وأغرق قلبه وشفتيه بأسى رماديّ.
تجاوز العتبة، وكما يحدث دائما، أمّه تنتظر، خالته.
- تتعشّى؟ سألت إحداهما.
- تُعشَّيت!

خبّأ الصغير رأسه تحت اللحاف. وحيدًا وجد نفسه هناك، قطعة من عتمة في الليل. نهضت عائشة، دخلت غرفتها.

اندسّت مريم إلى جانبه، طفح القهر، نـزَّ من شـقوق روحـه، مـن مـسامات جسده عرقًا غزيرًا.

انفجرت موجة قاسية من نحيب مكتوم، نحيب قادم من بعيد قريـب، مثـل أنين يشقُّ هَدْأة قبر.

دفئًا لاذعًا مبتلًّا تسلّل الدَّمع إلى صدر مريم. هل تكون عرقَتْ إلى هذا الحدّ؟ دفئًا باردًا انساب على صدرها. وفجأة راح يهتزّ، احتـضنتْه، مـسَّدت شـعره، ولم تفكّر أبدًا برفع اللحاف، كلّ الأشياء كانت واضحة..

***

صبحًا أتت عائشة.

رفعتْ طرف الخيمة، أشـارت إليهـا مـريم أن تـصمت، نهـضت، سـحبتْ عائشة من يدها خارجًا..

- دعيه ينام، وليحدث ما يحدث.

.. ومرّ يوم، يومان، أيام، وراحتْ يد أليفة تدقُّ الباب.

9

في الشارع الصغير، الشارع نصف الزِّقاق، المُطلِّ على السّاحة أمام النّادي، حيث السوق، مواقف الباصات، وسيّارات السرفيس، وتجمُّع الشوارع كالجداول في بحيرة التراب والإسفلت، هناك وجد الزَّوْبعة المكان الملائم لمشروعه.

لم يُضع الكثير من الوقت.

خال حنّون القادم من ألمانيا، خالها الفهمان!! قال له: إذا كان لديك قرشان سأدلُّكَ على مشروع حقيقي وسأساعدك. وحين سأل: ما هو المشروع؟

قال: فرن خبز!!

أوشك الزَّوبعة أن ينقلب على ظهره، لولا أن تشبَّث برجله الخشبية في اللحظة الأخيرة.

- أتريدني أن أقوم طوال النهار بمقارعة النّسوان، هذه خبزها احترق، وهذه خبزها لم ينضج، وهذه خبزها حمَّض؟!

- لا أقصد فرْنًا لخبز الآخرين. في ألمانيا، وأحسَّ بزهو حين نَطَقَها، فهو شاب تغرَّب، في ألمانيا. أعاد نطقها من جديد. لا أحد يعجن، الجميع يشترون خبزهم من السّوق. يلزمكَ رغيف. تشتري رغيفًا، يلزمك اثنان تشتري اثنين.

- أتريدني أن أبيع الخبز؟ هذا والله عيب، حتى، وحرام!

- لا عيب ولا حرام.

- ثم، ثم كيف أستطيع القيام بأعمال الفُرْن؟

- هذه محلولة أيضًا، يلزمك ولد شاطر وفرَّان. في البداية يمكن أن تستعين بنساء، بأمّ حنّون وغيرها حتى تعجن وبعدها تسير الأمور بشكل طبيعيّ.

أم حنّون التي كانت تستمع صامتة، أم حنّـون انفجـرت: أتريـدني أن أخبـزَ وأُطعمَ المخيّم؟!

وقال الزَّوبعة: (لاحق العَيَّار لباب الدار). لِمَ لا يُجنّ الإنسان بعـض الـشيء؟ ألم أكن مجنونًا حين واصلتُ العمل في الكسّارات بعد مشاهدتي لفتـات لحـم أبي خليل وسواه؟ ألم أكن مجنونًا أكثر حين واصلتُ اللعب بالبارود؟

***

سريعًا بدأ العمل بمساعدة خال حنّون.

فرّان، وامرأة عجوز مثل السَّروة تعجن. فخـورًا عـاد الزَّوبعـة مـساء اليـوم الأول، رغم أن أحدًا لم يشتر منه شيئًا، تحت إبطه حزمة خبز وفي عينيه بريق.

- أتريد أن تفوح سيرتي على ألسِنَة نسوان المخيّم؟ أم حنّون تأكـل مـن خبـز المِشْتَرى؟ أم تريد أن يقُلن إن زوجها يخبز لها؟ لا، لن يحدث هذا.

تحسَّنتْ أوضاع الفرن، وازداد إصرارها، كانت تخبز كلَّ يـومين، فأصـبحت تخبز يوميًّا!

- شوف، لا يَعيب المرأة أنها بلا أولاد، فهذا من الله. ولا يعيبها أنها بـلا زوج فهذا قسمة ونصيب، ولكن يَعيبها أن تشتري خبزها من السّوق.

ويأتي الزَّوبعة بالخبز رغم ذلك..

وتوزِّعه على الشّحادين صباح اليوم التالي.

***

فجأة تنبّهوا..

حـدّقوا في الأرض التـي يقفـون عليهـا، الـشوارع التـي يعبرونهـا، الأزقّـة، الفـصول التـي وزَّعـتهم عـلى بردهـا وحرِّهـا وخريفهـا، دبَّـت خـضرة مـا في أرواحهم، وبدأوا يحسّون بأرجلهم ثانية، أرجلهم التي ابتلعها الخَدَر.

عشرون عامًا كاملة..

فجأة تنبّهوا.

تصريحات الرَّئيس عبد الناصر، أجواء الحرب التي بدأت تزحـف، أطـارت العصافيرَ من رأس الصغير.

وحلَّقتْ خالته مريم للمرَّة الأولى.

أوشكت أن تغادر خيمتَها، أن تحرقَها، لكنّها في لحظة غامضة توقّفت، قرصَها قلبها: فَرِحْنا أكثر من ذلك حين أتتْ جيوش الإنقاذ عام 48، وأيامها على الأقل كنّا نملك سلاحًا، نحن الآن لا نملكه، والذين اقتربوا من السِّلاح هم في السّجون. لا يمكن أن تُحارب عدوّك بالمساجين، إذا كانوا يريدون حقًا الحرب، فليُخرِجوا أولًا من كانوا يريدون استعادة بلادهم.

ودخلت الخيمة، تتبعها عائشة وسرْبٌ من أولادها.

***

- عبد الناصر، عنده "الظّافر"[16].

عبد الناصر، عنده "القاهر".

تتقافز حنّون، تُنَغِّم الكلمات، تحوِّلها إلى نشيد.

- هل سمعت بشيء جديد؟ يسأل الزَّوبعة.

- لا، لكن الدّنيا قائمة قاعدة!

فيقول وهو يفكُّ رجله الخشبية، وكأن جلوسه سيطول أكثر: كنتُ أتمنى أن أرى النّصر بعينَي. عشرين عامًا نتمرَّغ في هذا الوحل، نُلَمْلَمُ قطعًا صغيرة، في كيس، وتطيرُ ساقي في الزّمن الذي أحتاجها فيه، هل سأعود إلى فلسطين على عكّاز؟

وصمت طويلًا.

- هل ستعرفنا البلد بعد أن كبرنا؟

هل تعرفني إذا ما عدتُ إليها بلا ساق؟

ويصمتان، حتى يغدو العالم قطعة بيضاء.

وفجأة تسأل: كيف كان أبي؟

- نَمِرًا، يا حنّون. نمرًا، وأخًا لصاحبه كان.

- أحيانا أحسّ أنك تحبّه أكثر مما أحبّه أنا!

- لأنكِ لم تعرفيه.

***

[16] - الظافر والقاهر، صواريخ تحدث الإعلام كثيرا عنها يملكها الجيش المصري.

- قبل كل هذا الشّقاء، تعلّمتُ الخياطة، وأثناء ذلك تعرفتُ على أبيك. ابن عمٍّ لي سألني: لماذا لا تتعلَّم الخياطة؟

- أنا أتعلّمها! بعد أن طلع الشيب في رأسي؟

- نعم، لديّ ماكينتان، أُعلّمكَ على واحدة وآخذ منك ربع الأرباح.

واقتنعتُ.

***

في ساحة مُغبَّرة وسط مدينة الخليل جلسا مُتقابلين، رياح رمليّة تعبر بينهما، وتمرُّ لحظات لا يرى الواحد منهما الآخر.

مثل شبح أقبل من بعيد، تقدَّم نحو الزَّوبعة، أكان سيتقدّم لو لم تكن هناك ريح وجدار من رمال طائرة؟

ردّ السلام.

دعاه للجلوس.

فجلس.

حاول الزَّوبعة الاستعانة بابن عمّه في الجانب المقابل، ولم يكن ذلك يتمّ بسهولة.

- أريد أن تخيط لي هذه القطعة من القماش قمبازًا.

وخياطة القمباز كاملة بعشرة قروش. فرِحَ الزَّوبعة، لكن فرحته طارت، طارت حين تذكّر أن عليه أن يأخذ مقاس الرّجل.

عَبْرَ الرَّملِ اندفعتْ عيناه تبحثان عن ابن عمّه، تستنجدان به..

أشار له ذاك أن يأخذ قياس الكتفين، ثم الظَّهر، اليدين، والوسط والطُّول. واستأذن الرّجل وغاب..

- غدا يكون القمباز جاهزًا إن شاء الله. قال الزَّوبعة.

***

وأطلَّ الرجل ثانية. ولم يكن قد أنهى خياطة الثنية السّفلى. صاعدًا هابطًا كان الخيط، متعرِّجا مرتبكًا، تراه العين المُغمضة. وكان ابن عمّه قد خاط جزءًا كبيرًا من القمباز، وهو يعلِّمه.

خلَعَ الرجل قمبازه الذي يلبسه متسترًا بعباءته. لبس القمباز الجديد.

- كيف تراه؟سأله الزَّوبعة مرتبكًا.

- لم أرتدِ أفضل منه في حياتي!

وناوله القروش العشرة وغاب.

***

- كنتُ أدرك يا حنّون أن ليس هناك أسوأ من هذا القمباز في الدّنيا. وسهرت اللّيالي الطويلة أفكر بهذا الرّجل، هذا الرجل الذي لا يمكن أن يكون أعمى إلى هذا الحدّ. لكن، كان علي أن أعود وأواصل العمل في تلك الساحة.

فجأة لمحته بعد أسابيع، ولم تخطئ عيني طلعته أبدًا، وقد رأيت قمبازي وأفعال يديّ لم تزل عليه! ناديتُه: يا أخي، يا أخي، تفضَّل، تعال بالله عليك.

وجاء الرجل، قلتُ له: اخلع قمبازك، واستتر بالعباءة.

فاستجاب دون كلام.

فككتُ الثنية وانتزعتُ الخيوط المعوجَّة حيثما وُجِدَتْ، وأصلحته كاملًا، وظلَّ الرجل صامتًا طوال الوقت حتى أنهيتُ العمل. ارتدى القمباز دون كلام، وكان سيمضي دون أن يقول أكثر من تحية الوداع. عندها سألتُه: قل لي، كيف قبِلتَ بهذا القمباز وخرابه واضح مفضوح؟ تنهَّد الرجل، وابتسم ابتسامة صافية: منذ أن ارتديتُ القمباز قلت هذا رجل لم يَخِطْ ثوبًا واحدًا في حياته، وفكَّرتُ، إذا قلتُ لك، وأنت في وسط السوق، إنك لست خيّاطًا وسمعني أحد، فإنك لن تستطيع العمل أبدًا، وأكون بهذا قد قطعتُ رزقَكَ، كما أنك نفسك لن تستطيع العمل بعدها. والآن، أنظر إلى خياطتك، إنها أفضل ما يمكن أن تكون عليه الخياطة.

- هذا أبوكِ يا حنّون، أبوكِ الذي أصبح منذ ذلك اليوم أخي.

8

صرخ الزَّوبعة: ما أجتْ تصير الحرب إلاّ بعد رجْلي ما انقطعتْ!

- الحرب بدأت قبل الآن، وللفلسطينيين جيش اسمه "الفـدائيين"، جـيش معه أسلحة، ويحارب ويقوم بعمليات. همَسَتْ له حنّون.

- ومِنْ.. من أين عرفتِ هذا الكلام؟!

- من طالبة في الصَّف، أبوها في الجيش.

استيقظتْ في مخيّلته ذكريات كثيرة.

- ولديهم أسلحة فعلًا؟

- كل شيء.

- بماذا تتهامسان؟ صرخت أم خليل.

- لا شيء. قالت حنّون.

- لا شيء. ردّ الزَّوبعة.

وصمتا طويلًا، حتى أيقنا أنها نامت.

همست حنّون: سأتعرّف إلى بنت فدائيَّة.

- كمان في فدائيَّات؟!

- طبعًا.

- ويقُمن بعمليّات؟

- طبعًا، طبعًا.

- أُنظري، وأنا الذي أكملت الصَّف الثاني في مدارس زمان أجلـس هنـا ولا أعرف شيئًا، يا ملعونة تعرفين أكثر مني!

صرخت أمها: وبعدين؟!

- لاشيء، لاشيء سننام!

ولم تنم حنّون، ولم ينم.

***

سلاح، سلاح..

عاوده صوت الرَّصاص، الرَّصاص المدوِّي في أطراف دير ياسين، المُـدافعون يتساقطون، تتساقط بواريدهم العتيقة، المصفَّحات الـصهيونيّة تتقـدَّم، طلقـاتُ المُدافِعين تزداد تبعثُرًا، الصَّمت بين الرَّصاصة والرَّصاصة يطول.

تهمس امرأة: صمت "برن" أبو العبد.

ويكون قد صمت فعلا.

- صمتتْ بندقيةُ حسين.

يزحف الخوف، يتقدّم بتقدُّم أصوات محرِّكات المدرَّعات. ألم تفـتح بريطانيـا لليهود مخازن أسلحتها كلّها؟ ألَمْ تشنق (أبا خالد) لأنها وجدته يتجوّل وفي جيبه سكين في حيفا؟

كيف لم يتبعثر النـاس؟ كيـف تجمَّعـوا وهـم يَـرون عـصابات "اتـسل" و "شتيرن" تتقدَّم نحوهم؟

كيف تلاصقوا؟ كيف تملَّكهم حسُّ الضَّحية في لحظة؟ كيف بـدأوا يُـردِّدون كشيوخ الزارات، أطفالا ونساء وشيوخًا وهم يهتزّون:

لم يمسَسْهم سوء..

لم يمسَسْهم سوء..

لم يمسَسْهم سوء..

محاولين دفعَ الموت المُتَقَدِّم؟

كيف واصلوا جنون لحظتهم والرّصاص يُمزِّق أجسادهم:

لم يمسَسْهم سوء؟

مَنْ ذلك الذي ردَّدها للنهاية، دون أن ينتبه أنها لم تَحْمِ من سبقه؟

***

ساحة المخيّم..

تُجَمِّعُ الناسَ أمام النّادي، وتوزِّعهم بالتساوي، للمصانع جزء وللشركات جزء ولمحلات بيع الأدوات المستعملة والملابس القديمة وبسطات الخُضَار حول "السَّيل" جزء، السَّيل الذي كلما ارتفع أخذ معه الدّكاكين والملابس وبعض البشر وغمر مخامر الموز، ووصل إلى باب سينما الحمراء، موشكا أن يدخل "الحَمّام التّركي".

- مَنْ مِنْ هؤلاء سيميل ليشتري رغيفه؟!

سأل الزَّوبعة.

ولم يطل الوقت..

برغيف، أو رغيفين بدأت حكاية الناس مع الفُرن، حكاية الرّجال الذين لم يعودوا مضطرِّين لسؤال نسائهم بعصبية عن رغيف يحملونه معهم للعمل.

اندفع بائعو الخُضَار، محلات الملابس القديمة التي بدأت تتكاثر، وفضّل أطباء وصيادلة ومن أنعم عليهم ربهم، وهم قلّة، أن يأخذوا كامل حاجتهم من الخبز إلى بيوتهم، فاستراحت نساؤهم.

وحين رأى النّاس أطباء يشترون، غدا شراء الخبز نوعًا من الفخفخة، تمتّعتْ بها بعض زوجات المُعلِّمين أيضًا.

***

- يا ريتها انقطعتْ من زمان!

صرخ الزَّوبعة، عاجزًا عن كتم فرحه.

أدارت أم حنّون رأسها باتجاهه وسألت: وما هي هذه؟!

- رجْلي يا ستي، رجلي، أظنها كانت نقطة النَّحس الوحيدة في حياتي. تصوّري كيف تغيّرت أحوالنا.

مدّ يده إلى جيبه، أخرج كميّة من الدنانير، نَعَفَها فوق رأس زوجته، وحنّون. تساقطت الأوراقُ، مثل المناشير التي كانت تُلقيها الطائرات مُطالبة الناس بالرّحيل أو الاستسلام!

زمن الشقاء انتهى، لن تذهبي بعد اليوم (لتُصَيِّفي)[17] ، من الآن نحن أغنياء، أغنياء هل فهمت؟!

---

[17] - التَّصييف: لَمُّ سنابل القمح التي تتساقط خلف الحصّادين.

منتشيًا بانتصاره كان، وأمّ حنّون مشغولة بلملمة النقود المتبعثرة على أرض الغرفة المحفَّرة.

- حتى حرام ترمي المصاري هيك! هذي نعمة الله. تردّد.

وحنّون غير مُصدِّقة.

- ألا أستحقُّ كوبًا من الشاي؟

انتشرت أمّ حنّون في أرجاء الغرفة تبحث عن الإبريق. خرجت إلى غرفة الصَّفيح لتدقَّ البابور. مال إلى حنّون ومدّ يده إلى جيبه، أخرج خمسة دنانير حمراء، كاملة، تطقطق، جديدة: هذه لك، اشتري ما تشائين.

لم تصدِّق حنون: أَيَدُها الصغيرة هذه التي تضمّ كلّ هذا المال؟! الله.

وانتشرت في رأسها مئات الاحتمالات لإنفاقها.

خمسة فساتين، حذاءان، شَبَرَة بألوان كثيرة لشَعرها، هدية له، و.. وستطلب منه أن يذهب إلى السينما، أمنيتها التي لا تتحقّق على أن يعود ويحكي لها ما حدث بالتفصيل.

***

- يا ريتها انقطعت من زمان!

قالت أمّ حنون أيضًا، وكان لأمنيتها سبب آخر.

مالت عليه، وكان ظلام، طرف ثوبها مرتفع إلى أسفل نهديها الكبيرين: هل دفنوا رجْلكَ فعلًا، أم وضعوها مكان (هذا)؟

هو نفسه، لم يعرف كيف تفجَّر فيه بركان الجمر، البركان الذي دفع الورْدَ إلى خدَّي أم حنّون ، وأسلمها لكسل لم تعتدْه في مفاصلها، وتثاؤب لا ينقطع عند الصباح.

كلّ قوة السّاق التي امتصّها الديناميت، عادت وتكثّفت فيه من جديد.

وأمّ حنون، أم حنّون التي احتارت في البداية: كيف نستطيع النّوم معًا بعد اليوم؟ أمّ حنّون التي ابتكرت طُرُقًا كثيرة بصورة خاطفة، انتهت في أنها ستعتليه وليكن ما يكون. صحيح هو الزلمة، لكن للضرورة أحكام!

أم حنّون التي عادت وزجرت نفسها: كيف تُفكّرين بزوجك هكذا؟ ولم يكن حُرًّا من تلك الأفكار، الزَّوبعة، منذ أن أفاق، منذ أن اكتشف ما حدث، قبل أن يفكّر في مستقبله، فكّر فيما بين ساقيه، وقال: ما الذي سيحدث "له"؟!

لكنه حينما نهض ذات صباح، واصطدمت يده بذلك المُنتصِب عاليًا، أحسَّ بأن حِمْلا ثقيلًا أُنزل عن ظهره.

- على هذا المنوال، سأحمل. قالت أم حنّون. أم حنّون التي تعرف أنها قطعت الحيض والبيض معًا.

***

تواردت أخبار حرب:

اشتباك بين طائرات سوريَّة وإسرائيلية، تهديدات لسوريا، تحشّدات إسرائيلية على خط الهدنة معها..

مصر تحشد قواتها، تُنذرُ إسرائيلَ، وتطلب من قوات الطوارئ الدَّولية أن تنسحب من مواقعها.

المملكة ترقب باهتمام شديد، ويقظة تامّة تطوُّر الأحداث في المنطقة، يؤكِّد رئيس الوزراء الأردني سعد جمعه، ويؤكِّد صدور أوامر عاجلة بوضع جميع القوات المسلّحة تحت الإنذار تحسُّبًا لأي طارئ.

السبيل الوحيد لصدّ العدوان وتحرير الوطن السليب في فلسطين هو العودة إلى التّضامن العربي الشامل وإلى لقاءات القمة..

يؤكّد مجلس النواب، ويؤيّد الحكومة..

***

حنّون حسمتْ الأمر نقلًا عن الفدائيَّة التي تلتقيها.

- الناس يجب أن تتسلّح وتحارب، الجيوش لا تحقّق النّصر وحدها.

ولم تقل: هذا كلامُ الفدائيّة.

وهزَّ الزوبعة رأسه: كلام كبير يا بنت، كلام كبير والله. وكان يريد أن يقول لها: ذكيّة وطالعة لأبيك، لكنّه اكتشف أنه ليس أباها ليقول لها ذلك، وليس عدلًا أن يُذكِّرها به الآن.

***

دقَّتْ يدٌ الباب..

دقة أليفة انتفض لها أكثر من قلب، ذلك المساء المصبوغةُ نوافذُه بالنِّيلي.

أشرعتْ مريم باب خيمتها.. ووجهًا لوجه وجدتْ نفسها مع عائشة.

تبادلتا النظر.

عائشة تعرف وقع يده على الباب، لكن، كيف عرفته مريم؟

انسلّ الصغار من فراشهم، تقاطروا خلْف أمهم وخالتهم، صامتين. بعيون مشرَعة على آخرها، كأن الحرب تبدأ الآن، ولم تكن الحرب.

تقدَّمت عائشة وفتحت الباب.

القامة هي، لكن الوجه مخطوفٌ بظلام.

تسمَّرت مكانها.

وتقدَّمت مريم.

أخذته بين ذراعيها، لم ترتبك، أخذته بكامل حنينها إلى ما لا تعرف.

- مريم؟ نطقَ اسمها؟

وحاول الصغار أن يروا شيئًا فلم يروا.

جرَّته من يده، يده التي لم تتركها، إلى أن أدخلته الغرفة، وبيدها الأخرى رفعت فتيلة الفانوس، فعمَّ الضوء..

- عائشة. قال.

لكن عائشة ارتبكت، مدّت يدها، سلَّمت: لو كان لي أن أحضنه لكان الأمر قد تمّ هناك في العتمة!!

هنا لم تستطع.

وانحنى للصغار..

أخذهم بصمت بين يديه، جَمَع أكبر عدد منهم دفعة واحدة.

جَمَعَهم كلّهم.

ورأى الصغير هناك، الصغير الذي كان يعرف كل شيء، وليس متأكِّدا من شيء. أهذا أبوه فعلا؟ سار عليٌّ باتجاهه.

- كَبرتَ!

واحتضنه..

فرحٌ سرّيٌّ دافئ تبرعم بين أضلاع الصغير، فَرَحٌ مفتَقدٌ من عصور.

اندفعت مريم، سوَّت الفراش، على الطريقة التي يجب أن يكون عليها حين يصل ضيف، ووضعت مخدَّتين كبيرتين على الحائط، واثنتين على يمين الفَرشة التي تتصدَّر البيت.

وستسرُّ عائشة لمريم فيما بعد: والله ما كنت سأعرف كيف أتصرَّف، لولاكِ.

وسيأتي صوت من الخارج، صوت حارس أو شرطي: طفّوا الضَّو!

وستردّ مريم: أطفأتم هذا الضّوء لسنين، ولنا الحقّ أن نشعله الآن!

- أفرَجوا عن الجميع. قال.

تحديق الصغير به أربكه، كلّما التفتَ رأى عينين مشدوهتين مرفوعتين إلى وجهه كصلاة.

- أهذا أبي فعلًا؟!!

وسيُبحر الليلُ أكثر في ليليّته.

وكلّما همّتْ مريم أن تقوم لتدخل خيمتها، كلّما همّت أن تتركه مع أولاده، شدّها شيء غامض للأرض..

وتَعِبَ الرَّجلُ المُتعب أكثر..

- ثلاثة أيام دون نوم، من الصّحراء، من "الجَفْر" أتوا بنا، وما مِنْ طريق عبرنا منه باتجاه السجن إلّا وعُدْنا عبره، الدَّوائر، المخافر، المخابرات، السيّارات نفسها، الوجوه، الوعيد، الشتائم، يشتموننا، كما لو أنهم واثقون من تحقيق النصر!

ويقولون: الجيوش تحارب الجيوش وتستطيع الوقوف في وجهها، أما الزَّعرنة فهذه للقوّادين وأولاد الشّوارع!

وفجأة..

مال رأسه ونام..

رفعتْ عائشة واحدة من المخدّتين عن يمينه. فاستراح رأسه، وأزاحت مريم قدميه لتكونا على الفَرشة، وغطتْه عائشة، عائشة التي أشارت لأولادها أن يصمتوا، أن يذهبوا إلى خيمة خالتهم ليناموا هناك، لكنّهم رفضوا.

لم يقولوا شيئًا، لكنّهم تمترسوا أمام أبيهم صامتين.

- يجب أن تناموا. قالت مريم هامسة.

وهزت عائشة رأسها موافقة. وهزّوا رأسهم رافضين.

ونهضتْ عائشة لتخفف ضوءَ الفانوس فصاحوا بهـا: خلِّيـه، بـدنا نـشوف أبونا!

7

استطاع الصغير أن يطوِّر قدرته على محاكاة الحسّون، بما يخدع أمّ الحساسين نفسها، وأن يُصدر من الغناء العصفوري المُرَكَّب ما يدفع عصافير الحوض للنّزول أو التوقّف فوق رأسه باحثة عنه في الشّجرة التي يجلس تحتها.

.. خلْف شجرة بريّة شوكيّة كانا يربضان. يفصلهما عن البئر مسافة الأمان، الأمان اللازم لعصفور كي يهبط، الأمان الذي يُمكِّنهما من سحْبِ الحبْل لانطباق الشبكة في الوقت المطلوب تمامًا، لا أكثر، ولا أقلّ.

على رأس سروة عالية تُحرِّكها الرّيح، توقَّف، وثابتًا كان، كأنه جزء من قمّتها، غرّد كثيرًا قبل أن تندفع العصافير باتّجاهه، حسّون ذكر، أحمرُهُ فوق المنقار جمرةٌ متّقدة، منساب وعالٍ مثل قصيدةِ فخر، مثل مُعَلّقة "عمرو بن كلثوم". غرَّد بما لا يُجارى، غرّد وغرّد، لكأنَّ محاكاة الصغير لغناء الحساسين ليست أكثر من تأتأة.

حَذِرٌ، لم يندفع باتجاه الماء مثلما يندفع أيّ طائر.

تحرَّك قلب الصغير في صدره، أحسّ بفراغ ما داخلَ القلب، فراغ لن يملأه سوى هذا الحسّون. شوقٌ عارم اصطخب بين أضلاعه. كان الحسّون يحاكيه، يدعوه أن يُقْبِل، بصوته العميق، صوته المجدول بالخضرة والضوء وزرقة السماء. أيّ فرح هذا؟ غادر مكمنه، ركض باتّجاه الحسّون، ركض مثل مجنون. متوقّعًا أن يندفع الحسّون بدوره باتجاهه ليعانقه!

طار الحسّون.

وطار السّرب.

وخلْفَ صاحبه طار خليل.

- ولَكْ إنتَ مجنون؟!

نظرَ الصغير إلى نفسه فجأة، اكتشف أنه خارج مكمنه. هل كان يحلم؟! أخذه خليل من يده وأعاده إلى ظلِّ الشجرة.

***

ساعات طويلة، كان عليهما أن ينتظرا.

قَرَصَهما جوع، واعتصرتْهما شمس.

وانسابت جداول ملح وعبرَت أعينهما.

سمعاه، قبل أن يرياه، الحسّون ذاته، الحسّون الذي عاد لسرْوَتِه ذاتها قبل أن تتجمَّع الطيور حوله، بمناقيرها المُشرَعة ولهاثها المتطلِّع للماء.

واحدًا إثر واحد هبطتْ للحوض، هبط السرّب كلّه. تحفّز خليل، اضطرب، وصاحبه غير قادر على سحْبِ الحبْل.

- ستشرب وتطير. هناك أكثر من عشرين في الحوض!

أشار له أن يصمت، فصمت.

طارت العصافير..

لم يبق في الحوض سوى القليل، القليل الذي بدأ يستحمّ محاولًا إطفاء لهب الظهيرة الناشب في ريشه.

وهناك، فوق السَّروة، ظلَّ الحسّون، يغنّي ويغنّي.

- لا أريد سوى ذلك الحسّون.

قالها الصغير لصاحبه، كانت أشبه برجاء مرفوع للسماء.

هل تعب من الغناء؟ هل شبع غناء؟ هل تشقّقت حنجرته وبَرَقَ الماء يدعوه؟ هل اطمأن بعد أن شربت العصافير، واستحمّت؟

سهمًا اندفع للماء..

وخائفًا، فَرِحًا سحبَ الصغير الحبل وهو يصرخ: الآن.

أسرع من صرخته كان انطباق الشّبكة.

تقافزت العصافير بحثًا عن منفذ، العصافير التي لم تُكمل استحمامها. ولم تخطئه عين الصغير أبدًا، إليه امتدت يده أولًا، تاركة لخليل أن يُخرج بقيَّة العصافير ويزجّها في القفص.

تأمّله مسحورًا..

أحبّه، كما لم يحبّ يومًا طائرًا.

تفلّتَ الحسّون من القبضة الصغيرة، وبين أن يضعه في القفص أو يبقيه في يده قريبًا من نبضه، أحسّ بحزن، لأن عصفورًا كهذا لا يمكن أن يعيش فوق راحته، كما يعيش فوق سروته تلك، وبحزن أكثر فتح باب القفص وأطلقه بين الأسلاك.

اشتعل الحسّون، تدافع، انطلق، ألقى بجسده حيثما أوحى جناحه بوجود فتحة، الحسّون، حسّون الصغير، الذي أصبح وحده يحمل هذا الاسم، رغم وجود عشرات الحساسين في القفص نفسه.

عضَّ الأسلاك، محاولا اختراق المدى المحبوس بين سِلْكَين. وخفق قلب الصغير رعبًا. قطرات دم صغيرة انفجرت هناك تنزّ من جناحيه، تحت عينيه، حول منقاره.

خلع الصغير قميصه ألقاه فوق القفص.

هدأت حركة العصافير قليلًا.. ثم عادت لتشتعل.

ألكي لا يراه داميًا، أم لكي يهدأ؟

وعادت لتهدأ.

– العصافير تعتقد أن الليل جاء حين تجلّل القفص.

فكَّر الصغير بحسّونه، بعلاقة الظّلام بأجنحته، بدمه، بمحاولة الخروج. وفجأة أحسّ أنه اكتفى بهذا الحسّون.

صامتًا ظلَّ طوال الرّحلة، مأخوذًا بإحساس غريب يدفعه إلى كتابة شيء ما، بشوق غريب لورقة بيضاء، لقلم، وصمتٍ أكثر عمقًا، لوحدة. أحس بشيء يتحرّك في أعماقه، كلمات، كلمات غامضة، لها معناها الأوضح من شمس، لا يعرفها الآن، لكنّها وحدها التي يريد قولها، كتابتها، فَتْحَ باب جسده وإطلاقها، الرّكض خلْفها، اللعب معها، إلقاءها أرضًا وشدّ شَعرها.

– هل تعرف كيف يكتب الشّعراء الشِّعر؟! سأل صاحبه.

– لا، لا أعرف. أجاب خليل. لكن أظنّهم يضعون يدهم على خدِّهم أوّلًا، ويسرحون!

***

- لماذا أضعه في القفص إذا كنت أحبّه لهذا الحدّ؟

سأل خالته.

وردّت مريم: لو توقف الأمر على عصفورك لهان، نحن نجري جريًا نحو أقفاصنا، وحين لا يضعوننا فيها، نضع أنفسنا في قفص أكثر قسوة، قفص الوحشة والانتظار!

- أنا فاهم كل شيء يا خالتي، أعرف لِمَ لَمْ تتزوّجي.

- ومن قال لك؟!

- لا أحد، أنا أعرف، أعرف أكثر ممّا تعتقدين.

***

لم يكن بحاجة لأن يضع يده على خدِّه.

كان يحتاج كلتا يديه، جسمه كلّه، قلبه وعقله، عرقه الذي تفجَّر، جفاف ريقه، ارتجاف روحه..

- كتبتُ قصيدة. قال لصاحبه.

- نعم!

- كتبتُ قصيدة، اقرأها.

- اقرأها أنت. قال له خليل وهو يضحك.

تركه الصغير قبل أن يُكملها، انطلق نحو حنّون، بحث عنها، لم يجدها قرب البيت، ذهب للفرن، لم يجدها، بحث عنها في الشوارع، عاد للبيت، شبّاكها مغلق، وبيتها صمت موحش.

أحسَّ بشوق عارم للورقة، ركض إلى البيت، كتب قصيدته الثانية.

عاد لخليل.

- إسمع. قال له.

- قصيدة ثانية؟ قال صاحبه هازئًا.

- ليست لي، هذه أغنية جديدة لـ "عبد الحليم" نشرتها الجريدة. بدأ بقراءتها. قاطعه صاحبه: بالفصحى نعم، لكن ربّما تكون أحلى من "سوّاح".

- ليست أحلى من "سوّاح". قال الصغير.

- أحلى، أنا أؤكد ذلك. قال خليل.

- لكنني أنا الذي كتبتها.

- شو، هل تعتقد أنني أهبل؟!

- أقسم أنني أنا الذي كتبتها، لماذا لا تُصدّق أنني أستطيع أن أطير؟

- ومن هي البنت صاحبة الشبّاك المُغلق التي بحثتَ عنها في الشوارع؟

- هذا سرِّي. أجاب الصغير بفرح عذب.

- امرأة المؤن؟!

- هذا سرّي.

- حنّون؟

- هذا سرّي.

***

انتشر ثانية باحثًا عن حنّون، وجدها في الفرن، ناداه الزَّوبعة: تعال. ومال إلى حنّون، سألها: غاضبة من خطيبك؟!

احمرَّتْ.

- هو ليس خطيبي. ردّت مرتبكة.

- لا تخدعيني، انظري لوجهك الأحمر.

- هذا من حرارة الفُرن! ردّت.

- لا ينقصنا إلا أن تقولي هذا من حرارة الإيمان! وضحِك حتى نزلت دموعه، ضحك ناسيًا أنه لم يعد بإمكانه التأرجح هكذا في أعلى الضّحكة بقدم واحدة.

وراح وجه الصغير يتّقد أيضًا.

مدّ يده إلى حنّون وسلَّم، استند إلى كيس طحين، رائحة الخبز الطّازج تملأ المكان. غاب الزَّوبعة في تفاصيل القادمين لشراء الخبز وطلباتهم.

- كيف حالكِ؟

- مليحة!

- وأنتَ؟

- مليح!

مدَّ الصغير يده إلى جيبه، تحسَّس قصيدته، وداهمه خوف ملأ عينيه، عينيه اللتين تتابعان الزَّوبعة. مدّ يده ثانية إلى جيبه، أخرج الورقة، ومدّ يده إلى حنّون يصافحها، حنّون التي أحسّت بوجود ذلك الشيء الغامض في كفِّه. ارتجفتْ. ولم يكن يلزمها كثير من الفطنة لتعرف أنها رسالة.

دسّتها في جيبها. خرج مهرولًا، كأن سقفًا ما سينهار فوق رأسه، منفعلًا كقطرة ماء في مقلاة زيت!

والزَّوبعة يسأل: ما لُه؟!

وحنّون صامته، ترتجف فرحًا.

***

لم تسأله: هل أنتَ الذي كتبتها؟

- أنا هذه البنت التي في القصيدة؟ سألتْه.

هزَّ رأسه كنعم. وسأل: أعجبتْكِ؟

أمسكته من يده وأدخلته إلى الحوش.

- أمّي ليست هنا.

تبِعها.

- أعجبتْكِ؟

قبّلَته.

همست: طرتُ فَرَحًا.

وأطارته قبلتُها.

وطار ثانية وعاشرة حين فكر بالعلاقة الغريبة بين قصيدته وقُبلة حنّون والطيران.

وأحسّ بشوق عارم للبياض.

***

قال خليل:

أبي قرر أن يفتح دكانا آخر قرب المدارس. ولم يكن الصغير بحاجة أن يسأله: ومن سيجلس في هذا الدكان؟

وتبادلا صمتًا طويلًا..

- بإمكانك أن تأتي لتتسلّى. قـال خليـل. وهمـس: كـلُّ بنـات الحـارة يـأتين للدكان.

- والمدْرسة؟ سأله الصغير.

سأجلس هنا بعد الظهر فقط، وأمّي ستجلس صباحًا، وحين يكـون الـدوام مسائيًا أجلس صباحًا.

طاف الصغير في المخيّم طويلًا، لم يجد أحدًا..

فعاد إلى الدّكان..

6

فُتِحَ باب التَّطوُّع. أعلنت ذلك الحكومة، هبَّ الناس بحثًا عن المراكـز التـي حدّدها البيان، للحصول على السلاح، لم يجدوها!

وقالت الحكومة: الأسلحة وزّعتْ على الأهالي.

حدّق الأهـالي في أيـديهم، وجـدوا أيـديهم فقـط، وتأكَّـد لهـم أن نظـرهم لم يخدعهم. ما إن اشتعلت الحرب، ما إن دوّت "زوامير" الخطر، ما إن بدأ المذياع يهـدر: (اصـبروا وصـابروا ورابطـوا، اقتلـوهم حيـث وجـدتموهم، بأيـديكم، بأظافركم، بأسنانكم!!)

***

حاملا (فَرْشَ) العجين، مُبتعدًا بتثاقل، باحثًا عن أبيه الذي اختفى، بين ليلـة وضحاها، سار باتجاه الفرن. ولم يكن قَطَعَ نصف المسافة حين أغارت طائرتـان، حين انطلقت القذائف المضادة، حين انفجرت مُخَلِّفَةً بُقعًا من الـدّخان الرمـاديّ في تلـك الظهـيرة الزرقـاء. قَبَـعَ بجانـب أحـد البيـوت، مـرَّت رصاصـة مـن رصاصات المضادات الأرضية قرب أذنه، أحسّ بها ملتهبة، وربما لم يكن مـا مـرَّ غير صوتها.

ارتفع عمود دخان من المطار، أعقبه آخر، المطار المدنيّ ـ العسكريّ في ماركا، وعادت الطائرتان طائرتَين: أهذه هي الحرب؟!

وفكَّر: الحرب سهلة. الحرب عمودا دخان، ومذياع!

ووصل الفرن. لم يجد الفرّان، كانـت هنـاك رائحـة عجـين فاسـد، مُحَمِّـض، وبعض نساء يشتمن. عاد بالفَرْش.

أشعلت أمّه النار بأحذية قديمة، بقطع أخشاب، وأَحْمَت الصّاج، وخبـزَتْ مريم.

***

تساقط البشر على بوابة بيتهم، بيتهم الصغير، عشرات من الأقارب تساقطوا كطيور السُّمَّن، طيور السُّمن التي تقطع البحر وترتمي مُنْهَكَة علـى الـشواطئ أو في شباك الصيادين.

قالت أمّه الحكاية التي يعرفها قبل أن تقولها: كنّا نسير، تلاحقنـا الطـائرات، تُلقي "الكيازين" – براميل تتفجّر فتحرق الشجر والحجـر، يتمـوّج الـشاطئ، فنمشي معه، يستقيم فنمشي معه، من الشمال إلى غزة قطعناها مشيا في الـ 48. كنا مهاجرين، وكانت طيور السّمن مهاجرة، طيور سـمّن تـصطدم بنـا، فنُمـسكها بأيدينا، طيور مُتعبة قطعت البحر كلّه، وأكلناها، أكـلَ المهـاجرُ المهـاجرَ، وبهـا عشنا حتى وصلنا غزّة، قبل أن نذهب إلى الخليل.

ولم يَكُن في السماء طيور هذه المرَّة.

***

تحت غبار الحرب فتّشوا عن وجوه يعرفونها، عـن أخبـار، ولم يكـن يعـرف عمّن يبحث في هذا الفتات الآدميّ من الشرود والإنهاك.

امتلأت المدارس عن آخرها..

- إذا رأيت جدّك قلْ لي، أو جدّتك، فاهم؟

ووصلت طلائع الجيوش إلى العاصمة.

الجيوش المُنسحبة. بعضها صعد بشاحناته العـسكريَّة طلعـة سـوق الخُـضَار باتجاه المخيّم، انعطف نحو شارع "مأْدَبا"، أوغل بعيدا في الـصّحراء، وبعـضها توقّف في منتصف الطريق بعد نفاد الوقود.

كلُّ العيون في الأرض.

ووحدها بيانات الإذاعات تخترق الأثير، تزّف كلَّ خمس دقائق أنباء إسـقاط مزيد من الطائرات، الطائرات العدوَّة. وكل ثلاث دقائق أنباء تـدمير رتـل مـن الدّبابات!

وعلى بعد 4 سم من إذاعة عمّان، كانت إذاعة "صوت العرب" تعلن موافقة المشير "عبد الحكيم عامر" على سحْب الجيش النظاميّ ودعوة الأهالي للمقاومة الشعبية!

***

على باب مدرسته توقّف.

مدرسته التي ما عاد الصغير يعرفها.

تحلّق الناس حول رجل في الخمسين، يسألونه سؤالًا واحدًا، ويجيب عن كلّ الأسئلة:

- قال لي الولد: إصحا يابا، اليهود وصلوا البلد، قلت له: مجنون، ارجع لنومك، كيف يصل اليهود البلد وليس هناك صوت رصاص؟ الحرب ستقع، أيْ نعم، لكن الحرب طائرات، و "قاهر" و "ظافر". يا حبيبي، عندما تندلع الحرب، هم الذين سيكتشفون أننا أصبحنا فوق رؤوسهم، نمْ، نمْ، يا جاسوس.

ولاحت الدبابات بأنجمها السداسيّة.

قلت: انظر كم نحن أذكياء، انظر إلى قدرتنا على تمويه دبّاباتنا بصورة متقنة، نم يا ولد، نم، غدًا ستتناول إفطارك في بيتك القديم في "حيفا".

وحين مرّت الطائرات، الطائرات القادمة من الغرب، بأنجمها السداسية، قلت: انظر، ضربوا وعادوا.

ولكنّه قال لي، ابني، الجاسوس: يابا الطائرات ضربت وعادت، أمر الله، لكن الدبابات تتّجه شرقًا.

قلت: لو كانوا يهودا لأطلقوا النار علينا، لماذا تمرّ الدبابات من طرف القرية دون أن تُطلق النار وتقتلنا؟

قال: لأنه لا يوجد جيش يُطلق النار عليها، وستُنهي مهمّاتها وتعود إلينا.

قلت: ولد جاسوس، طابور خامس، طابور خمسين. هذه الحرب قامت لننتصر لا لننهزم، ولو كانت هذه الدبابات إسرائيلية يا جاسوس، لرأيت مذابح "دير ياسين" و"قِبْـيَة" و"الدَّوايْمِة" في الشوارع. لرأيت الدّم.

ويلتفت إلى وجوه الناس: كلّكم أصبحتم جواسيس، كلّكم. تصوّروا واحد قوّاد يقول لي: إصحا يا عمّي، أنت في عمّان. جواسيس، مش قلتلْكوا؟!

***

مال الزَّوبعة باتجاه أمّ حنون..

- قال "الظَّافر"، "القاهر"، "بأسنانكم، بأظافركم"! ولوّ، من الظّافر نـزلنا دفعة واحدة إلى الأظافر، ولوّ، هل تفهمين شيئًا؟

- لا، لا والله.

***

هادرة سحابة النار في جوف الفرن، سحابة مسعورة تتشبَّث في حَلْقِهِ، منبسطة على امتداد الأرغفة الدّاخلة الخارجة.

موجات البشر لا تمنح العجين فرصة لكي يتنفَّس، تسدّ باب الفرْن، والفرّان يصرخ: من شان الله خلّو الهوا يدخل.

فيتزاحم الناس أكثر.

كلّ الأشياء يمكن الاستغناء عنها إلاّ الخبز.

تكاثرت الخيام حول المخيّم، في ساحاته، وأحواش دُوْرِه، في مدارسهِ، ولم يكن هناك سوى فرنه.

واحتار الزَّوبعة حين رأى كل هذه الجموع تتزاحم في بابه. أفَرِحٌ هو أم حزينٌ؟ الرَّكضُ المتواصل لتلبية حاجة الأيدي الممدودة ينهكه.

اثنان من الذين قطعوا النهر شرقًا، قالا له: نساعدك، كنّا عمّال أفران. وساعداه وساعدا نفسيهما. وبعد أسبوع، أسبوع واحد من الهزيمة، دخل بوّابة البيت باكرًا على غير عادته ونثر رزمة هائلة من الأوراق النقدية في فضاء الغرفة، لكنّه لم يكن ينثرها كالمرّة الأولى.

- كل هذا من الفرن؟ سألت أم حنّون.

ولم يجب، انطفأ فرحه الحزين فجأة. أبعدت حنّون الأوراق النقدية عن لحافها واندسّتْ بعيدًا في الظلمات.

وبكى الزَّوبعة.

***

- يا خسارة رجْليكِ الحلوات يا "ثُريّا"، يا خسارة رجليك الحلوات. بكت ثُريّا وهي تتأمّل قدميها، الشّقوق الممعنة فيهما، بكت كما لو أن الأمّة لم تخسر في هذه الحرب سوى قدميها!

عيسى، كان أمامها، وفوق رؤوسهم تحلِّق طائرات مجنونة، يتوقّف، ينتظرها.

- والله لن يكون سبب موتنا غير كيس الشَّحم هذا.

فتردُّ: وماذا أفعل؟ الصحَّة من عند الله!

ألقى بجسده في مواجهة العربة، العربة التي لم يملك سائقها إلّا أن يتوقّف.

- قِلّةُ موت حتى تموت دهسًا تحت عجلاتي وتُخَرِّب بيتي؟ صرخ السائق.

- من شان الله خذنا معاك.

ولم يكن قلب السائق ليحنّ، وقد رأى آلاف المصائب عبر الطريق. لكنّه التفتَ إليه وقال: ربّما أستطيع أن أحمل أمَّك رأفة بها، لكن لا مكان لك أو لإخوتك.

وكان يشير إلى ثُريّا، ثُريّا التي رمتْها دهونها بشيخوخة مبكرة.

ابتلع عيسى الإهانة: خذها.

وأطلّت فجأة على بوّابة البيت.

- أين زوجك وأولادك؟ سألتها عائشة.

- تركتهم خلْفي!

عند ذلك تذكَّرت رجليها، اقتعدت الأرض، حدّقت فيهما وراحت تبكي.

ولم يكن هناك من يسألها: لِمَ كل هذا البكاء.

لأنّ الجميع كانوا يبكون.

لكنّها فاجأتهم كلّهم حين راحت تولول:

- يا خسارة رجليكِ الحلوات يا ثُريا، يا خسارة رجليكِ.

5

انتصبتا في الحوش..

خيمتان داكنتان تميلان إلى خُضرة متعَبة..

واحدة بعمود والأخرى بعمودين.

واطئتان ومعتِمتان كجحر..

أحاطتا بخيمة مريم، خيمة مريم التي لم تعد خيمتها وحدها. مريم التي بكت: كنت أعتقد أن اليوم الذي سأهجر فيه الخيمة ليس ببعيد، وإذا بالخيمة تنتظر خيمة جديدة.

ومرَّ وقت طويل، قبل أن يغدو المشهد مألوفًا لمن في البيت.

ومريم قالت: أسوأ ما يحدث لنا أن يغدو المشهد مألوفًا، حتى خيمتي التي كنت أعتقد أنها المشهد غير المألوف، أصبحت مألوفة، وأنا التي أصبحت غير مألوفة. انظروا للمجنونة التي تنام في البَرْد، في الحرِّ، انظروا للمجنونة التي لم تزل تحلم الحلم نفسه عشرين عامًا.

ضيّقًا أصبح الحوش، تزاحمت أوتاد الخيام فلم يعد هناك مجال للمرور بينها، واختفى في الركن "خُمّ" الحَمَام تمامًا.

- هذا ما حدث لنا عام 48. قالت عائشة لأبنائها حين ضجّوا، حين لم يجدوا غطاءهم أو لقمة خبزهم.

وعائشة تحمد الله: حمدًا لله أنّ الدنيا صيف، حمدًا لله!!

وظلَّ الحوش يضيق، يضيق كلَّ يوم، بأشياء هامشية حملها جدّه وزوجته وأبناؤه معهم، وحملها عمّه. لم يكن بإمكان ثريّا أن تندسَّ في خيمة "الزَّعموط" ذات العمود بسهولة، بما تجرّه خلْفها من أولاد يركضون حولها كفراخ البطِّ

بألياتهم المبتلَّة باستمرار، ثريّا التي كان يمكن أن تصمد بها ادخرته من شحوم إلى يوم القيامة دون أكل أو شرب، ثريّا التي لا تتعب من طلب الطعام، ثريا التي لم تكن تتوقّف عن التأفف أبدًا. أيّ جهد بذلته هاتان السَّاقان، حتى استطاعتا أن توصلاها إلى هنا؟

كان الصغير يسأل نفسه: ساقان ضخمتان بكعبين متفسِّخين يمكن لعصفور "الفِسيسي" أن يختبئ في شقوقهما بسهولة.

ثريا، التي عاتبت الصغير أكثر من مرّة بسبب عدم تلبيته لمطالبها المتكرِّرة، ثريّا التي قالت له: أقبل المعاملة السيئة من الجميع، أما أنت فلا، أنت الذي كان يمكن أن تكون ابني!

حدّقت مريم في وجه ثريّا، حدَّقت عائشة في وجه مريم، وحدّق الصغير في الوجوه الثلاثة، ودون كلام أبتعد، لم يسأل: ما الذي يحدث؟ ولم تحاول أمّه أن تُفسِّر له شيئًا، لأنها تعرف أنه يعرف أكثر منها. أمّه التي كفّتْ عن امتحانه في الذِّكريات. أمّه التي أصبحت تنسى، وتنسى ثانية ما إذا كانت قالت له كلَّ ما يعرف في ليالي وحدتها أم لا.

***

مكتفيًا بالجُمَل الصغيرة بينه وبين أبيه، فَرِحًا بتنفيذ أوامره. كان يمشي معه كظلِّه، بعينين شاخصتين إلى ملامحه، الصغير الذي أحبَّ أن يكون هذا الأب أباه وليس سواه. الصغير الذي لم يفعل، ولن يفعل ما فعلته حنّون، حنون التي قالت لها بنات صفها اللواتي كُنَّ يحملن صور آبائهن: لِمَ لا تُرينا صورة أبيك؟

حنّون التي احتارت، ولم تطل حَيْرتها، حين حملت صورة عبد النّاصر في اليوم التالي وقالت: هذا أبي. وتركتهنَّ يتهامسن خلْفها غير عابئة بأي شيء. لكنّها عادت وخافت صبيحة اليوم التالي حين التقتْهنّ، إلّا أن كل شيء كان طبيعيًا وعلى حاله، حتى حين عُدْنِ للكلام عن صور الآباء، حتى حين قالت حنّون: لا تستطيع أيّ منكنَّ أن تُنكر أن أبي هو الأجمل، فوافقنها.

***

طَرَقَ بابَ حنّون.

– أنتِ أكبر منّي. هل تغيّر أبي كثيرًا منذ "جبل النَّظِيْف"؟

- لا أعرف، لا أستطيع أن أقول لك لأنني لا أعـرف. يهيّـأ لي أنـه هـو هـو. وصمتتْ. أمي لن تأتي قبل المساء، ادخُل.

دخل.

ألصقا ظهريهما بالحائط.. بشمس حزيران السَّوداء.

مدّت يدها، تناولت يده، عصرتْها. كان شاردًا فَهِمَتْه: يلعن الشَّركة، ويلعـن الحكومة!

- يلعن الشركة، ويلعن الحكومة. ردَّد وراءها.

مالت عليه وقبَّلته.. مثلما كان ينفخ في فم العصافير..

مثلما يفعل "عبد الحليم حافظ" مع "آمال فريد" في الأفلام.

سألته: كتبْتَ؟

فَرِحَ أنها سألتْه.

قال لها: أغمِضِي عينيكِ.

ولم تُغمضهما في البداية.

- خايف تعلم إشي!!

- لا تخافي.

وأغمضتْ عينيها متمنّية أن يفعل الشيء الذي حذَّرته من ارتكابه.

ذُهلت حنّون حين سمعته يُقلِّد العصافير.

غرَد، حتى أحسّت نفسها في غابة، فتحتْ عينيها مأخوذةً.

- أنت تستطيع كل هذا، أين تعلَّمتَه؟

- من العصافير، العصافير التي أعرفها.

صمتَ.

- وأستطيع أن أُقلّد أصوات العصافير التي لا أعرفها، التي لم أسمعها في أيّ يوم من الأيام!

- كيف؟

استلّ مجلة مطويّة من جيبه، مجلة أجنبية ملوّنة، كان اشتراها بقرش مـن بـائع رصيف، مجلّة تضّم صورًا لمئات العصافير.

- هل رأيت أيًّا من هذه العصافير هنا ذات يوم؟

هزَّت رأسها: لا.

- أنظري إلى هذا.

ووضع إصبعه فوق صورة طائر (الجنَّة) وبدأ يُغرّد.

قالت: أهكذا صوته فعلًا؟!

- أكيد!

وضع إصبعه فوق صورة "نُحامة" وقلَّد صوتها.

ضحكتْ: لا يمكن أن يكون صوتها هكذا.

- لماذا؟

- لا أدري.

- ولكن انظري، يجب أن يسير غناؤها عبر رقبتها الطويلة، ثمّ إلى منقارها الواسع الكبير..

- أنتَ تُشَنِّع عليها! وكانت تضحك.

- وحين تلتهب لوزتاها، تغنّي هكذا! وأصبح صوته عريضًا أجَشّ.

وضحكتْ: أصلًا ليس للعصافير لُوَز!

- ومن قال لكِ ذلك؟

- لا أحد، ولكن ليس لها لُوَز، أعرف ذلك دون أن يقول لي أحد.

وضع إصبعه على صورة "سَمَرْمَر" وغرَّد، وعلى صورة "سُمَيْطر" وغرّد، وعلى صورة "شَرَقْرَق" وغرّد! فأغميَ عليها ضحكًا.

- ستنتقم العصافير منك، ستأكل لسانك يوم القيامة.

وحين بدأ بتقليد صوت "الغَرْنوق" لَفَحَها سحرٌ مفاجئ، وأصغتْ كما لم تصغ إلى أيِّ صوت. وحين انتهى قالت: أنت تعرف صوت هذا فعلًا، لا يمكن إلّا أن تكون سمعته!

- أبدا والله، لكنني أحسسته، أنظري إلى ذيله الذي يلمس الأرض، وعنقه المرفوع إلى السماء، أنظري إلى رأسه، منقاره، وعينيه!

- أَعِد غناءه.

-خلاص.

- عشاني!

وعاد يُغرِّد.....

وحين انتهى قالت: لم يُغرّد هكذا في المرَّة الأولى.

- في المرّة الأولى كان فَرِحًا، أما الآن فهو حزين!

4

حدَّق في الحسّون الواقف على العود.. الحسّون المُحَنَّط في منتصف القفـص.. ثمة أمرٌ غريب يحدث.

حسّونُه "المُنادي"، هل أخافتْه قطةٌ، أم أخافه إخوته؟

أنـزل القفص.. لم يتحرَّك العصفور.

أيكون جائعًا، أم أنه لا يريد الأكل؟

مدّ يده عبر بوابة القفص، لم يتحرَّك العصفور.

برؤوس أصابعه تحسّس حبات "القُمْبُز"[18] فلم يجد سوى قشرها.

تجاوز حبال الخيمات الثلاث: أريد قرشين، قال لأمّه.

- لماذا؟

- لكي أشتري "القُمبز" للحسّون.

- اذهبْ! اذهب الله يرضى عليك، إذا كِنا غير قادرين الآن على إطعام البشر، فكيف سنطعمُ العصافير. أَطلِقْه يأكل من رزق ربّه!

أفرَحَه أنّ أمّهُ لم تقلْ، وللمرَّة الأولى، اذبحه ودع إخوتك يأكلونه.

- ولكنني أحبّه.

- أطلِقْه إذن.

- لا.

ركض باتجاه الدّكان وجد (خليل) هناك.

- أريد قرشين.

---

[18] - نوع من الحبوب يقدم للعصافير التي تعيش في الأقفاص.

- لا أستطيع، أبي سيلاحظ ذلك، ولكن لماذا؟

- الحسّون، "المُنادي" على وشك الموت.

- لو كان لديّ "قُمبُز" لأعطيتك، لكن بالنسبة للقرشين لا أستطيع.

وراح يركض.. تمامًا مثلما كان يركض أيام كان يتمرَّن مع خليل ليصطادا بالفخّ. يركض كما لو أن أعناق العصافير كلّها محشورة بين فكي فخ واحد، فخّه..

ولم يكن خليل معه.

كان ظلّه الرّاكض، ظلّه وحده، باحثًا عن حلّ، وجده، انعطف إلى سوق الخُضَار المركزي، أبصر سيّارة بطيخ، اقترب من السائق:

- تريدون إنزالها؟

- اسأل صاحب البطِّيخ.

- أينه؟

- هناك.

لاهثًا كان.

سأله صاحب البطّيخ بعد أن تأمّله: تستطيع؟

- أستطيع.

- اصعدْ إلى ظهر السيارة.

... تحرَّكت السيارة تجأر تحت وطأة حمْلها الثقيل، في الصّعود المؤدّي إلى المخيَّم، ولم تكن المسافة طويلة، انعطفت إلى شارع مأْدَبا، خفَّ صوتها، وبدت أكثر قدرة واطمئنانًا للوصول بحملها إلى المكان الذي تقصده. ازدادت سرعتها، هدأت، استدارت نحو شارع جانبيٍّ، توقّفتْ، نزل السائق، رفع غطاء المحرِّك ليُتيح للهواء فرصة العبور لتبريد حرارة المعدن الملتهبة.

تقافز الأولاد من فوقها، وبدأ البطيخ يُحلّق في الفضاء كعصافير خضراء سمينة بلا أجنحة.

يعرف الصغير أن إنزال سيارة بطّيخ كبيرة لا يتّم بالسُّرعة التي كانوا ينزلون بها البطيخ من إحدى سيارات "البك اب" الصغيرة.

كانت البطيخة الكبيرة تندفع باتجاهه، وكان يتساءل: هل عليَّ أن أغضب على خليل؟ على أمّي؟

وتذكّر حنّون: لماذا لم أذهب إليها، وحدها التي لا تردّني خائبًا، أعرف ذلك، لماذا لم أذهب إليها؟

والبطيخ يطير في الهواء، كان، عصافير ميتة، بلا أجنحة، العصفور الميْت ليست له أجنحة، والبطّيخ يطير في الهواء.

أفلتتْ بطيخة من بين راحتيه، وصلتْ صدره، دفعته إلى الخلْف، استنفر صاحب البضاعة، انقبضت أصابعه، ولم تنكسر البطيخة، ظلتْ تدفعه بقوة جنونها حتى ألقته على ظهره. وهناك وجد نفسه تحتها غير قادر على الحركة.

واحد، اثنان، ثلاثة. كأن المصارع "ماك ملنس" قد ثَبَّته.

وانفجر الضَّحك دفعه واحدة.

دار عقله في رأسه، ولم يجد سوى أن يضحك هو الآخر ليطفىء ضحكهم، لكنّه لم يستطع أن يضحك طويلًا.

باهتة صعدت ابتسامته إلى شفتيه، وحين انتصب ثانية يتلقى البطيخ، سالت دمعتان تحفران خذيه.

***

لاهبة انتشرت الظَّهيرة بين البيوت.. بين أوتاد الخيام وحبالها، الخيام المترامية على أطراف المخيّم.

وهو يركض.

مرَّ بعدد من حقول القِثاء المترامية بين مستشفى الأشْرفيَّة والمخيّم، مجتازًا أكثر من حائط لعبّاد الشمس. اندفع أصحاب الحقول خلفه، ولم ينتبه الصغير. ليس أمامه سوى القفص، العصفور في الفخ: اركض، التفت إلى خليل وجده يتباطأ: اركض.

ولم يكن هناك بُدٌّ من أن يمرّ بالبيت، البيت الذي يقع في منتصف المسافة. واشتدّت قبضته أكثر على القروش العشرة.

عَبَرَ بوابة البيت.

كلُّ شيء على حاله..

الخيام تعجُّ بالحركة.

- هل غنّى الحسّون؟! سأل أمّه: هل سمعتهِ يغنّي؟!

- على إيش بدّو يغنّي، هل هناك من يُغنّي هذه الأيام؟!

- أحسّ بحرج.

أنـزلَ القفص، لم يتحرَّك الحسّون، لم ينظر إليـه. فـتح بـاب القفـص، وظـلَّ العصفور ساكنًا، حجرًا فوق العود. أمسكه بأطراف أصـابعه، وفجـأة أدرك أن هذا الجسد لا يمتُّ بصِلةٍ لغناءٍ ذلك الحسّون في أعلى شجرة السَّرو.

وعندما فتح يده، لم يتحرَّك الحسّون، أعاده للعود..

- هل أحضرت ما تشتري به القُمبز؟

فتح يده دون كلام، فالتمعت قطعة العشرة قروش، فشهق إخوته وأخواته.

- اشتر لعمَّتك الصغيرة أسبرين، فهي مريضة.

ولم يعرف، لم يعرف إن كان عليه أن يترك العصفور أو أن يأخذه معه. ولكنـه وجد الحلّ في النهاية. أمسك بقطعة من سِلْك، وشَـبَكَ بـاب القفـص بواجهتـه بحيث يبقى مفتوحًا.

وقبل أن يبدأ ركضه باتّجاه دكان "اللدّاويّ" التي تحتكر بيـع القُمْبُـز، ألقـى نظرة أخيرة على العصفور، وهزّه أن باب القفص المفتوح وقطعة السماء الزرقـاء لا يثيران شهيّة أجنحته!

***

عَبَرَ ممرّات صغيرة، عبر شوارع مغبرة، وأناسًا مغبرِّين، يرتطم بأكتافهم، عبر العربات الصغيرة للباعة، راح يركض، يخبّ في البؤس المنتشر والذّهول، ذهـول بشر يواصلون المسير حتى وهو يقتلع أكتافهم باندفاعته، ولا يشتُمون.

ماذا لو عرف أحدهم أن كلَّ هذا الركض من أجل حسّون؟

هل سيضربه عندها؟ أم سيُطبِق على عنقه وينتزع القروش من يده؟

في باب الدكان كان يقـف، لكنّـه لم يـزل يـركض في مكانـه، تنـاول الكـيس الصغير المليء بالقمبز، تناول حبّات الأسبرين وعاد.

هل أصبح الشارع كتلة واحدة، بحيث لم يعد الصغير قادرًا عـلى اختراقهـا؟ مال إلى شارع جانبي ليتلافى الزّحام، ركض في أزقّة موحلة بقنواتها، وبـساحات

تموج بالتَّعب. اجتاز بوابة بيتهم، انعطف باتجاه القفص، حدَّق، لم ير العصفور، إنتابه إحساس غريب، فَرَحٌ طاغٍ.. رقصَ: الحسّون طار! الحسّون طار! الحسّون طار!

التمّوا عليه: أين الأسبرين؟ سألت أمّه.

ناولها إياه.

- الحسّون طار، طار، طار.

وباغته صمت الجميع حوله. اندفع إلى القفص أنزلَهُ، وهناك وجد الجثّة الصغيرة منكمشة على نفسها كدمعة متحجِّرة.

عندها صرخ الصغير. صرخ كما لم يصرخ في أيّ يوم من الأيام، وهناك، في أعماقه تكسَّر زمن كامل.

***

مُستَنَدًا إلى جدار منخور، بين رجليه القفص، وفي مخيلته تتفجَّر كل أساطير الأجنحة التي حاكها. تكوَّم هناك، ووجهًا لوجه وجد نفسه مع عصافير الكناري وطيور الحُبِّ، والببغاوات التي ظلَّت تُحيّره، حين كانت تجد فسحة وتنطلق من أقفاصها نحو الفضاء وتعود مساء. كان يتساءل، ويسأل أمّه، يسأل خالته مريم: لماذا تعود عصافير الكناري وطيور الحب إلى أقفاصها بعد أن تُصبح حرّة؟

وتردّ مريم: هذه عصافير غريبة، ليست من بلادنا، تطير، ولا تجد أحدًا تعرفه، فتعود.

- ولكن لماذا لم يطر الحسّون؟

كان يهذي، ويطحن حبّات القُمْبُز تحت أسنانه. حاولت أمّه أن تسحب الكيس الورقيَّ من بين يديه، قبض عليه بقوّة بصورة مفاجئة، تبعثرت حبّات القُمبز على الأرض، اندفع باتجاهها يلمّها. وأخذته موجة بكاء.

مالت أمّه حانية، أمسكت يده.

- (...) تعال يا حبيبي.

التفتَ حوله بحثًا عن ذلك الذي تدعوه أمّه، ولم يجد سواه، فنهض.

3

عادت البنت الفدائيّة للظهور. عادت حنّون للقائها، غموض وحَيطة، ترقّبٌ وفَرح، انفعال خفيٌّ، ولون آخر يتفتَّح في الثياب المدرسيّة الخضراء.

وبعد قليل..

اكتشفت حنّون أنها أصبحتْ في تنظيم فدائيٍّ آخر دون أن تعلم، فالبنت الفدائية تركتْ التنظيم الأوّل، لكن الاجتماعات ظلتْ نفسها، والوجوه نفسها. وحين عرفت الصغيرات ذلك لم يبدُ عليهنَّ أيّ اعتراض.

***

خال حنّون لعبَ الدَّور الأساس في دفع أمّها للموافقة على دخولها العمل الفدائيّ علنًا.

حاول الزَّوبعة أوّلًا، لكنه لم يستطع، فاستعانت حنّون بخالها. وفي ليلة أوشك فيها النهار أن يطلّ، ظلّ الزَّوبعة وحنّون جالسَيْن في حوش الدار، وخالها يناقش أمّها، إلى أن خرج في النهاية وقال: مبروك، أمّك وافقت!

***

أم فؤاد قابلتْ حنّون في الطريق: هل صحيح أنك أصبحتِ مع الفدائيّة؟

ولم تكن حنّون بحاجة إلى أن تجيب وهي ترتدي اللباس العسكريّ.

- انتبهي، هؤلاء الفدائيون يأخذون البنات والأولاد ويذبحونهم قرب سكة الحديد.

وظلّت حنّون صامتة. ولكنّها حينما ابتعدت مع أمّها قالت: يلعن أبوها، شفت الصهاينة في عينيها!

2

تبرَّعت مريم بخيمتها لمعسكر الأشبال.

وقالت: هناك ستهترئ سريعًا.

معسكر الأشبال الذي انتشر محاذيًا لمستشفى الأشْرَفِيَّة. هناك ركضوا، وهناك حملوا الأسلحة الرّشاشة وأطلقوا النار.

وحين جاء أبو فؤاد مساء، يسأل عن فؤاد الذي اختفى، كان كل أولاد الحارة هناك في المعسكر.

- مَنْ هناك؟! صاح سعود.

- أنا، أنا أبو فؤاد.

- كلمة السِّرّ.

- أيّ سرّ؟

- كلمة السرّ، قُلْها، وإلاّ سأُطلق النار.

- لا أعرفها.

- انبطحْ أرضًا.

وقرفصَ أبو فؤاد.

- قلت انبطح أرضًا. جاءه الصوت آمرًا.

وقرقعتْ أقسامُ السلاح في هدأة الغروب، فانبطح أرضًا.

- ازحف.

وزحف أبو فؤاد، وقلبه يتقطع على قمباز (الرُّوزا) الذي يلبسه، زحف دون أن يجرؤ على رفع عينيه، إلى أن دخل خيمة قائد المعسكر، القائد الذي صرخ في وجه سعود: ما هذا الذي تفعله؟ ألا تعرف هذا الرّجل؟!

- لا أعرف سوى الأوامر، الأوامر تقول لا يـدخل المعـسكر إلا مَـن عـرَف كلمة السرّ، ولم يعرفها.

حاول أبو فؤاد رفع رأسه إلاّ أن (سعود) صرخ: لا تتحرَّك!!

- أبعد سلاحك. أمره القائد.

- على مسؤوليتك! قال سعود.

- على مسؤوليّتي. ردّ القائد.

وانفجرت خارج الخيمة عاصفة الضَّحك حيث الأولاد يراقبون المشهد.

1

أمسك الشرطي سعود من قَبَّة بدلته المرقَّطَة، وصاح: ما هذا الذي تلبسه يا قوّاد؟!!

وسحبه باتّجاه المخفر.

رافصَ سعود، تَفَلّتَ، لكن كلَّ قوّته لم تكن كافية لفكّ القبضة التي انغرست أظافرُها في عنقه.

ركض الصغار باتجاه بيت سعود، طرقوا الباب، أولاد كثيرون: الشّرطة أخذت سعود.

- ستريحنا منه. ردّ أبوه.

- إنهم يضربونه. لم يفعل شيئًا هذه المرَّة، والله. لم يفعل شيئًا.

- فليسلخوا جلده! قال أبوه.

وأغلق الباب في وجوههم.

***

ركضوا إلى بيت الصغير، سألوا عن أبيه لم يجدوه. عن عمِّه لم يجدوه، عن جدّه لم يجدوه.

- من شان الله يا خالتي، تعالي، الشّرطة أخذتْ سعود لأنه يلبس بدلة الأشبال.

احتارت مريم، كيف تدخل امرأة إلى مخفر؟ ارتبكت، لكنّها تناولت غطاء رأسها عن كيس الطحين، وأكملت انتعال حذائها في الحوش والشارع.

***

- مَن تريدين؟

- سعود.

هذا الأزعر القوّاد؟! لم تدر بماذا تجيب.

- نعم، هو!

- هذا ليس من اختصاصنا. مدير المخفر يحقِّق معه.

صعدتْ مريم الدَّرجات.

تبعها الشرطي.

- غير مسموح لك أن تصعدي هناك.

لم تلتفت، وظلّت تصعد، قرأت (المدير) دفعت الباب. أمسكها الشّرطيّ الذي أدركها من كتفها، شدّها، فانزلق غطاء رأسها وانتشرت جديلتان ذهبيّتان مُتعَبتان.

- شو في، ما هذه الفوضى؟!

وتقدَّم باتجاه الباب.

عمَّ صمت القبور.

- هذا الوجه أعرفه. قال.

- هذا الوجه ليس غريبًا. قالت.

وفجأة صرخت: "سَلْمان". "سلْمان" !!!

- مريم؟!

قالها مرتبكًا.

وصرخ الشّرطي بها: احترمي نفسك وتكلَّمي بأدب مع "أحمد بيك"!

- (أحمد بيك)!! منذ عشرين سنة أبحث عنك، وأنتظرك، وأنت تحتَ رجْلي هنا، منذ عشرين عامًا يا أحمد بيك.

..حبستَني هنا، ودقَّتْ صدرَها، حبستَني هنا عشرين عامًا. حبستَني مثلما تحبس هؤلاء الناس وأكثر، إخصْ. تفو. لم يكن اسمك هو الكذبة الوحيدة، كل قدومكَ كان كذبة، كان علي أن أفهم ذلك من زمان.

حاول الشرطي أن ينهال عليها بيده، ردَّه مديرُه. أبعدتْه عن طريقها، شدَّتْ سعود المذهول من يده، سعود الذي لم يكن يُصدِّق عينيه، ولا أذنيه.

ونزلت الدَّرجات الداخلية خارجة به.

شهادة

- تعال.

نادى الشبلُ الواقف على بوابة المعسكر.

- تعالْ.

وأشار إليَّ أن أهبط. ذهبتُ إليه، لكنَّني لم أهبط. خفتُ، زوجة جدّي قالت: اربطوه من قدمه بخيط. قلتُ: ربما يُمسكني الآن ويربطني!

وأكدتُ له أنني لستُ دجاجة.

فقال لي: لا، أنتَ جبان.

فابتعدتُ. ذهبت إلى الفرن لم أجدها، إلى بيتها لم أجدها، طرتُ فوق معسكر (الزَّهرات)[19]، لم أجدها، بحثت في كل مكان، لمحتها في الشارع بعيدة، بعيدة جدًا عن بيتها، رأتني.

قلت لها: تعالَيْ، لكنَّها خافت، مددتُ يديَّ، وظلَّتْ خائفة، وقلت لها: لا تخافي، وارتفعتُ، ارتفعتُ، واندفعتُ ثانية باتجاهها هابطًا من أعلى السماء.

لا تخافي، أَتريْن، ليس ثمة خوف هنا.

فقالت: إنها بدأتْ تخاف عليَّ، وأن رأسي يُمكنُ أن يرتطمَ بالأرض وأموت.

قلتُ: وهل السُّنونو أشطر مني؟!

---

[19] - معسكرات (الزّهرات) لتدريب الفتيات، ومعسكرات (الأشبال) لتدريب الأولاد.

قالت: لا أنتَ أشطر منه، ولكن يلزمك أجنحة حتى تكون مثله.

فصرخت: ألا ترين أجنحتي؟!

فقالت: إنها تراها، ولكنَّها لا تريدني أن أرتفع هكذا.

وقلت لها: أُمّ العصفور قالت لابنها لا تنزلْ إلى الأرض، ربما تتعثّر وتنكسر رجلك. وأمّي قالت لي: لا ترتفع هكذا لئلا تقع وتنكسر رجلك. فمن أُصدِّق، أمي، أَمْ أمَّ العصفور؟ وقالت: انـزل. فقلت: وإذا انكسرتْ رجْلي مـن سيكون المسؤول؟ وأعادتْ: انزل. فقلت لها: أَنْ تنكسر رجلي هنا أفضل من تنكسر على الأرض وتوجعني أكثر!

وقلت لها: لا تخـافي، حتـى لـو وقعـتُ العـصافير سـترفعني قبـل أن أصِـل الأرض. وقلت: إن ظلّي يمكن أن يتعثَّر ويسقط، أما أنا فلا. وارتفعتُ. وقلتُ: تعاليْ معي للسَّهل، فلم تأتِ، وتبعتُها طائرًا إلى أن وصلتِ البيـت. قالـت: إنهـا خائفة وكانت السماء طريَّة..

وقلت لخالتي: الرِّيح جائعة هذا الصباح، فلم تُصدِّقني، والعـصفور انفجـرَ قبل الوصول إلى الفخ، فلم تصدِّقني، وقلت لها: الجبل لا يحمي أحدًا، والـسهل مقبرة. ودرتُ في الشارع، ولم تكـن الأرض تحتـي، حاولـتُ أن أنـزل أكثـرَ مـن مـرَّة، لم أستطع. أغرتُ عليهم وكانوا يجلسون وسط الحـوْش، التقطـتُ حبتَـيْ زيتون، وارتفعتُ، ولم تلحقني أمّي، وقالت ثريّا: لِمَ لا تضعونه في قفص؟

وكنتُ خائفًا.

وقلتُ لأبي: لا أريد حذاء، وألقيت بحذائي القديم لأولاد عمّـي وإخـوتي، فاندفعوا باتجاهه كل يريد أن يأخذه، وتقطَّع بين أيديهم، وفرحتُ، وقلـت: لـن توجعه الأقدام ثانية. وأشار إليّ أبي أن اهبط فابتعدتُ، وبحثتُ في الشوارع فلـمْ أجد أحدًا. كلّهم كانوا هناك، وقال لي الـشِّبل الواقـف ببـاب المعـسكر: تعـال. وكان خليل هناك يقف قربه.

وقلتُ للشبل: لقد أتيت.

فضحك خليل وسألني: ماذا تفعل هنا؟

فقلت: أنا لست جبانًا، الجبان هو الذي لا يستطيع أن يطير.

وقال لي الشِّبل: اقترب. فاقتربْت.

وقال خليل: إن أردت أن تكون من الأشبال فعليك أوّلًا أن تذهب إلى عصافيرك في السهل وتُحضر مُحّك من عندها!

فقلت له: إنني أحضرْتُه.

ولم يُصدِّقني. لكنَّهم قالوا لي: تعال. ودخلتُ الطَّابور، والمدرِّب يركض إلى جانبنا، وكنت أطير كلّما التفتَ إلى جهة أخرى، أو انشغل بشيء، لكنَّه ينتبه فيعيدني بصراخه إلى الأرض.

وكانوا يركضون، ويتعَبون، وضحكتُ: لا تضحك هنا. قال، لي المُدرِّب. وقلت له: خلاص، سأضحك هناك! وكانت عصافيري تتطاير في السهل، عصافيري التي تعرف الأولاد بفخاخهم ودون فخاخهم.

وسألني المدرّب: ألا تتعَب؟

فضحكتُ ثانية، فقال لي: لا تضحك هنا. فقلت: سأضحك هناك. وقلت له: إنني لا أتعَب لأنني أطير.

فأكد لي أنه سيعطيني أفضل رشاش في المعسكر. كان الأولاد يحملون "كارلو بورسعيد". فقال: سأعطيك "كلشِن". ولم يعجبني كلامه. وكان الأولاد يلهثون. سيول العرق تلمع بين عيونهم وأرجلهم تتأرجح تحتهم، والمدرِّب يصيح: جعانين؟

فيردّون: وحوش.

- تعبانين؟

- وحوش.

- عطشانين؟

- وحوش.

وسمعتُ حناجرهم تتشقَّق، طق، طق، طق. وصرخاتهم أيضًا.

- بردانين؟

- وحوش.

- شوبانين؟

- وحوش.

وكان المدرِّب مبسوطًا. ووقع أحدهم فصرخ فوق رأسه.

- تعبانين؟

- وحوش.

واندفع الأولاد أكثر في الظَّهيرة، عبْرَ الأشواك، بين الصخور العالية. الجنادب حولهم تفرُّ، والحراذين، والسَّحالي الكبيرة والفَراش، وعصافيري. وفي البعيد رأيت شبح طابور طويل، شاحبًا قرب سكة الحديد وسمعتُ صوتهم.

- تعبانين؟

- وحوش!

وتوقف المدرِّب، مدرّبنا، وأطلق النار فجأة. خفتُ، لكنني لم أعد خائفًا حين لمحتُ مسدسه مصوبًا باتجاه الأرض، وتفرَّق الطابور، وارتفعتُ أكثر فرأيتها هناك تدور حول نفسها باحثة عن رأسها فخفتُ، وبحثتُ عن رأسها فلم أجده؛ وكانت تدور حول نفسها وتبحث، والمدرِّب ينحني ويرفعها من ذنَبها، والحيّة تتلوّى باحثة عن رأسها، الحيّة في الفضاء ورأسها على الأرض في مكان ما، يختبئ، وقلت للمدرِّب: إنها تقول أنزلوني. فالتفتَ نحوي دون أن يفارق طرف عينه الجسد المتفلِّت غاضبًا. لا تريد شيئًا غير أن تنزل إلى الأرض وتأخذ رأسها، تأخذه حتى لو كان ميتًا، قلتُ له، الحيّة هكذا دائما، أمّي قالت لنا، وأعرف ذلك قبل أن تقوله لنا. ولم يصدِّقني.

- هنا لا نقاش، مفهوم؟ ولم أفهم، وظلَّ غاضبًا، مدَّ يده بالحيَّة باتجاهي: ستحملها حتى المعسكر عقابًا لك. وكان الأولاد خائفين، ولم أكن خائفًا من الأفعى، كنت خائفًا لأنها بلا رأس.

- خايفين؟

- وحوش!

وظلَّت الحيّة تتلوّى في يدي ويحدّق عنقها في رأسي: إن لم تقتُل رأسَها يتبعكَ الرأس وينتقم منك، الرأس يصلكَ مهما ابتعدتَ، حيثما كنتَ. أمّي قالت، وأنا أعرف وسأصدِّقها، لِمَ لا أصدّقها؟ صحيح أنها لم تصدِّقني، لكنني سأصدّقها نكاية بها.

وبحثتُ عن الرأس حولي، ولم يكن هناك.

- طابور.

- تعبانين؟

- وحوش!

والحية تتلوّى ولم تكن وحشًا.

- جعانين؟

- وحوش!

والحيّة ترتفع، ودمها لا يتوقّف عن الجريان، ودمي يجري، ويخابط في عروقي، يرفعني، يحملني بعيدًا باتجاه المعسكر، والمدرِّب يصيح: توقّف.

وأنا لا أريد أن أسمعه، ورأس الحيّة خلْفي، والأولاد يقولون للمدرِّب: هل صدّقتنا أخيرًا، ألمْ نقل لك إنه يطير. وكانت الحيّة في يدي ورأسها خلْفي.

- إلى السّارية هناك.

زعق المدرِّب، فذهبتُ وخلفي الأفعى.

ستقف هنا حتى المساء على قدم واحدة، وسأنظر بعدها كيف سأُعاقبك.

وذهبت إلى السارية، وكانوا خلْفي، أشبال الطابورَين.

- اصطدنا أفعى.

- اصطدنا سبعة عصافير.

وأوشكتُ أن أهوي وأرتطم بالأرض.

- المدرِّب اصطاد اثنين، والبقية اصطدناها نحن، لم نخطئ، كل الطلقات كانت صائبة.

وهبط المساء.

- إنه يقف في الهواء، انظروا.

وحاولوا أن يحدِّقوا ما استطاعوا، وكانوا مرتبكين بأعينهم وبي حين نادى المدرّب: تعال. وكنت أراه طوال الوقت يختلسُ النظر إليّ من باب خيمة القيادة.

حدَّق في وجهي وصاح: تعبانين؟

- طيور!

وضحك الأولاد، لكنّه لم يضحك.

عليك أن تقول: وحوش! فاهم؟

ولم أفهم.

وقال: سنعطيك اسمًا حركيًّا.

فصاح الأولاد: (اللامِي).

فقلت له: إن هذا اسمي من زمان.

ولم يضحك.

- لعصيانكَ الأوامر، لانفلاتك من الطابور، لكلامك قبل أن يُسمح لك بالكلام، سنعاقبكَ بأن تأكل من لحم الأفعى.

ولم أقلْ لا.

- أما العصافير فلأولئك الشّجعان الذين أثبتوا جدارتهم وشرَّفوا اسم الأشبال ومعسكرهم اليوم.

وصاح الأولاد: لا، أطعموه عصفورًا. وأوشكتُ أن أقع، أن أرتطم بالأرض. وقلت: لا، وبحثتُ عن وجه أتعلَّق به، عن وجه خليل، فؤاد، سعود الشرّاني، لكنّهم كانوا فَرِحين. ويصرخون:

أطعموه عصفورًا.

أطعموه عصفورًا.

- العصفور ليس لواحد مثله أبدًا. قال المدرِّب.

أطعموه عصفورًا.

وقلت: لا، وحاولتُ أن أرتفع، إلاّ أنهم أمسكوني.

- سآكل الأفعى. قلت للمدرِّب. سآكلها كلّها، أما العصفور فلا.

- جبان!

صاح المدرّب.

- وضعيف القلب أيضًا!

وصمت الأولاد.

- أطعموه الحيّة! قالوا.

- لا، سيأكل العصفور يعني سيأكل العصفور!

(أمسكني أحدهم منْ كتفي، رفعني عن الأرض، تأرجحتُ، قدماي في الهواء، والهواء أسود، وامتدّت يدان خشنتان كبيرتان إلى فمي، فتحتاه بقوّة

مجنونة، تفلّتُّ، بكيتُ، صرختُ، لكن رجلًا آخر أمسك بواحد من العصافير وراح يزجُّ به في فمي، صحتُ، ولم يسمعوني.

- كلْ.

دفعتُ العصفور خارجًا بلساني، التقتْ أعيننا، العصفور وأنا، وضغطتِ اليدُ، وظلّت تنزلق إلى أن أوصلَتْه هناك إلى المعِدة.

وتناولوا عصافير أخرى وراحوا يدفعونها داخلي، عبر أذني، عينيّ، فمي. وفجأة أفلتَ واحد من عصافيري وطار، فتركوني حيث أنا، وراحوا يركضون خلف العصفور وهم يصرخون: قلْ له أن يعود وإلاّ ستموت! إن لم يعُد قتلناك، فاهم؟ وظلَّ العصفور يبتعد، وهم يبتعدون؛ والأجنحة ترف داخلي ترفعني عن الأرض قليلًا، لا تنجح في التّحليق تمامًا، أقف، والأجنحة تتحرك، ترفعني عن الأرض، وتهبط ثانية، فأهبط).

والمدرّب يصرخ: اذهب، جبان، خسارة فيك أصلًا!

وأذهب، أبتعد، أرتفع، أنخفض.

- تعبانين؟

- وحوش!

- جعانين؟

- وحوش!

- خايفين؟

- وحوش!

ويخبئني الليل، فأدور في سماء المعسكر، هنا في السماء لن يمسكوني. ولحقني المدرِّب الذي فهِمَ الحكاية، نادى عليّ كأني أمامه، وكنتُ فوقه، يركض في العتمة يتعثّر مثل الأشبال، وحزنتُ عليه حين عاد ولم يجدني، وكنتُ سأنادي عليه وأقول له: إنني هنا، لكنني خفتُ أن يقول لي انزل.

ونام الصغار. وكنت هناك أدور في السماء.

وقال أحد المدرِّبين لمدرِّبنا: نحن بانتظارك!

- جهزتم كل شيء؟

- كل شيء، هجوم وهمي على المهاجع، مُعَدٌّ كما يجب.

- خايفين؟

- وحوش!

جاءني صوتهم من بعيد، وكانوا نائمين.

- هل سيجتازون الامتحان؟!

- لا ينقصهم شيء الآن، تعلَّموا كيف يردُّون أيَّ هجوم، ليليًا كان أم نهاريًا، كن على ثقة.

- إنهم مجرّد أطفال، لا تنس ذلك.

- كن على ثقة.

- ليكن.

- هيا.

- ألن تشارك معنا؟

- لا، سأراقب المشهد من هنا.

وراقبتُ المشهد من هناك.

انفجر الرّصاص، القنابل الصوتية، جُنَّت أَلْسِنَةُ اللهب في السّاحات الخالية، أمام الخيام المبعثرة، وارتفع الصياح فزعًا، وتعالى البكاء، كانوا يتعثّرون ببعضهم البعض، ويرتجفون، لم يصل أيّ منهم إلى سلاحه، وأكثرهم شجاعة، كان ذلك الذي استطاع أن يندسَّ تحت سريره ليرتجف رعبًا هناك ويبكي دون أن يسمعه أحد المهاجمين.

وصاح قائد المعسكر: توقَّفوا. فعمَّ الصمت، وكان أسود، وراح يركض صوب أبواب الخيام: هجوم وهمي، لا تخافوا، هجوم وهمي، لا تخافوا!!

والطَّلقات لم تزلْ تدوِّي في الفضاء وتعيد القنابل انفجاراتها.

وكان يصرخ: لا تخافوا ويبكي معهم!

وصدَّقتُهم حين قالوا ذلك. ولم يبق في المعسكر غير الشُّجعان الذين بكوا دون أن يسمعهم أحد. وقال المدرِّب: جبان، خسارة فيك أصلًا. وقالوا له: لن تستطيع اللحاق به لأنه يطير.

فلم يُصدِّق.

وحاولتُ أن أُحصي عدد العصافير التي تطير في بطني فلم أستطع، وكنتُ أكثر ارتفاعا عن الأرض من أيِّ يوم مضى.

وقلت لحنّون: تعاليْ نُعلِّم العصافير الحذَر. فقالت إنها ستذهب الآن لمعسكر الزَّهرات، ثم إن اسمها لم يعد "حنّون"، لكنني رأيتها هناك في السّهل، وقد سبقتني بفخاخها وجديلتها الذَّهبية، وعينيها.

وقلت للأولاد: إنها أسرع مني وأن العصافير لا تموت في فخاخها، فلم يُصدِّقوني، وقالوا: حنّون في الفرْن. فقلت: إنها في السهل.

- في الفرن.

- في السهل.

- في المعسكر.

- في السهل.

وكانوا في السهل، يطلقون النار. ناديتها، لم تسمع، وركضتُ إليها، فأتوا إليّ وقالوا إنني مجنون. وتحسّست رأسي فوجدته هناك. وقالوا: انتبه، فصرختُ في وجوههم: هم عليهم أن ينتبهوا لأن العصافير في السهل وحنّون أيضًا. ولمحْتُها على رأس الجبل توشوش عصفورًا وتُطلِقه، ولم تكن خائفة من الرَّصاص.

- ابتعدْ من هنا، أتريد أن تموت؟

- لا، لا أريد أن أموت، لكنني سأموت عصبًا عنّي!

ولم تُصدِّقني حنّون.

وقالت: إذا متّ سأزعل منك كثيرًا، فاهم؟

فخفتُ.

- سأموِّتكَ إذا متَّ، سأقتُلُكَ.

وخفتُ أكثر.

وقلتُ لها: أنتِ لم تفهمي، حتى لو قتلْتِني فسأموت. فقالت إنها لا تمزح. وقلت لها: وأنا أيضًا، لا أمزح. ودعوْتها أن تطير معي، فهزَّتْ رأسها: لا، وراحت تركض، سبقتُها، قلت لها: إن تعليم العصافير الحذَر لم يعد مجديًا، فلم تُصدِّقني، وخافتْ حين قلت لها إنني لم أعد أُطلق عصافيري إلى الفضاء، وإنني أُطلِقُها في بطْني، فصرختْ في وجهي: تأكلها؟! أتأكل العصافير؟! أنت؟!!!

فقلت: لأ يا هبلة، أنا لا آكل العصافير.

- أكيد؟

- أكيد.

وضحكتْ، وراحتْ تركض.

واصطدتُ عصفورًا، فطرتُ إليهم، وقفتُ أمام الطابور وقلت: أراهنكم أنكم لن تستطيعوا اصطياده حتى بـ "الكارلو"، وحتى بـ "السِّيمينوف" أو "الدُّوشكا" فقالوا: نقبل الرِّهان، هيا، أطلقه.

وجّهزوا البنادق. فرقعتْ بيوتُ النار، وارتفع الرّصاص ليراقبَ نقاط الضوء في أخر الفوهات، وأطلّتْ عروق أيديهم، وجباهُهم تنبضُ، يتطلّعون، يبحثون عن الجهة التي سيسلكها العصفور.

وقالوا: ألا تريد أن تنتف ذنبه؟ فلم أردّ.

- كما كنتَ تفعل دائما؟

ولم أردّ.

وجهّز أحدهم قنبلة يدويَّة!

قال: إذا هبط العصفور سألقيها عليه.

وفي أقلِّ من لحظة، أقلّ، أقلّ، ابتلعْتُه، فاستدارت البنادقُ نحوي وصرخوا: تأكله حيًّا، مجنون؟

وقلت: أنتم المجانين، لقد ابتلعتُه، مَن يستطيع أن يصطاده وهو هنا؟

وأحسستُ بالعصفور يتخبَّط في بطني ويبحث لأجنحته عن مكان بين الأجنحة الأخرى. وقلت لخليل: تعال، حِسّ بطني، وشوف، العصفور جُوّا طاير.

وسمعتُ انفجارًا كبيرًا، أكبر من كلِّ الانفجارات، وقلت: إن قنبلة الشِّبل انفجرتْ، لكنها لم تكن هي. وراحت حنّون تركض في البعيد، إلى حيث الدّخان الصاعد من السهل، وقال الأشبال: قذيفة!

وقال أحدهم: "النِّظام" مش جايبها البرّ!

فقلت: إنها سقطتْ في البرّ.

فقالوا: مُخّك إلْلي برّا راسك.

وركضتُ باتجاه حنّون، ناديتُها، وسمعتُ الأولاد يقولون: إنّه لا يمشي على الأرض.

فقلت: لقد صدَّقوني أخيرًا.

وقالوا: لا، هذا سراب.

فقلت: لم يصدِّقوني.

وكنت أطير إلى حنون.

ونادوا: سيقصفونكَ، وكانوا قد انتشروا بين الصّخور، وكمنوا.

وصلتُها، كانت تلمّ سربًا كاملًا من عصافير قتيلة وتبكي، وبكيتُ معها، وقلتُ لها: تعاليْ.

قالت: أنا سأظلُّ هنا.

وحملتُ العصافير وعدتُ إليهم، نعفتُها في وجوههم: أتريدون أن تأكلوا العصافير، آه؟! كلوا. وحلَّقَتِ الأجنحة الميتة طويلًا فوق رؤوسهم قبل أن تسقط عند أقدامهم.

ودقتْ يدٌ البابَ، فخرجتُ.

قلت: خالتي خالتي، قائد المعسكر. ولم أدْرِ إن كنتُ خائفًا أم لا.

وسألني: أين أبوك؟

فقلتُ له: طار. فلم يصدِّقني.

وخرجتْ أمي: ليس هنا. وقالت: إنه يتحدَّث هكذا دائمًا.

وكانت تشير إليّ.

وقالت لي: أدخل.

فقلت لها: لا، سأطير!

واندفعتُ من تحت ذراع قائد المعسكر المتكئ على حَلْق الباب، وطرتُ فوقهم.

- السهل أصبح خطرًا، هناك رائحة بارود، الأمور تتعقَّد، ونخشى أن تتطوَّر الاشتباكات، هم يكتفون بإطلاق قذيفة أو اثنتين على الأراضي الخالية، لكن الأمرَّ لا يبشِّر بخير.

وقلت: وما دخلي أنا؟ فالتفتَ المدرِّب إليَّ ولم يقل شيئًا.

فقلت: أفحمتُه. وفرحتُ.

وقال لأمي: حاولوا أن تمنعوه من النّزول إلى السهل، لا أريد أن يصيبه مكروه.

فقلت له: قلْ للطيور أن تأتي إلى هنا!

وجاءت خالتي أخيرًا. وقالت لي: انزلْ. فقلت لها: لا، عارف! تريدين أن تربطيني بخيط.

وقالت لي: انظر إلى نفسك كيف أصبحتَ، انظر إلى عينيك اللتين أصبحتا كالجُحور. ونظرتُ إلى عيني فلم أرهما، وقلتُ لها: عيناي قويّتان، تريان.

وابتعدتُ.

فنادت: وين؟

- بدِّي أطير.

- طير شوي وارجع، طيّب.

- لا، بدّي أطير كثير.

واتّسع السّهل، أصبحَ أكبر بكثير من الأيام الماضية.

وقلت: إن السُّهول تكبر أيضًا كالأولاد.

وفرحتُ أنني كما أنا، لا تخشاني العصافير.

وبحثتُ عن حنّون، لم أرها.

وسمعت قائد المعسكر ينادي: عُدْ.

ولم أعد أسمعه منذ أن قال لي: كُلِ العصافير.

وأطلق الرّصاص في الهواء. التفتُّ إليه، لوّح بيده. وقلت: لن أعود.

وهبطت القذيفة في البعيد، انفجرتْ كفخّ وحش، وتصاعدَ الغبار. ورحتُ أركض، فتّشتُ التراب الطائر، التراب السّاخن وسط الغبار العالي، وكانت هناك شظايا حمراء، بحثتُ عن عصافيري، وفرحتُ. لم يكن هناك أيّ جناح ميت، لكنني لم أستطع الخروج، وخفتُ على السَّهل لأنني لم أعد أراه، قلت، القذيفة قتَلتِ السَّهلَ.

وبقيتُ أبحث طويلًا، إلى أن اكتشفتُ نفسي في حفرة كبيرة، وكنتُ أتسلَّقها فأنزلق إلى قاعها، ثم أعود وأتسلّقها، فأنزلق ثانية، إلى أن نجحتُ أخيرًا فرأيتُ

السَّهل: لكنني قلت: كيف لم أتـذكّر أجنحتـي. وضربـتُ عـلى رأسي فتـصاعد غبار. بحركة واحدة كان يمكن أن أكون خارج الحُـفرة، وقلـت سـأظلّ أفكـر بأجنحتي دائمًا كي لا أنساها. وانفجرتْ قذيفـة أخـرى في بعيـد أخـر. فطـرتُ إليها، ورأيتُ السنونو فجأة هناك، حين اندفعت القذائفُ أكثر وأكثـر للـسهل، كان يطير بينها، بين شبكة النـار، ينعطـف بـسرعة بـين قـذيفتين، ولا يـصطدم بالثالثة التي تسدُّ الفسحة وكنتُ أطير، أنـزل، أفتّش التراب وأرتفـع، واعتمـتِ الدنيا، ولم يكن في السَّهل سِلْكٌ لأنام عليه، ولا حتـى أغـصان، وجـدتُ حفـرة صغيرة، كانت دافئة، فجلست فيها أستريح لكنني نمت.

طرتُ مع حنّون، وكنتُ خائفًا عليها، فلم أرتفع كثيرًا، حنّـون التـي كانـت تُحلِّق معي على بعد خطوات من الأرض، عبرَ السهل فوق المخيّم، فوق معسكر الأشـبال، بـين القـذائف، وسـمعتُهم ينـادون ويبكـون، فتعثّـرتُ، سـقطتُ، صحوتُ..

وسمعتُ صوت المدرِّب: علينا أن نجده الليلة.

وكانوا يبكون.

وقلت: لماذا يبكون، وكنتُ سأقول لهم: إنني لم أمـت، حتـى يبـدأوا بالبكـاء عليّ.

- أية محاولة للوصول إليه نهـارًا ستجعلهم يُكثِّفـون القـصف، وسنُعرِّضـه للخطر أكثر.

وقلت: لا تخافوا عليَّ، سأمرُّ بـين القـذائف دون أن تـصيبني، أنـا الـسّنونو، وسمعت صوت أبي، وصوت الزوبعة، وسمعت صوت حنّـون معهـم فقلـت: لقد خانتني وأصبحت منهم!

وكتمتُ أنفاسي كي لا يـسمعوها، وحـين اسـتيقظتُ خفـتُ، خفـتُ عـلى عصافيري في داخلي، فرُحْتُ أتنفَّس وأتنفَّس هواء كثيرًا ملأتُ به صدري ويدي وقدمي ورأسي، هواء يكفي لكّل العصافير..

وقبْلي استيقظت القذائفُ. وقالت لي حنّون: إنني كسلان. وقلت لهـا: كنـتُ أهبل حين اعتقدتُ أنك منهم. وطرتُ، رأيتُ القذيفة، طرتُ، سبقتُها، ورحتُ أكشُّ العصافير من أمامها قبـل أن تـصل، وانفجـرتْ خلْفنـا، أنـا والعـصافير،

وقلت سأسبق الصاروخ حتى. واندفعتُ بين القذائف دون أن تلامسني، وملأ الدُّخان السهل، ليس السهل وحده، بل المخيّم، ومعسكر الأشبال، وحِرْش مستشفى الأشرفيَّة.

وغابت الشمس، وأشرقت من جديد، وظلّت تغيب وتُشرق والقذائف تتساقط، وكنت تعبتُ، تعبتُ كثيرًا.

العصافير تَتْعبُ أيضًا.

ورأيتهم يتقدَّمون باتجاهي من بعيد، الأشبال، قائدهم، أمّي، خالتي مريم، إخوتي، أبي، فؤاد الكسول، وسعود الشرّاني والزّوبعة، و..

وكانوا يبحثون، اقتربوا، تجاوزوا سكّة الحديد، اقتربوا أكثر، وكانت كل عصافيري معي، رأوها، عصافيري التي تصل الأرض بالسماء كالنّافورة.

- إنها تخرج من صدره، انظروا.

- إنها تخرج من بطنه.

- اركضوا العصافير ستأخذه، إنها تحمله. ركضوا تعثّروا، في تلك المسافة القصيرة، مئات المرَّات، آلاف المرَّات، وكنتُ أراهم يقتربون وأسمعهم أكثر، والعصافير ترتفع وترتفع.

أمّي، تصرخ: يمّه.

وخالتي تصرخ: يمّه.

ولم يكن نداء أمَّيْن كافيًا بالنسبة لي كي أردَّ. وظلّوا يركضون، يتعثَّرون، وكنت فَرِحًا لأن حنّون تجلس عند رأسي.

فَرِحًا لأن القذيفة التي ألصقتْني بالأرض لم تصل لعصافيري.

فَرحًا لأن عصافيري كانت ترتفع وترتفع..

عصافيري، وعصافير أخرى لم أكن رأيتها من قبل..

وكانت هناك رفوف سنونو، أيضًا.

فرحًا، لأنهم حين وصلوا، لم يجدوا غير قميصي في المكان!

في الملهاة وجذورها

لَهَا بالشيء، لهوا: أولع به.

لَهَا، لِـهْيانا عن: إذا سلوتَ عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه.

ولَـهَت المرأةُ إلى حديث المرأة: أنِست به وأعجبها.

قال تعالى (لاهية قلوبهم) أي متشاغلة عما يُدعَونَ إليه. وقال (وأنت عنه تلهّى) أي تتشاغل.

وتلاهوا: أي لها بعضهم ببعض.

ولهوت به: أحببته.

والإنسان اللاهي إلى الشيء: الذي لا يفارقه. وقال: لاهى الشيء أي داناه وقاربه. ولاهى الغلامُ الفطامَ إذا دنا منه.

واللُّهوْةُ واللُّهْيةُ: العَطِيَّة. وقيل: أفضل العطايا وأجزلها.

(لسان العرب)

إبـراهيم نصر اللـه

ـ مواليد عمّان من أبوين فلسطينيين اقتُلعا من أرضهما عام 1948

صدر له شعرا:

الخيول على مشارف المدينة 1980 . المطر في الداخل 82. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق 84. نعمان يسترد لونه 84. أناشيد الصباح 84. الفتى النهر والجنرال 87. عواصف القلب 89 .حطب أخضر 91. فضيحة الثعلب 93.الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين 94.شـرفات الخريف 96. كتاب الموت والموتى 97. بسم الأم والابن 99. مـرايا الملائكــة2001. حجرة الناي 2007. لو أنني كنت مايسترو2008

الروايــات:

براري الحُمّى 1985 . الأمواج البرية 88 .عَــوْ 90 . مجرد 2 فقط 92. حارس المدينة الضائعة 98. شرفة الهذيان 2005. شرفة رجل الثلج 2009

الملهاة الفلسطينية: زمن الخيول البيضاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى.

كــتب أُخرى:

- هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق 2000
- الفن والفنان - كتابات جبرا إبراهيم جبرا في الفن التشكيلي 2000
- ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم 2002
- السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق 2006
- صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008

- ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، الإيطالية..
- أقام ثلاثة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب- عمان 1993
- نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر 1991 .جائزة تيسير سبول للرواية 1994

جائزة سلـطان العـويس للشــعر العربي 1997

موقع الكاتب على شبكة الإنترنت

www.ibrahimnasrallah.com

الملهاة الفلسطينية

يتكون مشروع الملهاة الفلسطينية، الذي بدأ الشاعر والروائي إبراهيم نصر الله العمل عليه منذ عام 1985 من مجموعة روايات، لكل رواية استقلالها التام عن الروايات الأخرى، على مستوى الشخصيات والبناء الفني والفترة الزمنية؛ لكن المشروع يسعى لرسم صورة من الداخل للحياة الفلسطينية، إنسانياً وثقافياً ووطنياً؛ وبصدور رواية (قناديل ملك الجليل) فإن روايات الملهاة الفلسطينية تغطي حوالي 250 عاماً من التاريخ الفلسطيني الحديث، منذ نهايات القرن السابع عشر، حتى ما بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

يمكن للقارئ أن يبدأ بالرواية التي يريد، ولكن إذا ما أراد القراءة حسب الفترة التاريخية، صعوداً، فيكون ترتيب القراءة على النحو التالي:

قناديل ملك الجليل، زمن الخيول البيضاء، طفل الممحاة، طيور الحذر، زيتون الشوارع، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى.


الملهاة الفلسطينية
قناديل ملك الجليل
زمن الخيول البيضاء
طفل الممحاة
طيور الحذر
زيتون الشوارع
أعراس آمنة
تحت شمس الضحى.

IBRAHIM NASRALLAH
THE BIRDS OF CAUTION



«تناولتُ **طيور الحذر**، تصفحتُ صفحاتها الأولى على حذر، وفجأة صرتُ مثل طيور الصغير، بطلها، أرفرف على حذر وأنا التقط الحَبَّ من حول ومن قلب الفخاخ.. قرأتُ وقرأتُ.. اعتقلتني الرواية، كنتُ أعيش، أضحك بعمق، ثم أتلفت حولي خشية أن يسمع أحد ضحكي فيظنني قد جننت، ثم أجهش انفعالاً من غير دموع، وحين انتهيت من القراءة ووضعت الكتاب جانباً، شعرت بفراغ موحش، إذ ما الذي سأفعله الآن..؟!!

.. فعدت لقراءتها من جديد».

- نازك الأعرجي - القدس العربي

«تكمن أهمية هذه الرواية في قدرتها على تشكيل فضاء روائي ذي خاصية دالة على مظاهر معاناة الشعب الفلسطيني النازح عن وطنه والمتسمة بالقسوة والإكراهات والاضطهاد السياسي والإحساس بالانكسار والحنين والحلم بالعودة.

وبإبداعه هذا النص الروائي استطاع نصر الله تتبع سنوات الشتات الفلسطيني منذ الخروج الأول عام 1948 وحتى تداعيات هزيمة عام 1967 حيث تناول مادة يومية وصنع منها عالماً روائياً مفصلاً بصورة مذهلة، لا سجلاً تاريخياً، فاتحاً باباً جديداً هو مفهوم التاريخ في النص الروائي وأهمية وجوده لا بوصفه أحداثاً مباشرة بل جوهراً لروح زمن ما».

- د. مرشد أحمد - كتاب البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله

«تبدو العلاقة الجدلية بين العصفور والقفص، بين الحرية والعبودية قائمة في التساؤل عن قدرة الفلسطيني على الطيران، وقد زجّته الظروف وراء غابة من القضبان، ودفعه عدمُ حذره إلى انطباق الفخاخ عليه...

ويبقى درس الرواية المستفاد: تعلَّموا الحذر».

- أحمد زين الدين - الحياة

ISBN 978-9953-87-522-4



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com